

مكتبة الأسرة 1999

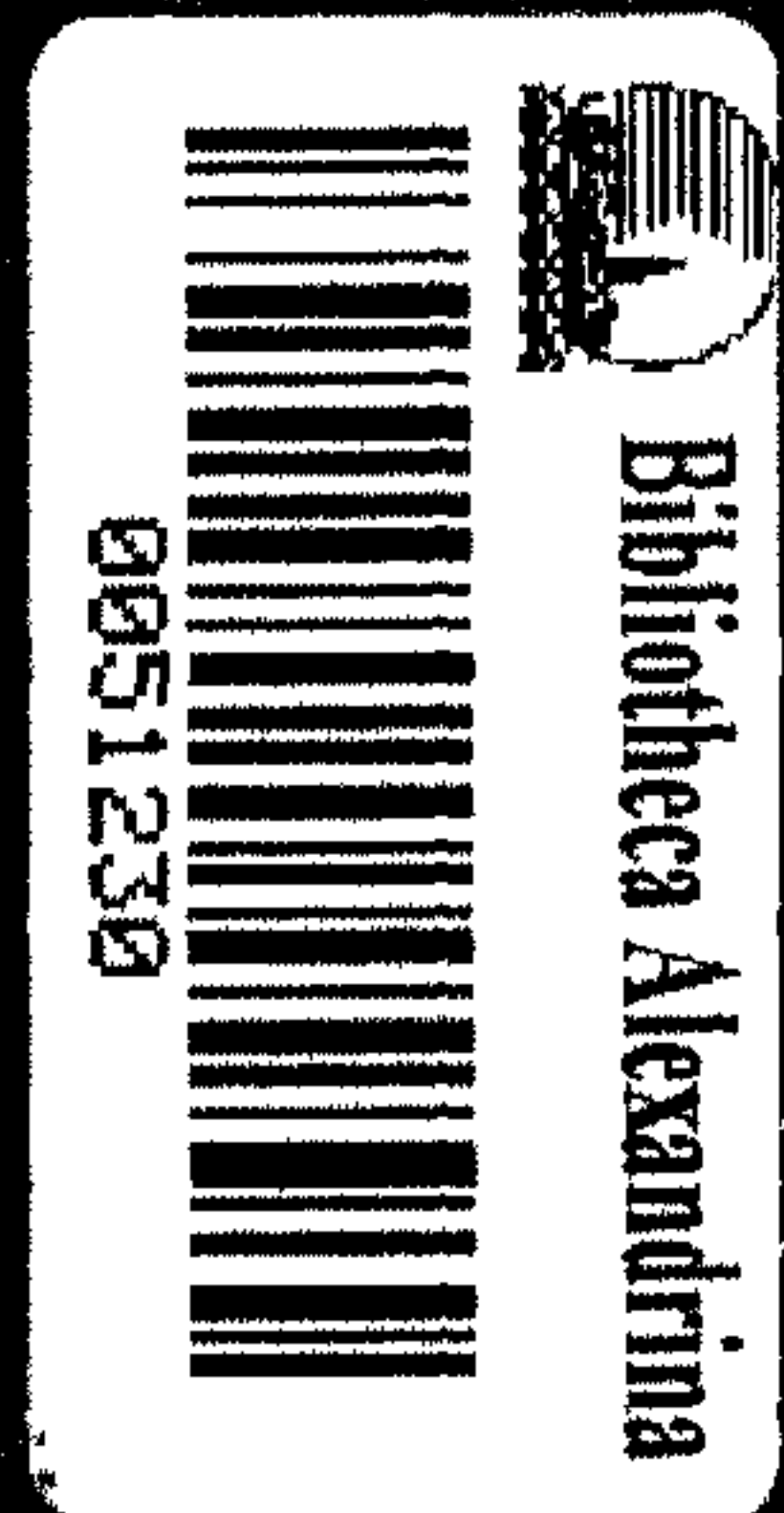
مكتبة
الأسرة
1999

الأعمال الخاصة



سلام الصقور

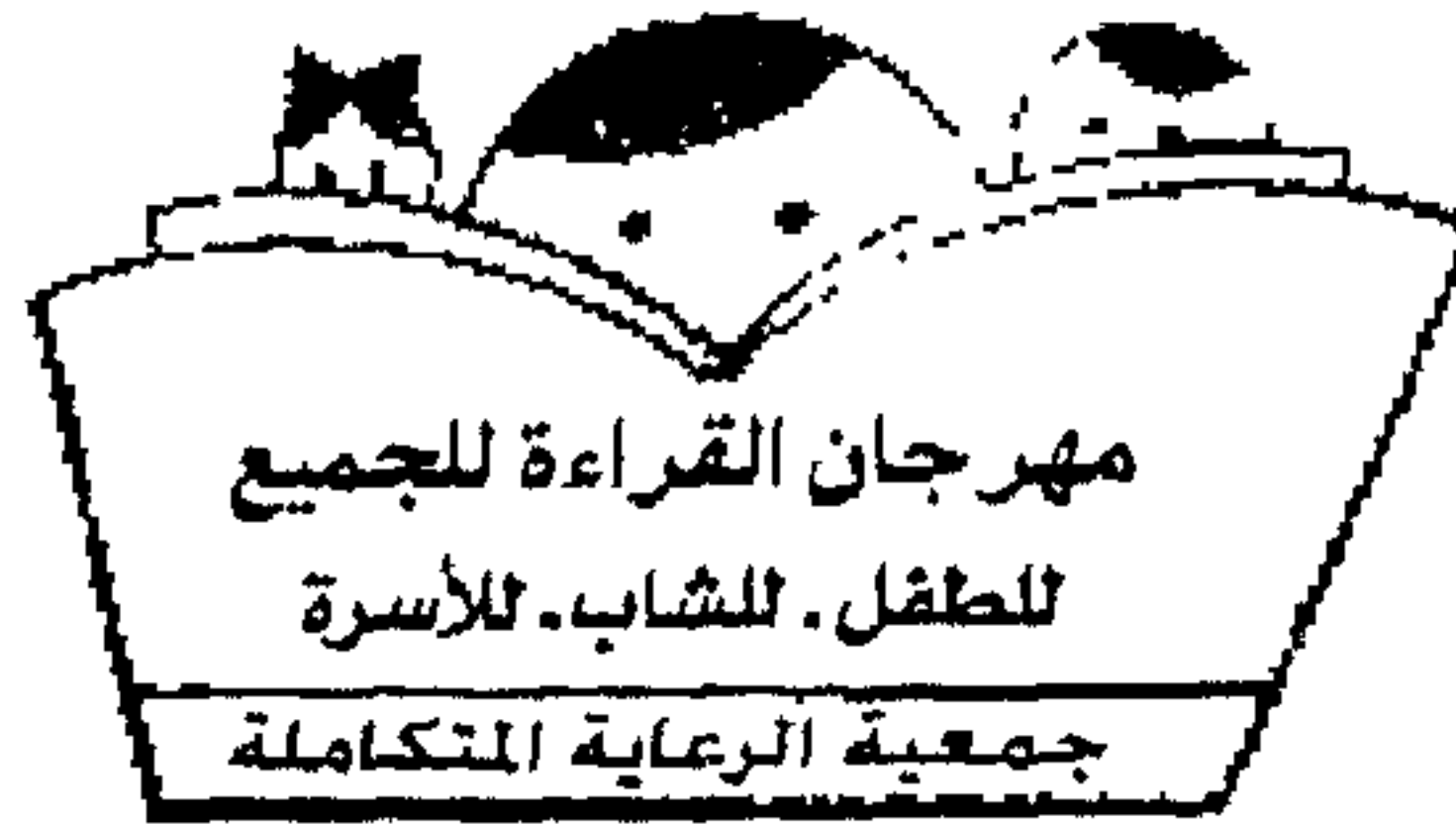
محند عبد المنعم



سلام الصقور

سلام الصقور

محمد عبد المنعم



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

سلام الصقور

محمد عبد المنعم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

أهداء

إلى كل من حمل السلاح عندما كان العدو على الأبواب.. وانتظم فى
مسيرة البناء والركب الحضارى عندما حان الأوان.

المؤلف

تمهيد

عندما يبدأ الكاتب فى تأليف كتاب، فإنه لابد وأن تكون هناك فكرة أو هدف من وراء الكتابة.. فكرة تؤرق الكاتب ويريد أن يشارك فيها الجميع، وفى ذلك فإنه يخرج كل ما فى أعماقه عسى أن يجد ذلك قبولا وقناعة لدى القراء والمهتمين بشئون الوطن، والهدف من هذا الكتاب هو توضيح التحول الكبير الذى انتقلت به مصر من مرحلة الصراع العسكرى إلى مرحلة السلام، هذا الانتقال الذى لم يستوعبه البعض تماما وتصوروا أنه استسلام أو نوع من الخزى والتقاعس.

.. الهدف من هذا الكتاب هو أن أقول للجميع أن الحرب كانت سبيلنا إلى السلام، وأن حرب أكتوبر ٧٣ هى وحدها التى أدت إلى انسحاب إسرائيل سلميا من أراضى سيناء، وفى الصفحات التالية من الكتاب أشرت أبرز الروايات والأدلة الموثقة لإثبات الرأى الذى أتبناه.. ولم أكن لأتبناه لولا أننا كنت طوال هذه الحقبة قريبا من موقع الأحداث.. إما كواحد من آلاف المقاتلين الذين اشتركوا فى جولات الحرب (وكان حظى منها ثلاث جولات خضتها كمقاتل) أو كصحفى ركز كل نشاطه على المجال العسكرى بحكم خبرة سابقة، وأيضا لأن مصر كلها فى تلك الحقبة لم تكن تهتم بأى شىء إلا بالشئون العسكرية، وبمعركة التحرير التى أصبحت قدراً محترماً بالنسبة للجميع.

وهكذا فإنه بين صفحات هذا الكتاب سيجد القارئ أبرز نقاط وجوانب حرب أكتوبر ٧٣ من وجهة نظر القادة المصريين، ومن وجهة نظر الجانب الآخر، ومن خلال هذه

النقاط والجوانب سننتقل إلى أعماق المجتمع الإسرائيلي لنرى معاً، من خلال وثائقهم، كيف أن الأداء العسكري المميز للمصريين زلزل كيان هذا المجتمع ودفعه إلى تغيير أفكاره الثابتة، ومعتقداته السائدة ، خاصة فيما يتعلق بالأرض وبسياسات التوسع، وبذلك - وبذلك وحده - أصبح المجتمع هناك مستعداً وتواقاً إلى السلام.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى دور الزعيم الراحل أنور السادات وكيف أمكنه استقراء الواقع بذكاء شديد، وكيف استغل هذا الواقع ليبنى رؤيته التاريخية التي غيرت من تاريخ المنطقة، والتي مازالت ماثراً جدل حتى الآن.

ثم نمضي بعد ذلك معاً لنرى الدور العملي للرئيس مبارك الذي حول السلام من مجرد رؤية، أو تطلع، إلى واقع ملموس وحقيقة راسخة زاد من ترسيخها عود الأطراف العربية أدراجها لتلضم إلى مبادرات به مصر في السبعينيات، وإلى ما كان سبباً في القطيعة العربية لمصر بعد مؤتمر بغداد الشهير.

وعندما اختفى الصقور من مسرح السياسى الإسرائيلى - لأن فى رأى أن الصقور وحدها هى التى تصنع الحرب وتصنع السلام، وفى رأى أيضاً أن الحمام لا دور له فى حرب أو سلام وأنها مجرد رمز للدعاية المفقودة فى العالم منذ فجر التاريخ عندما حدث ذلك بدأ السلام يتعثّر، وبدأت المخاوف والعداوات تستقر فى النفوس وسوف يظل هذا الركود سائداً إلى أن يظهر جيل آخر من الصقور يبدد المخاوف وينتزع أغصان الزيتون، ويفرض السلام على باقى أرجاء منطقة شهدت أكثر من غيرها مآسى حروب أمتدت لأكثر من نصف قرن من الزمان .. ويمكن أن يستمر امتدادها إلى الألفية الثالثة من تاريخ البشرية .

محمد عبدالمنعم

القاهرة فى يونيو ١٩٩٩

مقدمة

من الأقوال المأثورة للكاتب العظيم أوسكار وايلد.

«أنا جميعا نخوض بأقدامنا فى الوحل ولكن بعضنا يتطلع ببصره دائما نحو النجوم».

وقد مضت سنوات طويلة عندما قرأت هذه العبارة لأول مرة، ولكنها كانت ثابتة فى ذهنى على مر السنين، تؤكد منها كل الأحداث الهائلة التى شهدتها مصر فى السنوات الأخيرة فى أحلك أوقات الهزيمة عندما ازداد «غوص الاقدام فى الوحل»، كان هناك دائما أولئك الذين «يتطلعون نحو النجوم» لا أنسى منهما صديقان: الشهيد الراحل طيار سامح مرعى، والشهيد النقيب طيار أحمد نور الدين.. ظلا يحاربان حتى استشهادا، وكانا يدركان تماما أن هذا هو المصير ولكنهما كانا يقولان دائما - بعد الهزيمة الكبرى فى يونيو ١٩٦٧ - «أنا جميعا نتكلم كثيرا ويجب علينا أن نكف عن الكلام.. وعلى كل من يستطيع أن يفعل شيئا من أجل هذه البلد - أن يشرع فورا فى عمله دون كلام أو ضجيج» وبمعنى آخر فإن هذين الصديقين العزيزين كانا يحلقان مع النجوم فى كل مرة يخرجان فيها لاعتراض طائرات القتال الاسرائيلية وطيارىها الذين اكتسبوا سمعة اسطورية بعد يونيو ١٩٦٧.. وعندما يتغلب المرء على كل مخاوفه، ويصفه خاصة الخوف من الموت، فإنه يكون قد وصل إلى أعلى درجات الرقى الانسانى.

من نفس هذا الطراز كان شهيد مصر الفريق عبدالمنعم رياض.. «جنرال» بمعنى الكلمة، كان يسمو دائماً بنفسه ويعلو ولا يستطيع أبداً أن يقبل الهزيمة وسلالتها من عار، وانكسار، وانحطاط... فكان أن استشهد على الحد الأمامي من جبهة القتال في وقت كانت فيه طبيعة عمله ورتبته تحتمان عليه بقاءه في مراكز القيادة المحصنة في الخطوط الخلفية، بل وفي القاهرة نفسها... ولكن حال دون ذلك خاصية النبل الإنساني، وبالذات نبل الإنسان المقاتل الشريف الذي يواجه جهنم نفسها في سبيل وطنه وكرامته!

وفي هذا الاطار بل وفي قمته يأتي دور الزعيم الراحل محمد أنور السادات الذي واجه عدوه في أكتوبر ١٩٧٣ في وقت كان فيه الجميع يسبحون في أوحال اليأس والهزيمة، وكان قراره بالصمود يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ هو الذي حسم لمصر والعرب أول معركة عسكرية ناجحة ضد إسرائيل.

حينذاك خرج المهرجون يقولون بأن الحرب كلها كانت تمثيلية، ولا أفهم كيف يمكن أن يضحي إنسان بشقيقه الأصغر في تمثيلية «كما فعل السادات فكلنا نعلم أن النقيب طيار عاطف السادات كان من أول ضحايا حرب أكتوبر ١٩٧٣ عندما استشهد في أول طلعة جوية هجومية ظهر السادس من أكتوبر

وعندما اتجه الرجل إلى السلام بعد ذلك بأربع سنوات قالوا أنه باع القضية، ولا أفهم كيف يمكن أن يسترد إنسان كل شبر في أرضه المحتلة ليرد بذلك القضية إلى منبعها وهي قضية فلسطين بدلاً من قضية سيناء أو الجولان أو الضفة) كيف يمكن أن يكون مثل هذا الرجل قد باع القضية؟ حقيقة لا أفهم.

وإذا كانت مصر السادات قد استردت بحرب أكتوبر كبريائها وشرفها العسكري فإن مصر السادات عندما ارتادت اتجاه السلام في المنطقة استطاعت أن تجتذب احترام وتقدير العالم المتحضر كله الذي اهتز لاغتيال السادات كما لم يهتز بموت كيندي أو تشرشل أو ديجول.. لم يكن من الممكن أن نبدأ هذا الكتاب الذي يحاول أن يوضح بموضوعية صورة الحرب ودوافع السلام بغير هذه الكلمات، لأن «رجاء الأوحال» خرجوا الآن - رغم أن السادات اغتيل بسبب أفكار ومعتقدات دينية لا قبلنا لى بمناقشتها - يحاولون أن ينالوا منه بأحقادهم ومن إنجازاته الواضحة في مجاز الحرب والسلام.

كما لو كان موته بهذه الطريقة المأساوية لم يشف غليل قلوبهم التي لا تفرز غير الحقد والكراهية ، وفي ذلك أكبر دليل على ضخامة الدور الذي أداه هذا الرجل على مسرح الاحداث والتاريخ الإنسانى، الذى يمثل للأسف بكل ألوان الجحود، لأنه حتى فى موته بهذا الاسلوب لم يستطع أن ينال شفقتهم.. والشفقة لا تمنح إلا للضعفاء والاقزام.

محمد عبد المنعم

هكذا تعلم العالم من المصريين!

الأسلحة الحديثة

أو

الأفعوان الأسطوري

حققت تكنولوجيا الصناعات العسكرية ابعادا خيالية لم يكن ليتصورها أى إنسان منذ سنوات، ويكفى الإشارة إلى تلك الاحصائية المذهلة التى تؤكد أن العالم ينفق مليون دولار فى الدقيقة الواحدة على التسليح، وأنه بعد سنوات سيتضاعف هذا المبلغ فى عام ٢٠٠٠، ويكفى أيضا معرفة أن جذور التسليح وصل إلى زرع الغمام فى المدار حول الكرة الأرضية!!

وفى ذلك فإن الحروب التى تنشب فى أركان الدنيا، وما ينتج عنها من خسائر، هى حقول التجارب التى يختبر فيها سلاح ما . ثم يبدأ بعدها مباشرة تطوير سلاح مضاد... وهكذا حتى أصبحت الأسلحة الحديثة مثل هذا الأفعوان الخرافى الذى وصفته أساطير الأولين والذى يتكون من جسم ضخم ورؤس متعددة ما أن يقطع إحداها حتى ينبت بدلا منها رأسين جديدين أو ثلاثة!!

ولقد كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ هى آخر حرب نظامية بالشكل الذى ينبغى أن تكون عليه الحروب الحديثة، وقد يدهش القارئ لمعرفة ما تبعها من تطوير وابتكارات،

لا ننحاز إذا قلنا أنها قامت بشكل أوضح على الأفكار والمبادئ والأساليب التي دخل بها المصريون هذه الحرب التاريخية.

مئات الدراسات والكتب والمقالات، خرجت عن حرب أكتوبر ٧٣ وفي مقدمة لدراسة نشرها معهد استوكهولم الدولي لأبحاث السلام جاءت العبارة التالية:

«لقد أعلن العالم الشهير ألبرت اينشتاين في عام ١٩٤٥ أن القنبلة الذرية قد تفرض على الجنس البشرى ضرورة تنظيم شئونه الدولية.. تلك الشئون التي لن تنظم أبدا بدون هذا الضغط ولید الخوف.. ومع ذلك فإن الأحداث العالمية خلال عام ١٩٧٣ أكدت أن أمنية اينشتاين المتواضعة في أن يرى فائدة واحدة - على الأقل - تتحقق من وراء تصنيع وتطوير الأسلحة الذرية.. تلك الأمنية المتواضعة لم - ولن - تتحقق أبدا، والسبب وراء ذلك هو حرب أكتوبر ١٩٧٣».

لقد تأكد العالم كله أن الحرب الحديثة - وأخرها حرب أكتوبر ١٩٧٣ - أصبحت ساحة هائلة للدمار، ولقد دارت حرب أكتوبر بايقاع سريع أشبه بالحرب الخاطفة التي ابتدئها جنرالات هتلر ولكن بصورة خيالية بما أسفرت عنه من دمار وبما استخدم فيها من وسائل علمية وتكنولوجيا متقدمة.

وفي ذلك تقول دراسة المعهد السويدي:

«لقد شهدت حرب أكتوبر استخدام الأسلحة الحديثة بشكل لم يسبق له مثيل. كما وكيفا، تخللت هذه الحرب معارك فريدة في ضرواتها برا وجوا ألقي خلالها جانبي الصراع بحوالي ٥ آلاف دبابة وألفي طائرة قتال، وجاءت الخسائر جسيمة في الأرواح والمعدات طوال الأسابيع الثلاثة التي استغرقتها عمليات القتال حتى وصل معدل الخسائر إلى تدمير أكثر من دبابة كل ١٥ دقيقة وأكثر من طائرة كل ساعة زمن».

أسلحة أشبه بالذرية

من حيث القوة التدميرية

وتؤكد كافة الدراسات والمعاهد العالمية أنه بناء على حرب أكتوبر تأكد أن استخدام الأسلحة التكتيكية الحديثة بالأسلوب الذي استخدمت به في ١٩٧٣، أدى إلى آثار

بعيدة على التخطيط والفكر العسكرى العالمى وبصورة أوضح بكثير من تلك التى نتجت عن تجارب القتال فى جنوب شرق آسيا وخاصة حرب فيتنام.

وأكثر من ذلك فإن مبدأ الردع النووى تكتيكيا وإستراتيجيا، يجرى إلى الآن إعادة بحثه على ضوء نتائج حرب أكتوبر، بل إن وزارة الدفاع الأمريكية - طبقا لما نشرته مجلة - نيوزويك - بدأت تعيد النظر بشأن الحرب التقليدية، وذلك بعد أن أظهرت هذه الحرب للمخططين العسكريين الأمريكيين أن تكاليف خوض القتال فى المستقبل بهذه الصورة الجديدة التى شهدتها رمال سيناء، ستصل إلى عشرات المليارات من الدولارات ثمنا للخسائر فى الأسلحة والمعدات فى الأسبوع الواحد.

٢٠٠٠ مدفع

و ١٠٠ ألف دانة

ويكفى أن نعلم أنه فى تمام الساعة الثانية وخمس دقائق ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ انطلق من الضفة الغربية لقناة السويس أكثر من ٢٠٠٠ مدفع لأجراء عملية التمهيد النيرانى للهجوم وعلى الفور استطاعت هذه المدافع إسكات أكثر من ٩٠ فى المائة من بطاريات مدفعية الخصم وكان معدل طلقات المدفعية ١٧٥ دانة فى الثانية الواحدة أى أنه فى الدقيقة الأولى أطلقت هذه المدافع ١٠٥٠٠ دانة.

وبلغ عدد الدانات التى أطلقت فى عملية التمهيد النيرانى ١٠٠ ألف دانة زاد وزنها عن ٣ آلاف طن من المواد المتفجرة.

ومن هنا نستطيع أن نفهم العلاقة بين أسلحة الحرب التقليدية فى العصر الحديث وقوة التدمير للأسلحة النووية المحدودة الآن، إن المسألة فى النهاية تتعلق بالقوة التدميرية التى أصبحت حاليا بفضل الأسلحة الحديثة وقوة نيرانها الهائلة تقترب من نفس القوة التدميرية التى تحدثها الأسلحة الذرية وأصبح بإمكان الأسلحة التقليدية الحديثة أن تنتج كمية من النيران، وبالتالي قوة تدميرية تفوق القوة التدميرية التى أحدثتها قنبلة هيروشيما.

وعلى الصعيد العالمى، وفى ضوء الدور الضخم الذى لعبته المدفعية المصرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، فإنه يجرى حاليا التوفيق بين المدافع وأشعة الليزر والعقول

الاليكترونية وأجهزة الرادار بحيث تصبح مدافع ميدان - وفي النهاية فإن كل الأسلحة ما هي إلا مدافع الميدان - وفي النهاية فإن كل الأسلحة ما هي إلا مدافع: في البر أو البحر أو الجو - أعظم أثرا وأكثر دفعة في إصابة الهدف.

العالم يطور مدافعه

وفي ذلك يقول تشارلز ماك ليلا ند مدير مؤسسة الدراسات الدولية، بالولايات المتحدة الأمريكية، إن الأمريكيين يستطيعون الآن إضافة جهاز توجيه بالليزر لمدافع المدافع، ووضع جهاز رادار مزود بعقل اليكتروني، يصل ثمنه إلى مليون دولار تقريبا، مع كل بطارية مدفعية وبذلك يمكنهم إصابة بطاريات العدو ومحورها من الوجود، ويضيف المسئول الأمريكي قائلا إن لديهم كاميرا تلفزيونية بحجم علبة السجائر يستطيعون وضعها داخل الدانات والصواريخ لأننا بحاجة إلى كل هذه الأسلحة من أجل المعركة القادمة التي حددت معالمها حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وبمعنى آخر فإن مدافع أكتوبر كانت على درجة هائلة من الفاعلية بحيث أخذ الفكر العسكري العالمي في إيجاد حل يستهدف إجابة هذه المدفعية - بمدافع أكثر تطورا - عندما ينشب موقف مماثل في المعركة القادمة.

وفي إطار الدور الذي لعبه رجال المدفعية، فإن التاريخ قد سجل لهم الدور الرائد الذي لعبه رجال المقذوفات المرجحة المضادة للدبابات بعد أن أحدثوا ثورة في التكتيكات الحديثة عندما هزوا مكانة الدبابة كسلاح هجومي وتفوقوا عليها مما أدى بجيوش الدول الكبرى إلى إعادة حساباتها.

الرجل وصاروخه الصغير

واقعه فريدة في التاريخ

لقد أنبهر العالم بالدور الذي لعبه هؤلاء الجنود المصريون عندما إقتحموا قناة السويس بدون معدات أو أسلحة ثقيلة، ووقفوا شامخين على الضفة الشرقية لقناة السويس يتحدون ثاني أقوى سلاح تملكه إسرائيل.. سلاح المدرعات أو (القبضة الفولاذية) كما يسمونها هناك، ولم يكن مع هؤلاء الجنود سوى عدد من الصواريخ والقذائف المضادة للدبابات استطاعوا بواسطتها أن يدمروا مئات الدبابات الثقيلة

للخصم وأوقفوا محاولات الاسرائيليين للتصدى للمشاه المصريين الذين اقتحموا قناة السويس وحدهم دون مدرعات أو دبابات وكان عليهم أن يصمدوا ساعات طويلة حتى يتم الانتهاء من بناء كبرى الاقتحام وفتح ثغرات فى السد القرايى تستطيع مدرعاتنا التقدم من خلالها.

وإزاء هذه الواقعة الفريدة فى التاريخ العسكرى أصبح هناك اهتمام عالمى بتصنيع وتطوير الصواريخ التكتيكية المضادة للدبابات، يركز التطوير فى هذا المجال على تجميع ثلاثة منجزات علمية هى:

- الحشوة الجوفاء

- المحرك الصاروخى

- التحكم عن بعد

وبهذا نحصل على قذيفة تخترق درع الدبابة على مسافات كبيرة مع إصابة الهدف من الدققة الأولى، وكانت هناك الفكرة العامة التى تقوم على مبدأ يقول (اطلق الصاروخ ثم أنساه) بمعنى أنك لن تبذل مجهودا بعد ذلك فى التوجيه أو تصحيح المسار وتضمن إصابة مائة فى المائة، وقد ظهر حتى الآن ثلاثة أجيال من الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات هى:

١ - الجيل الأول: وهو أول الأنواع وأكثرها بدائية، وهو ما كان متوفر لدينا فى حرب أكتوبر، ويعتمد هذا النوع على مراقبة عامل التوجيه للهدف وتتبعه لمسار الصاروخ بالعين المجردة، ويتم التحكم فى المسار يدويا عن طريق صندوق التحكم، وترسل إشارات التصحيح إلى الصاروخ بواسطة سلك التوجيه وتقلل من احتمالات الإصابة لصواريخ هذا الجيل صعوبة مهمة الراسى فى توجيه الصاروخ خاصة تحت ظروف المعركة الحديثة الأمر الذى يعكس مستوى الجهد والبراعة التى بذلها رجال مدفعيتنا فى حرب أكتوبر.

٢ - الجيل الثانى: ويعتبر التوجيه الآلى الذى حققه صواريخ هذا الجيل هو التطور الكبير الذى حدث فى هذا المجال وتقتصر مهمة عامل التوجيه على تتبع الهدف فقط من خلال منظار القاذف، ويتم تصحيح المسار بواسطة جهاز حاسب اليكترونى، وترسل إشارات التصحيح خلال سلك التوجيه إلیا مما يزيد احتمالات إصابة الهدف.

٣ - الجيل الثالث: وهى صواريخ حديثة يتم إطلاقها فى اتجاه الهدف بشكل تقريبي ثم يقوم الصاروخ ذاتيا بتصحيح مساره وتصحيح أخطائه ليصوب الهدف إصابة مؤكدة وذلك عن طريق جهاز توجيه ذاتى موجود فى مقدمة الصاروخ، وينقسم هذا الجيل إلى ثلاثة أنواع:

- جهاز توجيه ذاتى يعتمد على أشعة الليزر لتمييز الهدف المعادى.
- جهاز توجيه ذاتى يعتمد على الأشعة الحرارية المنبعثة من الهدف فيقوم بتوجيه نفسه ذاتيا إلى الهدف عن طريق رأس باحثة عن الحرارة.
- جهاز توجيه ذاتى يعتمد على الموجات الحرارية لتمييز الهدف وإصابته.

وبقى أن نعرف أنه فى إطار هذا التطور الهائل الذى تشهده أنظمة التسليح العالمية على خبرة أكتوبر ٧٣، فإننا عن طريق سياسة تنوع مصادر الأسلحة التى انتهجها الرئيس السادات بعد أكتوبر ومازلنا نعمل بها حتى الآن، فإننا بعد صواريخ الجيل الأول التى إنتزعنا بها أعجاب العالم كله، فإن رجال المدفعية يملكون الآن صواريخ «هوت» (إنتاج فرنسى المانى) وصواريخ «تار» الأمريكية وصواريخ ميلان الفرنسية وصواريخ سوينج فابر البريطانية والتى تقوم بإنتاجها محليا بالتعاون مع بريطانيا بل قمنا بتطويرها للعمل بأسلوب معين من فوق سيارات جيب.. وبناء على خبرة أكتوبر أيضا.

وهكذا إستطاع رجال المدفعية المصرية أن يعرضوا أمام العالم أجمع على مسرح سيناء إنه بالتدريبات الجيدة والاستغلال الأقصى لا مكنيات الأسلحة الحديثة يمكن تحقيق الاصابة، والقتل، والتدمير بقذيفة واحدة، وكان الهدف هو الدبابة، والوسيلة هى الصواريخ المضادة للدبابات من الجيل الأول. وعلى نفس هذا النمط تعامل رجال الدفاع الجوى المصرى مع أقوى سلاح تملكه إسرائيل وكانت، ومازالت. تعتمد عليه حتى الآن، وهو سلاح الطيران.

وفى ذلك يقول الخبير العسكرى البريجادير كينث هانت نائب مدير المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية بلندن: «إن حرب أكتوبر ١٩٧٣ غيرت بالفعل أفكارا عديدة عن التوازن بين الطائرات المقاتلة وأسلحة الدفاع الجوى، وبين الدبابات ووسائل

المدفعية المضادة للدبابات، ونقد واجهت السيطرة التي يتمتع بها سلاح الطيران الاسرائيلي تحديا خطيرا من جانب وسائل الدفاع الجوى العربى، كما أصبح تفوق الدبابات الاسرائيلية فى المعركة موضع شك كبير.

إن الاهتمام العالمى بدور الدفاع الجوى المصرى فى حرب أكتوبر وضح منذ اللحظة الأولى لاندلاع الحرب، لأن امالا كبيرة كانت معقودة على السلاح الجوى الاسرائيلي الذى وصف بأنه من أقوى الأسلحة الجوية فى العالم، وباستمرار الحرب ازداد هذا الاهتمام بعد أن تساقطت الطائرات الاسرائيلية الحديثة بمعدل فاق أحلام أكثر الناس تفاؤلا.

خبرة أكتوبر تسود العالم

وعلى الفور بدأ العالم شرقا وغربا يطور وسائل الدفاع الجوى بعد أن أظهر المصريون قدرتهم على التصدى بنجاح لوسائل الهجوم الجوى الحديث ويغيروا إلى النهاية مبدأ السيادة الجوية الذى ظل الفكر العسكرى يعتبره أحد الأركان الأساسية لأى معركة وضرورة يجب توافرها من أجل إحراز النصر.

هكذا تعلم المفكرون العسكريون من الحرب العالمية الثانية ومن حروب كوريا وفيتنام، وهكذا إتعلمت اسرائيل أيضا فكانت منذ البداية تركز بشكل واضح على الأسلحة الجوية، ثم جاء المصريون فى أكتوبر ١٩٧٣ ليبددوا كل المفاهيم السائدة، ويقدموا درسا جديدا فى الحرب الحديثة.

ولقد ظهرت بعد هذه الحروب مناقشة حامية بين مختلف دول العالم على إنتاج الصواريخ المضادة للطائرات وكان هناك الصاروخ الفرنسى «كروتال» الذى تنتجه جنوب أفريقيا تحت اسم «كاكتوس» واشترته السعودية والكويت وليبيا وباكستان، وهناك أيضا الصاروخ «رولاند» الذى اشتركت فرنسا وألمانيا الغربية فى إنتاجه: وقد تعاقدت شركات «بوينج» و«هيوز» الأمريكية على حق إنتاج هذا الصاروخ بترخيص خاص.

كذلك أنتجت السويد صاروخا جديدا مضاد للطائرات على نمط «سام - ٧» والتجربة المصرية، ويسمى الصاروخ الجديد «ببى رأس - ٧٠» وهو يعمل بأشعة الليزر واتفقت سويسرا ودول أخرى على شرائه، وفى نفس هذا الاطار كان هناك إهتمام عالمى بالصواريخ فى الحرب الحديثة من هذه السلالة التى أفرزت حرب أكتوبر أهميتها.

صواريخ «سام» أمريكية!

وبدأ الأمريكيون في تقييم التجربة المصرية. ثم شرعوا في تطوير صواريخهم المضادة للطائرات، وفي مقدمتها الصاروخ «هوك» المتوسط المدى وقد أنتجت الولايات المتحدة طرازاً معتدلاً من هذا الصاروخ، كذلك أهتمت دوائر الصناعات الحربية هناك بتطوير أنواع أكثر تقدماً وكان منها الصاروخ «باتريوت» أو «سام - د» الذي سارعت ألمانيا الغربية إلى شرائه (سام اختصار لعبارة صاروخ أرض جو وتستخدم في الشرق والغرب على حد سواء) ..

وفي مجال الصواريخ الصغيرة التي يحملها جندي واحد على كتفه على غرار صواريخ «سام - ٧» التي استخدمها المصريون في أكتوبر، كان هناك الصاروخ الأمريكي «رد آي» وتم تطويره بناء على خبرة أكتوبر فخرج إلى الوجود الصاروخ «ستنجر» وهو يعمل في ألمانيا ودول الأطلنطي كلها والذي سيحل مكان الصاروخ «رد آي» في إسرائيل.

ومن ناحية أخرى لا يفوتنا ذكر الطائرات الآلية التي تعمل بدون طيارين والتي استخدمت إسرائيل طرازين منها لأول مرة في حرب أكتوبر ٧٣: طراز «شكار» وطراز «فايري - ١» ورغم صعوبة إصابة هذا النوع من الطائرات لضآلة حجمها ولقدرتها على القيام بمناورات حادة إذ لا يوجد بها طيار آدمي هو محدود القدرة في نهاية، فإننا استطعنا عدم تمكين هذه الطائرات القيام بدورها.

ولذلك فإن دوائر الصناعات العسكرية في العالم كله بدأت تفكر في تطوير أنواع جديدة من هذه الطائرات وتزويدها بأجهزة تشويش وإعاقة لتكون بين الموجات الأولى للهجوم وينحصر دورها في إبطال مفعول أسلحة الدفاع الجوي للخصم وتحديد هذه الأسلحة التي فتكت بالطائرات الإسرائيلية في حرب أكتوبر.

ورغم تمتع طائرات القتال الحديثة بأجهزة تنشين ووسائل اليكترونية متقدمة تساعدها في ضرب الأهداف، وعمليات القذف الجوي، إلا أن تجربة أكتوبر أثبتت قدرة وسائل الدفاع الجوي المتمركزة فوق سطح الأرض، على إزعاج هذه الطائرات - إن لم تسقطها - فتجعلها غير قادرة على إصابة أهدافها.

ولذلك فقد بدأ التفكير فى أنواع من الطائرات الآلية التى تعمل بدون طيارين - بأشعة الليزر - للعمل بسرعة وبدقة على تحديد مواقع الخصم الحيوية وتسهيل إصابتها وتدميرها بواسطة الطائرات المقاتلة وبحيث لا تتعرض هذه الطائرات كثيرا للنيران وسائل الدفاع الجوى للخصم .

تجربة شيكا المصرية فى

قاعدة «نيليس» الأمريكية !

وفى صحراء نيفادا الأمريكية هناك قاعدة جوية تسمى قاعدة «نيليس» وهى أغرب قاعدة من نوعها فى العالم إذ يرتفع فوقها العلم السوفيتى وتؤدى القاعدة مشروعا تدريبيا فريدا يسمى «رد فلاج» (العلم الأحمر) أى العلم السوفيتى، ويرتدى الطيارون هناك ملابس الطيارين السوفييت ويعيشون بأفكارهم ويعملون على طائراتهم - أو طائرات شبيهة بالطائرات السوفيتية - ويتصرفون مع الطيارين الأمريكين على أنهم أعداء .

المهم أنه وسط هذه التجربة الفريدة أخذ الأمريكيون - وبناء على خبرة أكتوبر يركزون على استخدام مدفع رياعى مضاد للطائرات على غرار المدفع «شكا» الذى استخدمه المصريون فى حماية قواتهم البرية المتقدمة فى سيناء والذى أسفطوا به عددا كبيرا من الطائرات الاسرائيلية .

وفى نفس الوقت بدأت دول عربية كثيرة فى تطوير مدافع مضادة للطائرات مماثلة لهذا المدفع بسبب إنجازاته فوق رمال سيناء .. وإلى هذا الحد وصل الاتجاه فى الاستفادة من دروس أكتوبر والخبرات التى قدمها المصريون لأول مرة .

صواريخ «هوك» لمصر

وصواريخ «سام» للعرب

والغريب إننا - بمقتضى سياسة تنويع مصادر السلاح وبناء على الخبرة التى حققناها بأنفسنا، اشترينا صواريخ «كروتال» الفرنسية وتعاقدنا على شراء صواريخ «هوك» المعدلة الأمريكية، وكلاهما من الصواريخ المضادة للطائرات، ولكن فى الوقت

ذاته ورغم توافر هذه الأنواع ببعض الدول العربية إتجه عدد منها لشراء صواريخ سام السوفيتية الصنع والتي ألقينا عليها الأضواء في حرب أكتوبر.

(المغنى) وليست (الأغنية)

وهنا يجدر التنويه إلى حقيقة هامة: لقد كنا نملك نفس الصواريخ والأسلحة في يونيو ١٩٦٧ ولكنها لم تفعل شيئا لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئا وحدها وليس هناك سلاحا سحريا يحقق مثل هذه الانجازات، ولكن الذى حدث هو التدريب والتخطيط، والاستغلال الجيد لامكانيات كل سلاح، الأمر الذى انتهى بالطائرات الاسرائيلية إلى «مناطق قتل» مؤكدة... إنها قصة طويلة وتاريخ يرجع إلى الحرب العالمية الثانية بل وقبل ذلك بكثير، ولم تكن المسألة سهلة على الإطلاق. وكما يقول المثل الغربى: لم تكن «الأغنية» هي الجميلة، ولكنه «المغنى» الذى أجاد.

لقد ظهرت الدبابة لأول مرة فى ميدان القتال يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩١٦ وكانت وقتذاك السلاح السرى الجديد الذى تحتفظ به بريطانيا وجلبت منه فى هذا اليوم ٤٩ دبابة لمحاربة الألمان عند قرية «ملرز كورسيليت» الفرنسية وقتها كان للسلاح الجديد تأثيرا حاسما فقد صاح أحد الجنود الألمان عندما رأى هذه الآلة الغريبة لأول مرة - صاح بأعلى صوته وبالدعر كله:

«إن الشيطان قادم نحونا» وسرعان ما سرت هذه الكلمات بين زملائه الجنود عرفت بعد ذلك بقوة الصدمة التى تحدثها الدبابات فى نفوس الجنود.

ورغم أن هذه الدبابات الـ ٤٩ أصيب ١٧ منها باعطال ميكانيكية قبل الوصول إلى خط البداية، وفشلت ٩ أخرى فى تشغيل المحرك، ووصلت ٩ غيرها متأخرة عن ساعة الصفر، وتبقى بعد ذلك كله ١٤ دبابة تعطلت ٥ منها عن العمل ثم خرجت الدبابات التسع الباقية سليمة بطريقة أو أخرى ورغم ذلك كله فقد كان للسلاح الجديد تأثيرا عظيما استمر يزداد باطراد مع ازدياد حجم وصلابة الدبابة، ووصلت درجة الفاعلية إلى الزروة على أيدي القائد الألمانى الشهير الفيلد مارشال إيروين روميل، والقائد الأمريكى جون سميث باتون.

أما في أكتوبر ١٩٧٣ فقد كانت معارك المدرعات التي شهدتها ميادين القتال تفوق أى معارك للمدرعات غير التاريخ كما ونوعا وعنفا، فمثلا كان حشد المدرعات في معركة العلمين عام ١٩٤٢ يصل إلى ١٧٢٥ دبابة للطرفين المتحاربين (قوات مونتجمري وقوات المحور بقيادة روميل)، وفي معركة كورسلا التي أذهلت ضخامة حجمها الخبراء والمحليين كان عدد المدرعات التي اشتركت فيها حوالى ٦٢٠٠ دبابة كان لدى السوفيت منها ٣٥٠٠ ولدى الألمان ٢٧٠٠.

أما في حرب أكتوبر فقد بلغ حشد المدرعات لدى الطرفين المتحاربين (على جبهتي القتال) حوالى ٦٧٠٠ دبابة بالاضافة إلى اعداد كبيرة من الدبابات زجت اميدان القتال من خلال الجسر الأمريكى الجوى والبحرى الذى أمد اسرائيل بها بعد أن فقدت أعدادا هائلة من دباباتها وكانت بعض المدرعات التي اشتركت في تلك الحرب حديثة ومتعددة الامكانيات وأحضر الجسر الأمريكى دبابات جديدة جاءت من المخازن والمستودعات الأمريكية إلى سيناء مباشرة.

وقد كان دور المدرعات المصرية من أروع ما سيذكره التاريخ، لقد بدأت المدرعات عبر القناة إلى سيناء بعد عدة ساعات من عبور المشاه وذلك بعد أن تم إنشاء ١٠ جسور وكذلك إستخدمت ٥٠ معدية انتقلت عليها في نفس الوقت الدبابات والمجنزرات في النقاط التي لم تنشأ فيها جسور. وقبل بزوغ فجر اليوم الثانى (٧ أكتوبر) كانت الدبابات المصرية تتدفق على الضفة الشرقية للقناة لتدعم رؤوس الكبارى.

حتى أن جريدة صنداي تلجراف قالت على لسان موسى ديان باعترافه عن الأيام الأولى للحرب (في اليوم الرابع وضح أن مصر قد أحرزت تفوقا ظاهرا في معارك المدرعات بسيناء حيث توالى الخسائر الفادحة في المدرعات الاسرائيلية التي فوجئت أثناء تحركها نحو تجمعات جنود المشاه المصريين بقذائف تنصب عليهم من مسافة كيلو مترين أو ثلاثة فقد كانت تلك القذائف من الدبابات المصرية، حيث ذكر الجانب الاسرائيلى أن المصريين يتحركون على شاكلة الفيالق الرومانية في صورة كتلة من الجنود تتوسطها الدبابات. كان هذا في الأيام الأولى للمعركة. وعند صدور الأمر بتطوير الهجوم شرقا أبلت المدرعات بلاء حسنا رغم ما تعرضت له من مقاومة عنيفة

نتيجة لاستخدام إسرائيل للأسلحة الحديثة والصواريخ المضادة للدبابات التي وصلت إليها عبر الجسر البحري من العريش وقد استخدمت في هذه المعارك الصواريخ المضادة للدبابات الأمريكية (تو) لأول مرة وكانت تطلق من منصات أرضية ومن طائرات هليكوبتر.

ورغم التطور العلمي الهائل في مجال الصواريخ المضادة للدبابات وقدرتها الفائقة على الإصابة والتدمير فلا تزال القوات المدرعة تحتل نفس الأهمية في مختلف جيوش العالم ولم ينته دور الدبابة وإنما يواصل العلم والفكر الفنى والعسكري العمل على تطوير الدبابة لأنها تعتبر من الوسائل الحاسمة لإحراز النصر في الحروب، ومن المتوقع أن تتسم معارك المدرعات في المستقبل بالفهر وشدة الضراوة، وعلى الجانب الذى يود إحراز النصر أن يكسب المعركة الأولى حيث أنها ستكون الأولى والأخيرة وفى النهاية فإن من يحتفظ باحتياطي من المدرعات سيحصل على النصر.

وقد مكنا ذلك من القاء كميات هائلة من المدرعات فى المعارك الضخمة التى دارت على مختلف محاور سيناء ووصفت بأنها أكبر معارك للدبابات فى تاريخ الحرب.

لقد كانت حرب أكتوبر والدروس المستفادة من أهم ما اعتمد عليه مصممو دبابات الثمانينات والتسعينات من هذه المدرعات والتى أمكن بلورتها فقد وضعوا أمامهم كافة التحليلات فى ١٨ معركة على كل من الجبهتين المصرية والسورية وتركزت الجهود بالنسبة للتطوير فى ثلاثة محاور هى فى الواقع المقومات الأساسية للدبابة وهى قوة النيران + خفة الحركة + الوقاية والتدريع.

رسوف نذكر باختصار أهم الخصائص للإنجازات فى هذه المحاور الثلاثة:

١ - قوة النيران:

إن المهمة الأساسية للدبابة هى الضرب. وقد أضافت دروس حرب أكتوبر تطوراً فى أسلوب الاشتباك بحيث يحقق للدبابة التى تطلق قذيفتها أولاً بإحراز ٥٠٪ من التفوق على الدبابة المعادية ركز خبرة أكتوبر على تغيير إجراءات الاشتباك ليصبح أقصر ما يمكن حيث وصل الى ٥ - ٧ ثانية بدلاً من ١٣ - ١٥ ثانية وقد استلزم هذا

بالتالى اضافة تجهيزات جديدة تحقق الوصول الى المستوى المطلوب وهذه التجهيزات حققت:

(أ) - معدل إصابة عالى مع بساطة أسلوب الاشتباك بحيث يخفف العبء عن رامى وقائد الدبابة حيث تقدم الأجهزة كافة البيانات.. وما على الرامى الا أن يضغط زر الضرب.

(ب) - زيادة فاعلية الاصابة بما يحقق تدمير كامل يصعب معه إعادة دفع الدبابة للمعركة.

(ج) - زمن الضرب قصير جدا وبذا تجنب الدبابة الرصد والاصابة.

وفى مجال زيادة قوة النيران ظهرت الدبابات الحديثة وقد زودت بأجهزة إدارة نيران تستخدم فيه الحواسب الآلية وأشعة الليزر لتقدير المسافة مع الوضع فى الاعتبار جميع العوامل المؤثرة على الضرب مثل سرعة الريح ودرجة الحرارة وزاوية ميل الدبابة أثناء الضرب.. الخ. كما تم تطوير أجهزة الرؤية والتنشئين لتعمل نهارا وليلا بكفاءة، وباستخدام نظام تكثيف أضواء النجوم، أو استخدام الاشعاع الحرارى الصادر من الهدف المعادى.

هذا بالاضافة الى التطوير فى مجال تصنيع الذخيرة لتصبح أسرع وأكثر ثباتا وأعمق اختراقا.

٢ - خفة الحركة:

المقصود بخفة الحركة هو مقدرة الدبابة على التحرك فوق أرض المعركة أيا كان الجو والوقت وطبيعة وشكل الأرض. أى القدرات التى تسمح بالانتقال السريع من حيث الزمان والمكان بين مختلف صور القتال بالاضافة الى المرونة الكاملة على إدارة الاشتبكات، وببساطة فان القدرة النوعية للدبابة هى المرادف لخفة الحركة وهى عبارة عن قوة المحرك.

وفى مجال التطوير بالنسبة لخفة الحركة تميزت الدبابات الحديثة ودبابات المستقبل بالآتى:

(أ) - محركات ذات قدرة كبيرة وصغيرة الحجم، تتقبل جميع أنواع الوقود، سهلة الإدارة في الأجواء الباردة - سهلة الصيانة.

(ب) - أجهزة نقل للحركة بنظام هيدروماتيكي علاوة على نظام فرملي متكامل مع نظام قيادة أدى الى زيادة سرعة الدبابة عبر الأراضي الى ثلاث أضعاف السرعة العادية.

(ج) - نظام التحميل والتعليق والجنائز المصنوعة من الألمونيوم أو الصلب.

وقد أمكن الوصول بالدبابات الحديثة لأن تحقق سرعة متوسطة تجاوز ٤٠ كم ساعة في ظرف ٩ ثوان من بدء التحرك، أي أنها تحقق مرونة عالية وهذا لم نعهده من قبل مما يوفر لها الوقاية والهروب من القذائف ذات السرعات ١٠٠٠ متر/ ثانية، فعلى سبيل المثال تستطيع الدبابة الأمريكية داكس ام - ١، قطع ١٣ متر في ظرف ثانية واحدة وهي زمن طيران الطلقة الحشوة الجوفاء مما يمكنها من إخلال التشين والبعده عن نقطة الاصابة بما يعادل ١٣ مترا (٢ طول دبابة).

٣- الوقاية والتدريع:

مع التطور الهائل في الأسلحة المضادة للدبابات والصواريخ أصبح توفير الوقاية التامة أمر يصعب تحقيقه ويمكن تعريف الوقاية بأنها سلبية إيجابية. فالسلبية تعتمد على كافة خواص الدرع. والايجابية تعتمد على أسلحة الدبابة بما يسمح لها بالرمي من مسافة بعيدة، وعلى خفة الحركة. والوقاية الكلية هي محصلة الوقاية السلبية والايجابية.

وفي مجال الوقاية تم التطوير العالمي على الوجه التالي:

(أ) - استخدام تدريع من مخاليط معدنية وغير معدنية لها نفس الصلابة وتتميز بخفة الوزن مثل سبائك الصلب والبلاستيك مثل مادة يولين أين. وكذلك استخدام الدروع المتعددة (شهيها م).

(ب) زيادة إيجابية التدريع باستخدام الزوايا التي تحد من فترة الاختراق أو استخدام الواح التدريع الخارجية.

(ج) تقليل الآثار الناتجة عن الاختراق باحتواء أماكن الذخيرة والوقود وذلك بتوفير تدريب حوالها.

(د) - تحاشي تشوين الذخيرة في الأماكن المعرضة للضرب مثل برج الدبابة.

(هـ) - توفير الاختفاء وتقليل الارتفاع وزمن التعرض.

وقد جاء كل ذلك نتيجة دراسات إيجابية مستفيضة لمعارك الدبابات الكبرى التي دارت فوق رمال سيناء خلال عمليات أكتوبر المجيدة.. دراسة علمية جادة ومثمرة.

وفي النهاية فإن المواءمة بين المقومات الثلاثة للدبابة هي المعارك الصعبة التي يحرص على تحقيقها مصمم دبابة ما بعد أكتوبر.. ويجمع الخبراء العالميون أنه بعد هذه التعديلات والتغييرات في التصميم والمواصفات عاد للدبابة ما فقدته خلال حرب أكتوبر وسيبقى الصراع بين الدبابة والأسلحة المضادة للدبابات طالما بقيت الحاجة للدبابة كعنصر حاسم يستطيع الوصول الى حيث توضع أعلام المنتصر وتترك لزملاء آخرين الاحتفاظ بالأرض وتأمين هذه الأعلام.

الحرب الجوية

كان للحرب الجوية في أكتوبر ١٩٧٣ وضع خاص فقد القى خلالها جانباً الصراع أحدث ما أنتجته الدولتان الكبيرتان من طائرات انقتال.. على الجانب المصري كانت هناك طائرات الميج والسوخوي والتوبوليف.. هي نفسها طائرات ما قبل عام ١٩٦٧، وعلى الجانب الاسرائيلي كان هناك الميراج والفانتوم وسكاى هوك، وكلا النوعين الأخيرين من أحدث طائرات القتال وقتها وحصلت عليها اسرائيل في عام ١٩٦٩ وقت لم تكن فيه دولة خارج أمريكا قد حصلت على الفانتوم التي كانت تعتبر أقوى طائرة في هذا الوقت.

لذلك كانت الحرب الجوية في أكتوبر ١٩٧٣ مسرحاً لما يمكن أن تكون عليه الحرب الجوية التقليدية بين الدول الكبرى، ومن هنا كان إهتمام هذه الدول واضحاً بما يجرى في سماء الشرق الأوسط ولعل ذلك بفسر العبارة الشهيرة التي قالها كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي وقتذاك - أي الأمريكيين - لن يسمحوا بهزيمة السلاح الأمريكي أمام السلاح الشرقي.. إلى هذا الحد وصل الإهتمام العالمي.

الرجل وراء السلاح

ولعل أهم ما يؤكد أن الحرب ليست سلاحا من هنا أو هناك، هو ما ذكرناه من قبل أن الميج والسوخوى كانت معنا قبل ١٩٦٧ وإنهم رغم الانحياز الكبير الذى حققوه بالميراج فقط فى حرب ١٩٦٧، فإنهم فى حرب ١٩٧٣ ومعهم الميراج والفانتوم والسكاى هوك لم يحققوا شيئا بل تعرضوا لخسائر فادحة.. الرجل وراء السلاح هو العامل الأكثر حسما.

لقد قامت قواتنا الحوية بتوجيه الضربة الأولى التى بدأت بها معركة ٦ أكتوبر، واشترك فى هذه الضربة ٢٠٠ طائرة مصرية هاجمت مطارات الخصم فى سيناء ومراكز القيادة والتوجيه ومواقع الصواريخ هوك ومواقع الرادار الأمر الذى أحدث شللا للقوات الاسرائيلية وأتاح لقواتنا البرية إفتحام قناة السويس دون تدخل يذكر من الطيران الاسرائيلى.

وفى الوقت نفسه قامت قواتنا الحوية فى ليلة ٦ أكتوبر بإبرار القوات الخاصة والصاعقة خلف خطوط الاسرائيليين فى سيناء وعلى طول المواجهة.. عند المضائق وطرق الاقتراب فى وسط سيناء، ثم جنوبا على طول خليج السويس من رأس سدر الى شرم الشيخ، وقد قامت هذه القوات الخاصة بقطع خطوط مواصلات العدو وخطوط إمداداته، واشتبكت مع الاحتياطيات الاسرائيلية التى هبت لنجدة خط باريف المنهار، وظلت هذه القوات تناوش الاسرائيليين حتى اجازت قواتنا البرية الفترة الحرجة بعد عبور القناة، وهى الفترة التى كان يقف فيها جنودنا وحدهم على الضفة الغربية يواجهون الأسلحة والمعدات الاسرائيلية الثقيلة حتى يتم بناء الجسور وفتح الثغرات فى السد النرابى الشهير، ثم تبدأ بعد ذلك مدرعاتنا وأسلحتنا الثقيلة فى التقدم الى سيناء.

الفترة الحرجة

ولقد كانت هذه الفترة هى أخرج الفترات فى عملية العبور والتى يتم خلالها إنشاء رؤوس الشواطىء شرقى القناة وهى «القبضات» المصرية على الأرض التى إقتحمتها.. وفى هذه المرحلة قامت قواتنا الجوية بتدعيم قواتنا البرية وظلت تهاجم المدرعات والقوات الاسرائيلية التى حاولت صد الهجوم، والحقت بها خسائر كبيرة

فساعدت بذلك على قيام قواتنا بإنشاء الكبارى على القناة ثم عبور مدرعاتنا ومدفيعيتنا، التى سرعان ما أخذت أوضاعها شرقى القناة لتأمين وحماية القوات فى مناطق «رؤوس الشواطىء» .

وكان على قواتنا البرية بعد ذلك القيام بتوسيع مناطق رؤوس الشواطىء وتوسيع رقعتها وحينذاك كانت طائراتنا مرة أخرى تهاجم الطائرات الاسرائيلية فى سيناء لشل فاعلية طيران الخصم، كما هاجمت تجمعات القوات البرية الاسرائيلية واحتياطياتها الاسرائيلية فى أعماق سيناء وطرق إمدادها ومواصلاتها، وبذلك كانت تجهض مسجودات الخصم ضد قواتنا وتحطم موجات هجومه دفاعا عن قواتنا البرية وتمكينها من التقدم .

وبعد أن قررت القيادة العامة المصرية تطوير الهجوم فى عمق سيناء هبت قواتنا الجوية تهاجم من جديد مطارات إسرائيل وقواتها وتجمعاتها البرية التى قد تعترض تقدم قواتنا فى سيناء .

العبء الأكبر

على أن العبء الأكبر وقع على القوات الجوية خلال مرحلة الثغرة عندما قامت بعد إختراق المدرعات الاسرائيلية فى منطقة الدفرسوار وكان لها الفضل الأكبر فى تحديد حجم ومواقع قوات الاختراق بواسطة طائرات الاستطلاع ثم القيام بمهاجمة وتدمير المدرعات الاسرائيلية شرق وغرب الدفرسوار مما أجبر هذه القوات على الاختفاء ثلاثة أيام متوالية .

وفى الوقت الذى كانت فيه قواتنا الجوية تقوم بمهامها الأساسية فقد كانت قاذفاتنا المقاتلة رهن إشارة الجيوش الميدانية لتلبية أى مساعدات تطلبها هذه الجيوش إذا ما تعرضت لأى مواقف قد تؤثر على صلابتها وتمسكها بالمواقع الجديدة التى احتلها .

وعندما ركز السلاح الجوى الاسرائيلى على مهاجمة مدنية بورسعيد على أساس أنها منطقة شبه منعزلة، وعندما وصل الهجوم الجوى الاسرائيلى على هذه المدينة الى الحجم الذى يفوق امكانيات وحدات الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات فى هذه المنطقة، استبسلت مقاتلاتنا الاعتراضية فى التصدى للطيران الاسرائيلى عند

طرق اقترابه الى مدينة بورسعيد فخفض بذلك الضغط على هذا القطاع في فترات شديدة الحرج مما دعم صمود بورسعيد أمام هذا الحجم المكثف من الغارات الجوية.

ولقد وقعت معارك جوية فوق هذا القطاع باعداد هائلة من الطائرات من الجانبين المصري والاسرائيلي وصلت في المتوسط إلى أكثر من ٦٠ طائرة في المعركة الواحدة.. وفي إحداها تمكنت مقاتلاتنا الاعتراضية من إسقاط ٦ طائرات اسرائيلية في ٥ دقائق.

الهليكوبتر تؤكد مكانتها

لقد أثبتت حرب أكتوبر أن طائرات الهليكوبتر أصبحت حيوية ولا غنى عنها في المعركة الحديثة، وإلى جانب عمليات الإبرار المختلفة وعمليات الامداد بمختلف أنواع الامدادات برا وبحرا، فقد ظهر الهليكوبتر بدور كبير، وجديد عندما وقفت تحارب الدبابات وذلك بعد تزويدها بصواريخ مضادة للدبابات، وأصبحت تشكل حاليا قوة هائلة فيما يسمى «بالاحتياطي الطائر» كذلك فان تزويد الهليكوبتر بالأسلحة المختلفة جعل منها قلعة طائرة قادرة على مهاجمة تجمعات الخصم بكفاءة عالية.

الطيران قريب من الأرض

كذلك تبين من عمليات أكتوبر أن الهجوم على ارتفاعات منخفضة هو الحل الوحيد لتجنب عناصر الدفاع الجوي للخصم المتمركزة فوق سطح الأرض، وبالتالي تفادي الاعتراض، ومفاجأة الخصم فوق أهدافه الحيوية الأمر الذي يساعد على تدمير هذه الأهداف بسهولة، ومن ثم بدا الاهتمام أكثر بوسائل الإنذار المحمول جوا مثل طائرات «الواكس» و «الهوك أي» على أساس أن هذه الطائرات وحدها يمكنها الكشف بسهولة عن الطائرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضة على مسافات بعيدة مما يتيح وقتا كافيا لرفع حالات الاستعداد، وملاقاة هذه الطائرات المهاجمة على طرق اقترابها الى الأهداف الحيوية، وتدميرها قبل الوصول الى هذه الأهداف المراد الدفاع عنها.

العقول الالكترونية

وفيما يختص بعمليات القيادة والسيطرة أظهرت العمليات الجوية في حرب أكتوبر ضرورة الاعتماد على العقول والحاسبات الالكترونية في عمليات الكشف والتتبع والتوجيه الملاحي للمقاتلات الاعتراضية ضد طائرات العدو المهاجمة.

كذلك بدأ الاهتمام بعد حرب أكتوبر بالطائرات التي تعمل بدون طيار للعمل كطائرات استطلاع في الوقت الذي يتم فيه تزويد أنواع منها بمختلف الأسلحة التي تحملها طائرات القتال، وتتجه النية لاستخدام هذا النوع من الطائرات في استنفاد شبكة الدفاع الجوي للخصم وتضليلها خاصة وأن هذه الطائرات لديها قدرات هائلة على المناورة التي لا تحد منها الامكانيات البشرية، كما هو الحال في الطائرات التي يقودها أدميون، أضف الى ذلك أن تخصيص هذا النوع من الطائرات للمهام الانتحارية والخطرة سيوفر كثيرا في عنصر الطيارين الذي يحتاج تدريبهم الى سنوات طويلة ونفقات ضخمة.

أما بالنسبة لقاذفات القنابل الثقيلة مثل التوبوليف ١٦ التي استخدمناها أيضا في حرب أكتوبر - فقد تبين أن الاستخدام الأمثل لهذه القاذفات هو تزويدها بما يسمى بأسلحة «الاطلاق من البعد» وهي أنواع من الصواريخ جو أرض يتم إطلاقها نحو الهدف من مسافات تصل لأكثر من ١٠٠ كليومتر، وبالتالي تفادى التوغل داخل نطاقات الدفاع للخصم، وهناك إقبال حاليا على شراء صواريخ «اس - ٢٠» و «اس - ٣٠» الفرنسية، ومن الجيل الحديث من هذه الصواريخ ظهر في فرنسا صاروخ «مارتل» وهو صاروخ باهظ التكاليف وأعريت كل من الكويت وأبوظبي عن رغبتهما في شرائه وفي الترسانة الأمريكية هناك الصاروخ «مافريك» الذي استخدمته إسرائيل في حرب أكتوبر ونجحنا في ابطال مفعوله «وقد طلبت كل من السعودية وإيران وتركيا وكوريا الجنوبية والسويد شراء هذا الصاروخ الذي يمكن استخدامه بواسطة طائرات الفانتوم ف ٤ و «ف - ٥ سي»

طائرات القتال

متعددة المهام

كذلك أكدت حرب أكتوبر أهمية طائرات القتال متعددة المهام وهي طائرات يمكنها القيام بالقتال الجوي بجانب قدرتها على مهاجمة الأهداف الأرضية وتتربع حاليا على عرش هذا الطراز من طائرات القتال المقاتلات الأمريكية «ف - ١٦» التي تعاقدنا على الحصول عليها وهو قوام قوتنا الجوية الآن بعد سنوات طويلة من حظر الأسلحة الغربية - وخاصة الهجومية - بالنسبة لمصر.

والغريب إننا طوال الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٣ كنا نطوف العالم كله للحصول على طائرة قتال هجومية على غرار الفانتوم «ف - ٤» الأمريكية، ولم نستطيع الحصول على هذه الطائرة أبداً كما لو كان العالم كله قد اتفق على عدم تزويدنا بهذا السلاح الفعال، ولأنه كان من الضروري جداً أن نحصل على مثل هذه الطائرة فقد اعتمدت الحسابات الإسرائيلية على إننا لن نجرؤ على دخول الحرب ما لم نحصل على طائرة فعالة من هذا النوع، وبالتالي كان هذا من الأسباب الرئيسية لعنصر المفاجأة في حرب رمضان لأننا دخلنا الحرب بدونها وبعد أن خضنا الحرب وانتصرنا. لأننا نعيش في عالم يحترم غير الأقوياء المتزنين فقد حصلنا فعلاً على الفانتوم «ف - ٤»، والميراج - ٥، «ف - ١٦»، والميراج ٢٠٠٠ وكان السبب الرئيسي هو السياسة المتزنة، والبعيدة عن الغوغائية، التي اتبعتها مصر السادات قبل وبعد أكتوبر ١٩٧٣، والتي أرسى قواعدها بشكل قوى ملحوظ الرئيس حسنى مبارك.

وبعد فإن القارىء يستطيع أن يتصور الأبعاد التي يمكن أن تصل إليها برامج التسليح في منطقة الشرق الأوسط إذا ما استمرت الأخطار وتهديدات الحرب المباشرة كما كانت عليه قبل أكتوبر ١٩٧٣ والتي يمكن أن تستنزف تماماً موارد الدول المعنية، أو فى أحسن الأحوال، إبطاء وتبديد مجالات التنمية التي أصبح إنسان الشرق الأوسط فى أمس الحاجة إليها.

صورة إسرائيلية عن شكل الحرب

«حرب التكفير» هو اسم الكتاب الذى ألفه المعلق العسكرى الاسرائيلى الشهير الجنرال حايم هرتزوج الذى ولد فى ايرلندا وهاجر الى اسرائيل عندما كان طفلا صغيرا، وخدم فى الجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية، ثم شغل منصب مدير المخابرات الحربية الاسرائيلية مرتين، وبعد أن خرج من الخدمة أصبح المعلق العسكرى والسياسى الأول، فى اسرائيل ثم رئيسا لوفد اسرائيل فى الأمم المتحدة. ثم بعد ذلك رئيسا لاسرائيل.

الكتاب من عنوانه

ويجى اسم الكتاب من واقعة معينة حدثت فى الساعات الأولى من «يوم كيبور» هناك فوق هضبة الجولان. هناك كان الليفتنانت كولونيل يائير احد قادة الكتائب المدرعة قد تلقى ليلة ٥ أكتوبر ١٩٧٣، تعليمات بالغاء كافة الاجازات والتصاريح فى حين كان قد وصل عنده فى نفس اليوم عدد من جماعة دينية اسرائيلية تسمى «هاياد» وهى طائفة معروفة بنظرتها المتفائلة الى الحياة، ويكرس اعضاؤها أنفسهم للنشاط التبشيرى بين اخوانهم من اليهود.

وقام أعضاء هذه الجماعة بالانضمام الى الجنود داخل التحصينات لتنظيم الصلاة خلال صيام أقدس يوم فى السنة اليهودية: «يوم التكفير»، ولما كان يائير قد شعر بأن هناك شيئا غير عادى سيحدث على الجبهة، فقد توجه الى رجاله متفقدًا الوحدات والتحصينات التابعة له، وهناك فوجيء بمدى نجاح أعضاء تلك الجماعة الدينية،

ولدهشته وجد جميع رجاله بما فيهم أولئك الشبان غير المتدينين صائمين ومستغرقين
تسام في الصلاة وكانت صلواتهم حينذاك تقول «يحدد في رأس السنة العبرية ثم يقرر
بصفة نهائية خلال فترة صيام يوم التكفير عدد أولئك الذين سيموتون... وعدد أولئك
الذين سيولدون... من سيعيش... ومن سيموت... وهؤلاء الذين انتهت فترة حياتهم
المحددة وأولئك الذين لم تنته حياتهم بعد».

كان الكولونيل يائير يستمع الى كلمات هذه الصلاة في دهشة وتعجب وكان أن
أمسك مؤلف الكتاب فيما يبدو بهذه الواقعة، والتي كانت تحمل أكثر من مغزى
ومعنى... للحرب الوشيكة بعد ساعات، لتكون عنوان كتابه الذي خرج بعد عامين
من انتهاء هذه الحرب.

وكان القدر قد حدد فعلا أفدح الخسائر التي منيت بها اسرائيل منذ نشأتها.

شخصية السادات نفسها هي بُد الخداع الرئيسى:

في فصل بعنوان «لديهم عيون ولكنهم لا يبصرون» تكلم المؤلف عن الشواهد
العديدة التي كانت تجرى على جبهتى القناة والجولان، وتؤكد أن الحرب وشيكة، فقد
كانت وحدات كثيرة تتحرك على الجبهتين، في حين كان توزيع القوات نفسه يؤثر
الى أنها في طريقها الى شن هجوم مسلح، وخاصة بعد وصول معدات العبور الى
جبهة القناة، وأكثر من هذا فان مؤلف الكتاب يقول أن الرئيس السادات عقد اجتماعا
في القاهرة مع ياسر عرفات وقادة منظمة تحرير فلسطين خلال شهر أغسطس
١٩٧٣، وأقضى اليهم خلال هذا الاجتماع بأنه قد قرر دخول الحرب، وسألهم عن
الدور الذى سيقومون به، وأقترح عليهم أن يمدوه بقوات العمل على جبهة القناة، ولم
يأخذ الزعماء الفلسطينيون هذا القرار بالجدية، فقد كان الرئيس السادات لسنوات عديدة
يتكلم عن قرب وقوع الحرب، ومع ذلك لم يحدث شيء.

وعندما عاد هؤلاء الزعماء الى بيروت عقدوا اجتماعا طارئا للجنة المركزية
لمنظمة تحرير فلسطين وناقشوا قرار السادات على مدى ٩ ساعات كاملة وقد تم ابلاغ
الحاضرين بأن الهدف النهائى للسادات هو توليد ضغط أمريكى على اسرائيل، وعلى
الفور تسربت أنباء اجتماع السادات مع القادة الفلسطينيين الى مقاهى بيروت وأصبحت

مثار للتعليقات الفكاهية والتشكك، وفي الصباح يوم ٢١ سبتمبر نشرت صحيفة النهار البيروتية أنباء هذا الاجتماع بين السادات والزعماء الفلسطينيين، والتقطت وكالة الاسوشيتد برس الأمريكية هذا النبأ وقامت بتوزيعه على جميع أنحاء العالم!

وكان موقف السادات نادرا، ربما كان أول زعيم فى العالم ينوى الدخول الى معركة وأعلن نواياه بوضوح الى العالم أجمع وجميع الأطراف المعنية. لا أحد فعل مثلما فعل السادات قبل حرب أكتوبر، ويستند الحديث الذى أدلى به الرئيس السادات الى الصحفى الأمريكى أرنولد دى بورجراف، يوم ٩ ابريل ١٩٧٣، ونشرته مجلة نيوزويك الأمريكية، وقال فيه بالحرف الواحد: أنتم يامعشر الأمريكين تستخدمون الحاسبات الاليكترونية دائما فى حل المعادلات الجغرافية والسياسية، وهى دائما تضللکم، وأنتم ببساطة تنسون تغذية هذه الحاسبات بالسيكولوجية المصرية، لقد حان الوقت الان لاتخاذ قرار.. لقد حان الوقت لحدوث صدمة.. أن الدبلوماسية ستستمر قبل، وخلال وبعد المعركة... لقد تم تعبئة كل شىء فى هذا البلد لاستئناف القتال الذى أصبح الآن أمر محتوما.

وعاد بورجراف الى واشنطن ليروى القصة لعدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب هناك، والى المسؤولين فى وزارة الخارجية الأمريكية ولم يكن أحد منهم مستعدا لتصديقه فقد أتفق الجميع على أن السادات «يهوش» وذلك فيما عدا الدكتور هنرى كيسنجر الذى أخذ نوايا السادات على محمل الجد وقال:

أنا أيضا أتوقع حدوث شىء يمكن أن يكون خطيرا جدا....

خطة ٥٠ قاذفة لضرب شرم الشيخ:

أما بالنسبة للمخابرات الاسرائيلية فقد لاحظت أنه تم التصعيد فى مصر والاستعداد للقتال وعلان التعبئة الكاملة وحالة الطوارئ القصوى ٤ مرات وفى كل مرة كانت اسرائيل تقيم الاستعدادات وتحرك قواتها بما يتفق مع خطة الدفاع عن سيناء، وقد جرى التصعيد الأول فى مصر نهاية عام ١٩٧١ (عام الحسم) وخطط المصريون للهجوم على شرم الشيخ بـ ٥٠ قاذفة قنابل ثم ألغى السادات تنفيذ هذه الخطة بسبب اندلاع الحرب بين الهند وباكستان رغم أن التعبئة والاستعداد للحرب فى مصر كانت كاملة.

وبعد ذلك بعام، قام المصريون في ديسمبر ١٩٧٢، بتعبئة أخرى كاملة واستعدوا للقتال وخططوا حينذاك لواء من المظليين في قلب سيناء والتمسك بالمنطقة التي يهيطنون فيها حتى تجتمع الأمم المتحدة، وخلال هذه المرة أيضا تم تغطية الخطة تحت ستار إجراء مناورة ضخمة بين القوات المصرية، وكان الاستعداد للقتال كاملا في مصر بما في ذلك تحريك معدات العبور إلى القناة السويس، أما التصعيد الثالث من هذا النوع فقد جرى خلال شهرى أبريل ومايو ١٩٧٣، بنفس الأسلوب وبنفس الدرجة.

ثم جاء التصعيد الرابع في نهاية سبتمبر وأوائل أكتوبر ١٩٧٣، وكانت الاجراءات مماثلة تماما للإجراءات السابقة، وعندئذ كونت اسرائيل من تجاربها السابقة صورة معينة للرئيس السادات تقوم على أساس أنه يذهب في استعداداته للحرب إلى آخر الحدود... إلى حافة الهاوية... وعندئذ يعود مرة أخرى أدراجه... ولما كانت تعبئة القوات الاسرائيلية تتكلف مبالغ طائلة فإنهم وبناء على هذه الفكرة الخاطئة عن شخصية السادات، أعتقدوا أن الأمر سيمر مثل المحاولات الثلاث السابقة واعتقدوا أنها مناورات أخرى تجريها القوات المصرية وسرعان ما تنتهى، ثم مالوا إلى ابتلاع وسائل الخداع الأخرى التي ألقته إليهم القيادة المصرية، وأصبحوا بذلك يرون ولا يبصرون... يرون بأعينهم ولا يصدقون ما يرونه!!...

الميج ٢٣ التى ساعدتنا مع أنها لم تكن بين أيدينا:

ومن الأخطاء الاسرائيلية التى ساعدت - كما يقول هرتزوج - على تحقيق المفاجأة، هى أن القيادة الاسرائيلية كونت لنفسها انطبعا مؤداه أننا لن ندخل الحرب مالم يمدنا الاتحاد السوفيتى بقاذفات أو مقاتلات قاذفة متقدمة مثل الميج - ٢٣ القادرة على تهديد المراكز السكنية فى اسرائيل وقواعدها الجوية، وبناء على تقدير المخابرات الاسرائيلية فإن المصريين لن يحصلوا على مثل هذه الطائرات قبل عام ١٩٧٥، (وهذا ما حدث بالفعل) ومع ذلك فإن الرئيس المصرى السادات قرر أنه لن يستطيع الانتظار إلى هذا التاريخ، واستغنى عن ذلك بالصواريخ أرض أرض من طراز «سكود» و «لونا» التى نجح المشير أحمد اسماعيل فى الحصول عليها من الاتحاد السوفيتى خلال زيارته هناك فى مارس ١٩٧٣، ووصلت طلائع هذه الصواريخ إلى مصر خلال شهر أبريل ١٩٧٣، وهو الشهر الذى قرر فيه السادات دخول الحرب معتمدا على قوة الردع لهذه الصواريخ كبديل عن الطائرات الحديثة.

كذلك فإنه فى نفس الاطار عمل المصريون على تطوير شبكة دفاعهم الجوى بحيث تصبح قادرة على تحديد طائرات السلاح الجوى الاسرائيلى، واعتمدوا فى ذلك على عناصر الدفاع الجوى الأرضية دون ما حاجة إلى الطائرات الحديثة التى أعتقد الاسرائيليون أنذا لن نجرو على دخول الحرب بدونها، ومن ثم كان عدم وصولها بمثابة بند آخر للخداع ساعد على تحقيق المفاجأة يوم ٦ أكتوبر.

بروفة اسرائيلية للهجوم المصرى:

ومن الغريب - كما يقول المؤلف - أنه فى عام ١٩٦٨، قامت القوات الاسرائيلية باجراء «مباريات حربية» (مناورات يمثل فيها الصديق والخصم) وتم اختيار الميجور جنرال «يشياغو جافتش» لقيادة القوات الاسرائيلية فى هذه المباريات على جبهة سيناء، بينما تم اختيار الميجور جنرال موردخاي جور - الذى عين رئيسا لأركان القوات الاسرائيلية بعد حرب أكتوبر للقيام بدور قائد القوات المصرية التى ستهاجم جبهة القناة إلى سيناء، وفى هذه المباريات الشبيهة بما سيجرى فى الحرب الحقيقية بدأ جور يقود قواته كما لو كانت قد عبرت من الضفة الغربية للقناة، ومتقدما على جميع المحاور بنفس الاسلوب الذى تقدمت به القوات المصرية خلال حرب أكتوبر، بل أنه قام بإرسال قوات محمولة جوا بواسطة الهليكوبتر إلى أعماق سيناء خلف الخطوط الاسرائيلية. وبالضبط كما فعل الكوماندوز المصريون بالهليكوبتر بعد ذلك بخمس سنوات.

ومنذ ذلك الحين قامت القوات الاسرائيلية بتطوير دفاعاتها على جبهة سيناء بما يتناسب مع مفهوم هذه الخطة المصرية، وتم بناء خط بارليف وتحصيناته ليلائم الدفاع ضد هذا النمط من الهجوم المصرى المتوقع، ومع ذلك نجحت قوات مصر فى اقتحام قناة السويس رغم خطة الدفاع الاسرائيلية عن سيناء التى كانت تعتمد على أسس ثلاثة:

- ١ - توفير وقت كاف يسمح بتعبئة قوات الاحتياط وإرسالها إلى الخطوط الأمامية.
- ٢ - توفير وإنذار مبكر للقوات الاسرائيلية عن الهجوم المتوقع.
- ٣ - قدرة القوات العاملة المتركزة على الخطوط الأمامية على الصمود وصد الهجوم إلى أن تصل إليها قوات الاحتياطى.

خطتنا الدفاع .. والثغرة لدى المخابرات المصرية:

ويشيد الكاتب بكفاءة جهاز المخابرات الحربية المصرى وتطوره بعد حرب يونيو ١٩٦٧، وهو يستشهد على ذلك بأن خطة الدفاع الاسرائيلية هذه قد أمكن للمخابرات المصرية أن تحصل عليها بل أن الخطة الاسرائيلية لعبور القناة بواسطة فرقة الجنرال شارون والتي تم إعدادها فى مايو ١٩٧٣، هذه الخطة - ثبت أن المخابرات الحربية المصرية استطاعت أن تحصل عليها وتوقعت بذلك عبورا اسرائيليا عند منطقة الدفرسوار، وتم تحصين هذه المنطقة بكثافة ضخمة من القوات المصرية.

أكثر من هذا كله نجحت المخابرات المصرية فى الحصول على «الخريطة الكودية» - خريطة بالشفرة السرية، لسيناء بما فى ذلك منطقة القناة والضفة الغربية، وكانت القيادة الاسرائيلية قد طبعت ٩ نسخ من هذه الخريطة خلال عام ١٩٧٣، ووضحت عليها جميع الأسماء السرية لشبكة الاتصالات الاسرائيلية، وقام المصريون بترجمة ذلك كله إلى اللغة العربية، مما يؤكد أن خطة تأمين وسائل الاتصال والاشارة الاسرائيلية كانت فاشلة تماما خلال حرب أكتوبر الامر الذى أدى إلى عديد من «الأخطاء المأساوية»

برى من دم مندler:

كان أحد «الأخطاء المأساوية» التى أشار إليها هرتزوج هى واقعة مصرع الميجور جنرال «البرت مندler» قائد الفرقة المدرعة المواجهة لقطاع الجيش الثالث، وتتلخص هذه القصة فى أن الصراع كان حادا منذ بداية الحرب بين الجنرال جونين قائد جبهة سيناء وبين الجنرال أريك شارون قائد الفرقة الاسرائيلية العاملة فى القطاع الأوسط الذى كان يخالف الأوامر بصفة مستديمة ويتهرب من الحديث مع جونين.

ولما كان الموقف حرجا فقد استقل جونين طائرة هليكوبتر يصحبه - الجنرال عازر وايزمان، القائد السابق لسلاح الطيران الاسرائيلى، متجها إلى مقر قيادة شارون لمناقشته شخصيا، وفى الطريق تحدث جونين باللاسلكى مع الجنرال مندler الذى أبلغه بأنه ليس سعيدا بالمعركة التى خاضتها قواته صباح ذلك اليوم فى غربى ممر الجدى، فرد عليه جونين قائلا أنه سيزوره فى مقر قيادته بعد أن ينتهى مع شارون وسأله عن

المكان الذى يمكن أن يقابله فيه، وهنا أعطاه مندلر الاسم سؤالاً آخر فلم يرد مندلر عليه وعندئذ نظر جونيون إلى رفيقه فى الطائرة الجنرال وايزمان وقال له: وايزمان.. أن مندلر لقي مصرعه، فرد عليه زميله قائلاً: أى هراء هذا الذى تقوله أيها الجحش». فاستطرد جونيون قائلاً: «طالما أن مندلر لا يرد فى جهاز اللاسلكى فليس هناك تبرير آخر سوى أنه لقي حتفه».

وبعد ذلك حاول اللاسلكى إعادة الاتصال دون فائدة ولما وصل جونيون ووايزمان إلى مقر قيادة شارون، كان فى انتظار جونيون رسالة من نائبه يبلغه فيها أن مندلر لقي مصرعه بنيران المصريين.

والتفسير الوحيد لذلك أن المصريين كانوا يتصنتون على المحادثات اللاسلكية للاسرائيليين وبفضل الخريطة السرية الاسرائيلية لسيناء التى حصلت عليها المخابرات المصرية كما قلنا من قبل فقد كانوا يستطيعون تفسير كل شيء.. وقد التقطوا الحديث بين جونيون ومندلر ولما حدد الأخير موقعه وجهوا إليه نيران المدفعية المصرية فى قصفة دقيقة أودت بحياته. وقد سرى هذا الانطباع، بين الفادة الاسرائيليين واتجهت أصابع الاتهام إلى جونيون.. فاضطر - متهورا - بعد ذلك بيومين إلى الاعلان عن موقعه عبر جهاز اللاسلكى وانتظر عدة دقائق بعدها ليثبت لمن معه أنه برئ من دماء زميله مندلر!

تليفونات الفجر لقائد المخابرات الحربية الاسرائيلية:

لقد كان ضباب الخداع يسود جبهات القتال قبل نشوب الحرب وكانت القيادة الاسرائيلية حائرة بين الاستعدادات العربية التى يرونها بأعينهم وبين الأفكار والمفاهيم التى التصقت فى أذهانهم!

وفى الساعة الرابعة صباحا من يوم السادس من أكتوبر رن جرس التليفون فى منزل الجنرال زئيرا قائد المخابرات الحربية الاسرائيلية، واستمع زئيرا إلى «صوت» محدثه، ثم وضع السماعة ليطلب بعد ذلك ثلاث مكالمات بالترتيب التالى: الجنرال ديان وزير الدفاع ثم الجنرال دافيد اليعازر رئيس الاركان ثم الجنرال اسرائيل طال نائب رئيس الاركان.

وخلال نصف ساعة من هذه المكالمات كان الجميع فى مقر القيادة العامة الاسرائيلية - وقد أيقنوا تماما - بناء على تلك المكالمة - أن الهجوم المصرى - السورى سيقم فى الساعة السادسة من مساء السادس من أكتوبر!

١٠٥٠٠ قنبلة مصرية فى الدقيقة... الأولى:

لكن الحرب بدأت فى الساعة الثانية ظهرا، وكانت البداية مذهلة على الجبهة المصرية.. قصف جوى من الطائرات المصرية، غلالة هائلة من نيران المدافع المصرية، التى غطت جميع مواقع الجبهة الاسرائيلية بمدى وكثافة لم يروها من قبل. وخلال الدقيقة الأولى من الحرب سقطت فوق المواقع الاسرائيلية فى سيناء ١٠٥٠٠ دانة مدفعية بمعدل ١٧٥ دانة فى الثانية الواحدة.

وعندما بدأ بعض رجال المدرعات الاسرائيلية التقدم صوب خط بارليف، والبعض الآخر يهجم بركوب مدرعته والبعض الثالث يهرع إلى المواقع التى سيتركزون فيها حسب الخطة وجد الجميع فى انتظارهم غلالة من قذائف «آر. بى. جى» المضادة للدبابات والتى يحملها جنود المشاة المصريون - بجانب نيران الدبابات والصواريخ ساجر المضادة للدبابات التى كان يطلقها المصريون من فوق سائرهم الترابى على الضفة الغربية من القناة.

ويصف الجنرال الاسرائيلى آمون هذا المنظر قائلا: «لقد اشتعلت كل سيناء بالنيران، وكان أن لاقت وحدات المدرعات الاسرائيلية أولى خسائرها على يد جنود المشاة المصريين الذين حاربوا بعناد هائل واستمرت موجاتهم فى التقدم.

أما عن الهجوم الاسرائيلى المضاد الذى كانوا جاهزين له، حسب المعلومات التى توفرت لديهم، فقد تقدمت القوات الاسرائيلية المكلفة بهذه المهمة من الشمال إلى الجنوب تحت وابل هائل من نيران المدفعية المصرية ثم اشتبكوا مع وحدات الفرقة الـ ١٨ المصرية، وبانتهاء يوم الثامن من أكتوبر تنبه القائد «برن» إلى أن الألوية التابعة له والمكلفة بالهجوم المضاد، كانت فعلا تتحرك حسب التعليمات من اتجاه الشمال إلى الجنوب ولكنها كانت متوغلة فى اتجاه الشرق ويعيدا عن القوات المصرية، ونتيجة لهذا الخطأ، الذى لم يتم تصحيحه فى الوقت المناسب، فإنه بدلا من اكتساح الجناح

الشمالي لرؤوس الشواطئ المصرية، فإن الفرقة التي يقودها، «برن» كانت تتحرك صوب واجهة رؤوس الشواطئ هذه ، وبالتالي فإنه عند شن هذا الهجوم أخيرا أصبح اتجاهه من الشرق إلى الغرب مباشرة، (بدلا من الشمال إلى الجنوب) وصوب مواقع المصريين مباشرة.

انشقت الأرض عن حملة الصواريخ:

كذلك كانت المقاومة الجوية الاسرائيلية محدودة وانخفض عدد الهجمات الجوية الاسرائيلية.

وفي ظهر هذا اليوم وصلت قوات «جاي» إلى قرب القناة واشتبكت معها المدرعات والصواريخ المضادة للدبابات المصرية المتمركزة فوق السد الترابي على الضفة الغربية من القناة، وقامت كتيبة الجناح الأيسر لهذه القوات بمهاجمة طريق الفردان، وكادت تصل إلى السد الترابي الاسرائيلي على الضفة الشرقية وعندئذ انشقت الكثبان الرملية المحيطة بهذه القوات، وخرج منها مئات المشاه المصريين يطلقون نيران أسلحتهم المضادة للدبابات من على مسافات قريبة من المدرعات الاسرائيلية فاشعلوا ١٢ دبابة منها وأصابوا قائد الكتيبة نفسه ثم أجبروا باقي دبابات الكتيبة على الانسحاب.

في هذه الاثناء أصدر القائد «برن» أوامره إلى كتيبتين أخريين لنجدة الكتيبة التي دمرها المشاة المصريون، وعندما وصلت هاتان الكتيبتان إلى الطريق الموازي شمالا لطريق الفردان وبدأ هجومهم، سار كل شيء في الاتجاه الخاطئ!

لقد وجدوا أنفسهم على بعد ٨٠٠ ياردة من القناة يحاصروهم آلاف من جنود المشاة المصريين الذين استطاعوا أن يدمروا لهم ١٨ دبابة بجانب تدمير دبابة الليفتنانت كولونيل عساف ياجورى قائد هذا التشكيل.

لن يبقى أحد يجيب على أسئلتك!

ونظر القائد الاسرائيلي «ناتك» نظر حوله فوجد الدبابات تنفجر على يمينه ويساره، والدخان يملأ المنطقة كلها، وقد أقنعه ما رآه أنه من الضروري أن ينسحب.... فلم يبق معه من القوة التي كان يقودها غير ٤ دبابات قادرة على الانسحاب من هذا الجحيم!

وأثناء انسحابه اتصل به قائد الفرقة «برن» بواسطة جهاز اللاسلكى، وخاطبه قائلاً: «ماذا حدث؟ لماذا تنسحب؟» فأجاب عليه ناثك قائلاً: «إذا استمررت فى توجيه الأسئلة إلى فإنه خلال دقائق قليلة لن يبقى منا أحد ليجاب عليك».

ثغره.. فى قلب الجحيم!

فى الحرب الحديثة فإن المسألة فى النهاية ليست بضعة كيلومترات هنا، أو بضعة كيلومترات هناك، طالما أن الأمر يتعلق بالقتال، وفنونه والاصرار عليه... وقد حدث هذا من جانبنا الأمر الذى جعل القوات الاسرائيلية تقع، على حد تعبير الكاتب - فى أكبر خطأ يقع فيه الطرف المحارب وذلك عندما أعجبوا ببسالة وكفاءة المصريين وبدأ هذا الاعجاب والاحترام يتزايد مع تطور عمليات القتال تماما كما حدث فى جنود الحلفاء نحو القائد الألمانى الشهير اروينى رومل.

وفى عملية الثغرة استخدمت القيادة المصرية كل ما تملك من أسلحة ورجال: المشاة، المدفعية، المظلات، الصاعقة، الطيران بكافة أنواعه، الصواريخ أرض - أرض - حتى الصواريخ المضادة للطائرات أطلقها رجال الدفاع الجوى فى مسار أفقى لضرب أهداف العدو البرية!

ويسرد المؤلف تطور هذه العملية، التى اشتركت فيها ٣ فرق اسرائيلية واحدة بقيادة شارون والثانية بقيادة «ماجن»، والثالثة بقيادة «برن»، وكما رصدت المدفعية المصرية مكان هذه القوات المهاجمة كانت تصب عليها نيرانا مكثفة جعلت من طريق تقدمهم جحيما لا يطاق، واستطاعت أكثر من مرة أن تحطم كبرى العبور قبل تركيبتها.

أما المشاة المسلحون بالقذائف والصواريخ المضادة للدبابات فكانت الأرض تنشق عنهم فى كل مكان، ولم يتركوا الدبابات الاسرائيلية تعبر إلا بعد أن تفيض أرواحهم، وبعد أن يدمروا أكبر عدد ممكن منها كذلك كان الحال مع رجال الصاعقة. ويحكى لنا الكتاب أن القائد الاسرائيلى «آمون»، وقف عند منطقة أبو سلطان يشاهد معركة بين سرية مدرعة اسرائيلية (تابعة لكتيبة تعتبر صفوة الوحدات الاسرائيلية) وبين فصيلة من رجال الصاعقة المصريين، وكان القائد الاسرائيلى يراقب «باعجاب بالغ» القتال العنيد الباسل الذى أظهره هؤلاء الرجال المصريون. ومع أن آمون قدم مساعدة

بمدرعاته وعرباته النصف مجنزرة إلى السرية الاسرائيلية المهاجمة... إلا أن المصريين ظلوا يقاتلون حتى استشهدوا جميعا فيما عدا رجلا واحدا.

لم يلق هذا الرجل سلاحه أمام الجحافل المتقدمة، لكنه بدلا من ذلك قفز إلى أعلى التل الذي كان يدافع عنه هو وزملاؤه وظل يطلق نيرانه على الاسرائيليين حتى سقط شهيدا على قمة هذا التل».

ولما كان القائد الاسرائيلي يعلم أن وراء هذا الموقع قوات أخرى مماثلة، ولما كان قد «شاهد بنفسه كفاءة هذه القوات» فلم يستطع أن يتقدم إلا بعد إمداده بقوات إضافية من المظلات (صفوة المقاتلين هناك) ويقول الكاتب أن أى مصرى أصيب فى هذه المنطقة «كان يعتبر دليلا حيا على الاصرار المتناهى والشجاعة الهائلة التى بذلها هؤلاء الرجال».

طلعات هليكوبتر انتحارية فوق معابر الثغرة:

ويعترف الكاتب بأن الطابع الرئيسى فى عملية الثغرة هو المصادفة والمخاطرة ويشرح لنا كيف أن القوات المصرية استطاعت أكثر من مرة أن تثبت القوات الاسرائيلية المشتركة فى هذه العملية شرق القناة، وعندما أراد - الاسرائيليون انزال معدات العبور إلى الماء، كان يتقدمهم رجال المظلات لفتح الطريق لهم، ورغم أن المظلات هى صفوة المقاتلين هناك فإن رجال المشاة المصريين استطاعوا أن يثبتوا هؤلاء المظليين الاسرائيليين فى مكانهم ودون أن يسمحوا لهم بالتقدم خطوة واحدة.

واستطرادا فى «المصادفات» فإن القائد الاسرائيلي سمح لمعدات العبور بالتقدم بعيدا عن مكان اشتباك المصريين مع الاسرائيليين، واستطاعوا أن يقيموا كوبريا عارضا عبر القناة لم ترحمه المدفعية المصرية لحظة واحدة وقد لقي مصرعه الليفتنانت كولونيل جونى ثان، كبير المهندسين المختصين ببناء هذا الكوبرى، وذلك قبل وصوله إلى مياه القناة، وبعد بناء هذا الكوبرى العائم تمكن المصريون من تدمير أجزاء منه، وتركز الهجوم عليه بكافة الاسلحة حتى الهليكوبتر المصرية خرجت فى طلعات انتحارية تزيد اشعاله - حسب كلمات الكاتب - بقنابل النابالم.

وباختصار فإن المسألة لم تقتصر على وحدات أو جماعات صغيرة من رجالنا المصريين الذين حاربوا ببسالة منقطعة النظير في هذه المنطقة، بل أن الكاتب يروى لنا أن كافة قواتنا المسلحة، بما فيها وحدات من الجيش الثالث الميداني التي كانت مرابضة شرقى القناة، اشتركت في قتال مرير وبعنف لم نشهده معركة من قبل الأمر الذي كبد الاسرائيليين خسائر هائلة في الأرواح والمعدات.

ديان: انسحبوا فوراً سيذبحكم المصريون:

ولقد استطاعت الموجة الأولى من القوات الاسرائيلية أن تعبر القناة في الساعة ١,٣٥ ظهر يوم ٦ أكتوبر، وقبل ذلك بلحظات كانت القوات المصرية شرقى القناة تبذل مجهودات مستميتة لإغلاق الممر أو الثغرة عبر قوات الجيشين الثانى والثالث، والتي اختارها الاسرائيليون لبناء رأس الشاطئ الوحيد لهم، ولما كان صفوف المقاتلين الاسرائيليين يقاتلون هناك فى «صراع مرير» أدركت إبعاده القيادة الجنوبية الاسرائيلية، فإن دوشى ديان، وزير الدفاع الاسرائيلي، الذى كان موجوداً فى تلك القيادة خلال ذلك الوقت، اقترح انسحاب قوات المظلات الاسرائيلية قائلاً: لقد حاولنا ولكننا لم نستطع ثم اقترح النخلى عن فكرة العبور إلى الضفة الغربية قائلاً: «فى الصباح سيقوم المصريون بذبح المظليين الاسرائيليين على الضفة الغربية، فرد عليه الجنرال جونيون قائلاً: «لو كنا عرفنا ذلك من قبل لما كنا فكرنا أولاً فى هذه العملية، ولكننا الان فى وسط الطريق وسنستمر حتى النهاية الأليمة».

معركة السويس:

وجاء وقف إطلاق النيران واستمر «ماجن» و «برن» بوحداتهما فى التقدم جنوباً. (جدير بالذكر هنا أن شارون لم يغادر منطقة الدفرسوار). واستأذن «برن» من ديان أن يدخل مدينة السويس، ورد جونيون قائلاً: نعم اذا كانت خالية.. أما اذا كان المصريون يدافعون عنها بقوة «فلا تدخل».

وتقدم الاسرائيليون بدباباتهم ومظليهم إلى مدينة السويس (ومن بين ٢٤ دبابة متقدمة استطاع المصريون اقتناص ٢٢ من قادة هذه الدبابات) وانهالت النيران عليهم من كل جانب كما لو كان الجحيم قد فتح أفواهه عليهم، وانحصر المظليون على

مشارف المدينة بجرحاهم وقتلاهم، رغم أن القيادة - الاسرائيلية كانت قد مهدت لهم بنيران كثيفة من المدفعية ظنوا بعدها أنهم أخمدوا كل مقاومة فيها!

وخرج سلاح الطيران الاسرائيلي يحاول أن يفعل شيئا من أجل هؤلاء الاسرائيليين المحاصرين، ولكنه لم يستطع أن يقدم لهم عوناً، وباءت كل محاولة لانقاذهم بالفشل.. بل ونزلت خسائر هائلة بالقوات المتقدمة لنجدتهم.

صندوق النيران لانقاذهم في السويس:

وكان اثنان من قادة الكتائب الاسرائيلية قد اصيبا على مشارف السويس، منهم الكولونيل يوسى الذى قاد العملية بأكملها، وقد تولى القيادة بعده أحد قادة السرايا الذى رفض الانسحاب لأن المصريين يحاصرونه فى مبنى مجاور.

وأخذ جونين يقنعه ٤ ساعات كاملة بأن ينسحب هو ومن معه مخترقا طريقه إلى الحرية، وأخيرا استطاع جونين أن يتعرف من بعض الصور الجوية التى طلبها على عجل من طائرات الاستكشاف على مكان جنوده المحاصرين بالضبط، وقام بنفسه بتجهيز شبه «صندوق» كامل الاضلاع من نيران مدفعيته... وأحاط به القوة الاسرائيلية من جميع الجوانب، معطيا لها التعليمات بنفسه عبر جهاز اللاسلكى حتى قادها خارج مدينة الجحيم.

وعندما وصل موشى ديان إلى منطقة الدفرسوار وقف بجانب الجنرال شارون وتفقد بعينه المسرح الذى دارت فيه معركة الثغرة، وبعد أن شاهد بنفسه كمية الخسائر والدمار، «الذى يقف كدليل حى على المعركة التى بلغت قسوتها ومرارتها حدا لا يصدق» ارتابه الذعر، وعندئذ نظر إليه أمون مرددا عبارة صادقة عن العملية بأسرها قائلا له: «انظر إلى وادى الموت هذا».... ولم يرد ديان!

النكت . . والعقلية الإسرائيلية!

في الفصل الثالث والعشرين من سفر «اللاوية» (كتاب مقدس في الديانة اليهودية) نجد الفقرة التالية:

«وتحدث الله إلى موسى قائلا: كذلك فإنه في اليوم العاشر من هذا الشهر السابع، سيكون هناك يوما للتكفير، يوما للاجتماع المقدس لكم، يوما ترجعون فيه أفئدتكم وأرواحكم، وتقدمون خلاله إلى المولى قربانا يصنع بالنار. وفي هذا اليوم بالذات لن تباشروا أى عمل: لأنه سيكون يوم التكفير لكم أمام المولى ربكم وأن أى روح تنجو من الحزن والأسى في هذا اليوم، فإن صاحبها يجب أن يقطع تماما من بين قومه».

لقد كان يوم كيبور، خلال الـ ٢٥٠٠ عاما الماضية، هو أقدم أيام اليهود المقدسة، وكان يوما جليلا بالنسبة لهم يصوم فيه الجميع. وفي إسرائيل فإنه ابتداء من ظهر ليلة «يوم كيبور» (حوالي الساعة الثانية ظهرا) يتوقف كل شئ عن الحياة: يقوم اليهود باغلاق محلاتهم، ومصانعهم، ومكاتبهم ويتم إغلاق المدارس، ثم يهرع كل فرد عائدا إلى بيته ليعيد نفسه بدنيا وروحيا لهذا اليوم المقدس الذي سيقبل عليه، والذي سيستمر حوالي ٢٥ ساعة تبدأ من قبل غروب الشمس في اليوم السابق «ليوم كيبور»، حتى غروب الشمس في اليوم التالي (يوم كيبور نفسه). وخلال هذه الفترة لايتناول اليهودى أى نوع من الطعام أو الشراب، ولايدهن نفسه بأى نوع من المراهم أو العطور، ولايستحم إذا ماكان الاستحمام بغرض المتعة الجسدية، وهى متعة تحرم بكل

أنواعها في هذا اليوم.. حتى ارتداء الأحذية يعتبر حراما، ويرتدى المتزمتون عباءة بيضاء وهي نفسها «الكفن» الذي سيدفنون به عند مماتهم.

في هذا اليوم الذي تصادف وقوعه يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وفي حوالي الثانية عشر ظهرا تمزق فجأة هذا الهدوء، الذي كان يسود إسرائيل على أثر انطلاق صفارات الانذار من الغارات الجوية. كان الانذار واضحا لا يمكن أن يخطئه أحد..

وبعد لحظات من انطلاق صفارات الانذار، كانت كل موجات الإذاعة الإسرائيلية تذيع على الهواء مباشرة، وبفاصل ١٥ دقيقة بين كل نشرة أخبار والأخرى، بيانا واحدا مقتضيا يقول: «في الساعة الثانية وعشر دقائق قامت جيوش مصر وسوريا بشن هجوم على قواتنا المحتشدة على الحدود، وخلال كل ١٥ دقيقة فاصلة بين هذه النشرات، كانت الإذاعة الإسرائيلية تذيع مقتطفات موسيقية تتخللها صوت المذيع الذي أخذ ينادى بعبارات غريبة مثل: «المرأة الفاتنة» و «الخيار» و «قطعتين من خيط الصوف»... كلمات كانت تبدو بلا معنى، في الحقيقة عبارة عن «نداءات كودية» يتم بواسطتها استدعاء القوات الاحتياطية الإسرائيلية إلى مواقع تجمع معينة.

لقد استمرت الطقوس الدينية في المعابد، ولكن هنا وهناك كان يتم استدعاء الرجال بطريقة أو أخرى.. تم استدعاء البعض بواسطة رسل وسعاة، والبعض الآخر بواسطة بعض جنود الجيش. وفي بعض المعابد كان الحاخام نفسه ينادى على أسماء الجنود الموجودين في المعبد ويطلب منهم المغادرة وتسليم أنفسهم فورا إلى وحداتهم، وقد خرج هؤلاء من المعابد وهم مازالوا يرتدون «عباءات الصلاة» أو العباءات البيضاء التي سيذهبون بها إلى الموت..

وفي حوالي الساعة السادسة من مساء هذا اليوم - أي بعد دقائق من انقضاء الفترة الزمنية ليوم كيبور - ظهرت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل على شاشة التلفزيون وخاطبت أبناء الأمة القلقة قائلة: «لأن الأنباء كانت محزنة للغاية فقد اضطرت إلى عقد اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلي في يوم كيبور!!».

وخلال ساعات معدودة كانت الأمة بأسرها قد أصيبت بصدمة كبيرة.

لقد وضح أن مصر قامت في حماية هذه الشبكة المرعبة من صواريخ «سام»

المضادة للطائرات، بالقاء الجسور عبر قناة السويس، والتقدم بقواتها خلال مواقع خط بارليف، كذلك كان السوريون يضربون في الجبهة الشمالية.. عندئذ أدرك كل إسرائيلي أنه يحارب من أجل البقاء.. من أجل البقاء فقط وليس من أجل عدة أفدنة من الرمال الضائعة، أو من أجل تلك الجمل والعبارات الجوفاء المدفونة بين سطور مستندات ووثائق تعصف بها الرياح، أو من أجل ضمانات شفوية يمكن انتهاكها.

وجاءت أنباء اليوم الأول من القتال رهيبة للغاية. فقد عرف الشعب الإسرائيلي أن المصريين اقتحموا خط بارليف على طول قناة السويس، وأن القوات المصرية ابتلعت مئات من الجنود الإسرائيليين خلال هذا الهجوم المفاجئ.

أما على الجبهة الشمالية فكانت الأنباء سيئة هي الأخرى، فقد تقدم السوريون خلال الجولان العليا مكتسحين خطوط الدفاع الإسرائيلية هناك، وكانت النشرات والبيانات التي تذيعها الإذاعة الإسرائيلية كثيبة ومحنة حقا وبلا أدنى شك، وكان أقصى ما يأمله أي إسرائيلي هو أن يتمكن «جيش الدفاع الإسرائيلي» أن يحول «المد» بالنسبة لاتجاه المعركة عندما يتم تعبئة هذه القوات على الوجه الأكمل.

وفي هذه الأثناء لم تكن هناك عائلة واحدة في إسرائيل استطاعت أن تنجو من مشاعر القلق العميق. لقد استطاعت هذه الحرب أن تمس كيان كل إسرائيلي، فقد كان لكل منهم له أبنا، أو أخا، أو أبا، أو حبيباً، أو في أحسن الظروف، صديقاً يعرفه ويحبه - كل هؤلاء ابتلعهم الهجوم العربي في يوم كيبور، وفي كل لحظة كان الجميع يشعرون أن هناك عزيزاً لديهم يجابه خطر الموت، وكان الجميع ينتظرون بهلع وفرع هائل قوائم أسماء الذين قتلوا في ميدان المعركة.

مفاهيم جديدة

ومنذ اللحظة الأولى من بداية حرب أكتوبر، أدرك الإسرائيليون أن الحرب بالنسبة لهم هذه المرة لن تكون «رحلة ٦ أيام» كالحرب السابقة، فقد أعد العرب أنفسهم طويلاً لهذه الحرب، واستطاعوا أن يعدوا أنفسهم جيداً، ومن الواضح هذه المرة أن العرب استطاعوا أن يمسكوا الإسرائيليين وهم في غفلة. ورغم أن إذاعة إسرائيل لم تعلن الأرقام الصحيحة لعدد الذين قتلوا في الحرب إلا أنها تركت ظلالاً أكيدة تشير إلى أن الخسائر هذه المرة كانت جسيمة للغاية.

وفى اليوم الثانى من نشوب القتال كانت قوات «العدو» مسيطرة تماما على الموقف، وكان الإسرائيليون فى وضع الدفاع يحاولون، بلا جدوى، أن لا يخسروا مزيداً من الأراضى.

وكان واضحاً أيضاً منذ البداية أن سلاح الطيران الإسرائيلى اكتشف أن فاعليته قد هبطت بشكل هائل.. وإزاء هذا الموقف الخطير الذى أصبح يهدد الوجود الإسرائيلى لأول مرة فى التاريخ، فإن نوعاً من روح الفكاهة التى تظهر على المحكوم عليهم بالاعدام الذين سيلاقون الموت لامحالة.. ظهرت وسط التيار الخفى للرأى العام الإسرائيلى فى العاصمة تل أبيب ويتجسد هذا واضحاً فى النكتة التى سادت بين سكان تل أبيب وتقول أن أحد الإسرائيليين سأل زميلاً له قائلاً: إذا تقدم السوريون الآن عبر المستعمرات الزراعية فى الشمال وقاموا بالاستيلاء على طبرية فمن ذا الذى سيوقفهم عن غزو تل أبيب؟

فرد عليه زميله: «المصريون طبعاً، لأنهم كانوا يتقدمون من الجنوب».

نعم لقد كان مجلس الوزراء الإسرائيلى، خلال اليوم الثانى من الهجوم العربى، خائفاً إلى حد هائل ولم يكن سكان إسرائيل بصفة عامة قد أدركوا بعد الحجم الحقيقى لهذه المذبحة ولكن رئيسة الوزراء جولدا مائير، ووزير الدفاع موشى دايان، وجميع الوزراء الإسرائيليين - كان هؤلاء جميعاً مدركين تماماً لحجم الكارثة التى نزلت بهم.

وعلى أثر هذا الهجوم كان كل عصب من أعصاب الدولة قد استعد إلى أقصى درجة بهدف «صد الغزاة» كان قد تم استدعاء كل القوات المقاتلة للخدمة فوراً، تم تحريك كل وحدة للعمل، وقامت الدولة بالاستيلاء على كل مركبة أو عربة خاصة، أو عامة، لنقل الجنود إلى الجبهة، وتم تشغيل كل رجل، أو امرأة، أو طفل يستطيع أن يؤدي أى نوع من العمل.

وبذلك أصبحت شوارع جميع المدن خالية تماماً من الناس، وأغلقت المحلات أبوابها، وتولى الكهول والأولاد الصغار تشغيل الخدمات البريدية، فى حين تولت النساء قيادة الأتوبيسات وقد شوهد جنرال متقاعد من جيش الدفاع الإسرائيلى يقود سيارة لحمل القمامة، وجوار المستشفيات فى جميع الأحياء العامة، اصطفت طوابير

طويلة من الإسرائيليين للتبرع بدمائهم من أجل إنقاذ الجرحى والمصابين الذين سقطوا بغزارة خلال اليوم الأول من القتال.

رحيل من مطار اللد

وفي الساعات الأولى من صباح يوم الأحد السابع من أكتوبر، اكتظ مطار اللد الدولي بالزوار الأجانب، الذين كانوا موجودين في إسرائيل، يحاولون مغادرة هذه البلد التي تتهددها الحرب، وخلال الرحلات الجوية التي غادرت إسرائيل في الليلة السابقة تمكن ٢٠٠٠ أجنبي من مغادرة البلاد. وكانت بوابات المطار مازالت مكتظة بالراغبين في مغادرة إسرائيل، وفي نفس الوقت أعلنت وزارة التعليم إغلاق جميع المدارس ودور الحضانة إلى حين صدور تعليمات أخرى، أما هيئة الدفاع المدني فكانت تعلن طوال اليوم خلال الإذاعة الإسرائيلية تعليمات تحث المواطنين «على ملء كل الاوعية الموجودة في المنازل بالماء، والتخلص من كل المواد القابلة للاشتعال من المنازل والمخابئ المخصصة للحماية من الغارات الجوية، وتدعيم زجاج النوافذ بالأشرطة اللاصقة، وتجهيز شنت للاسعافات الأولية، وتوفير أكبر عدد ممكن من معدات أطفاء الحرائق، وتخزين المرايا وكل الأشياء المصنوعة من الزجاج..

.. وكان لا يمكن أن يخطئ المرء الهدف من وراء ذلك كله، والرسالة التي يريد أن ينقلها الدفاع المدني الإسرائيلي إلى المواطنين: استعدوا لقيام «العدو» بقذف المدن والمستعمرات الرئيسية في إسرائيل.

تمائم للحماية من اللعنة

وفي الساعة السابعة و٤٥ دقيقة من مساء يوم الأحد ٧ أكتوبر كان قد تم شحن ألف مخطوط من كتاب التواره المقدس إلى الوحدات والتشكيلات المقاتلة على خط الجبهة.. وذلك لأن المتزمتين في الدين اليهودي يعتبرون هذه المخطوطات كتائم تحميهم من «لعنة المصير» ورغم أن هذه المخطوطات المقدسة لا توفر أى حماية من الدانات والقنابل المصنوعة من الصلب وبعبدة كل البعد من أى علاقة بالحرب والقتال، إلا أن الوحدات الموجودة في الجبهة كانت في مسيس الحاجة إليها. ورحب الضباط والجنود هناك كل الترحيب بوصول هذه المخطوطات كما لو كانوا يرحبون بأصدقاء أعزاء قدامى فقد كانوا في حاجة إلى أى عون.

وفى هذا اليوم - أى اليوم التالى لنشوب الحرب - تكاتفت كل مشاعر الخوف والتخوف من هذه التوقعات الجديدة التى لم تعرفها إسرائيل منذ قيامها حتى ذلك الوقت، لتشكل مزيجا غريبا جوهره هو الخوف من الفناء والابادة، ومظهره نوع من التصرف غير المألوف والتضرع إلى السماء بصلوات، فى صحراء سيناء وفى مرتفعات الجولان، وفى كل مكان من إسرائيل طلبا للنجاة من هذا الخطر المحدق.

وبحلول يوم الاثنين الثامن من أكتوبر كانت كل القوات الإسرائيلية فى حالة تعبئة تامة للقتال استعدادا لصد الغزاة، وبلغ مجموع هذه القوات ٣٠٠ ألف رجل، كذلك فإنه فى ذلك الوقت كان قد تم تحويل مدن تل أبيب، وحيفا، والقدس، تماما إلى المعركة بحيث توقفت هناك كافة العربات، ووسائل النقل فيما عدا الوسائل المخصصة للمجهود الحربى، أما المقاهى وحياة الليل فى شارع «ديزنجوف بوليفار» فقد سكنت تماما لأنه لم يصبح هناك زبائنا لارتياح هذه الأماكن.

لقد رحل الآن رجل البريد، النجار، وعامل تصليح أجهزة الراديو، وناظر المدرسة، وبائع الأثاث، والفلاح.. كلهم ذهبوا إلى جبهة القتال، كذلك فإن غالبية السائحين الأجانب كانوا قد غادروا البلاد بينما تحاول القلة الباقية أن تجد لها مخرجا، فى نفس الوقت الذى رفض فيه أى سائح قادم أن يسافر إلى بلد ينشب فيه القتال، وعاشت إسرائيل فى حالة إظلام تام بناء على تعليمات الدفاع المدنى، ووسط هذا الظلام وشوارع المدن التى أصبحت خاوية، كان الصغار يحاولون عبثا أن يقوموا بالأعمال التى كان يقوم بها آبائهم، وأشقائهم الذين يجابهوا الآن خطر الموت فى ميدان القتال.

والآن، وبعد ٤٨ ساعة فقط من نشوب القتال، أسفرت حرب أكتوبر عن نتائج وتبعات اجتماعية مباشرة على الإسرائيليين، فقد قررت هيئة «حاخامات» تل أبيب تأجيل جميع مراسم عقد القرآن والزواج التى كانت محددة خلال ذلك الأسبوع، ومن الناحية العلمية فإن جميع هؤلاء العرسان «كان قد تم تعبئتهم للخدمة» بالقوات المسلحة جميعا إلى جبهة القتال.

وفى نفس هذا الوقت عاد إلى البلاد فريق كرة السلة الإسرائيلى، بعد اشتراكه فى مباريات بطولة أوروبا التى عقدت فى أسبانيا، وعلى الفور صدرت إليهم الأوامر،

بمجرد وصولهم، أن يغيروا ملابسهم ويرتدوا الملابس العسكرية ويسلموا أنفسهم فوراً إلى الوحدات العسكرية، كذلك تم فى نفس اليوم استدعاء ٢٠٠ رجل من المحاربين القدامى، وكانوا جميعاً من المعاقين الذين فقدوا أعضاء من أجسادهم، وقدموا أنفسهم إلى مراكز قيادة الطوارئ. حتى المجرمين تقرر تأجيل محاكمتهم إلى ما بعد الحرب وكانت إحدى محاكم تل أبيب تحاكم فعلاً رجلاً إسرائيلياً بتهمة التزوير، فقامت بتأجيل المحاكمة إلى ما بعد الحرب وطلبت منه تسليم نفسه إلى وحدته!

وحتى مستشفيات الولادة تحولت هى الأخرى لاستقبال الجرحى والمصابين الذين بدأوا يفدون بكثرة من جبهة القتال.

أسلحة مميتة

«وخلال اليوم الثالث من حرب أكتوبر، تأكد أن زعماء الحكومة وقادة القوات الإسرائيلية المسلحة لم يخطر بذهنهم عند نشوب هذه الحرب أن سلاح الطيران الإسرائيلى، الذى كان عليه العماد الأكبر فى نتائج الحروب السابقة، سيكون غير فعال فى الحرب الجديدة، وكان هذا السلاح قد تلقى ثناء كبيراً من كبار الخبراء العسكريين، على أنه واحد من أحسن القوات المقاتلة فى العالم، ومن هنا فإن سلاح الطيران الإسرائيلى أنطلق هذه المرة أيضاً بقوة وشراسة آخذاً على عاتقه مهمة الدفاع عن الدولة. ولكنه فى هذه الحرب قابل عاملاً جديداً مفزعاً إذ لم يكن فى إسرائيل من استطاع أن يتنبأ بمدى الفاعلية التى ستؤكد لها ترسانة الأسلحة المضادة للطائرات التى يملكها العرب... لقد ثبت أنها أسلحة مميتة».

وبناء على تقديرات وزارة الدفاع الأمريكية، فإنه خلال الأيام الثلاثة الأولى من القتال تم إسقاط ١٥ طائرة فانتوم «ف ٤»، و ٤٠ طائرة سكاي هوك أى أنه تم تدمير ٢٠ ٪ مما تملكه إسرائيل من هذا النوع من الطائرات الأمريكية المتقدمة، وبعد أسبوع واحد من هذا التاريخ ارتفعت التقديرات الأمريكية إلى ٢٥ طائرة «فانتوم ف - ٤» (من واقع ١٠٠ طائرة يملكها سلاح الطيران الإسرائيلى) و ٥٠ قاذفة مقاتلة من طراز سكاي هوك (من واقع ١٦٠ قاذفة مقاتلة تملكها إسرائيل من هذا النوع من الطائرات) وكان معنى ذلك هو تدمير حوالى ثلث إجمالى القوة الهجومية التى يملكها سلاح الطيران الإسرائيلى.

وفى اليوم الثالث بعد يوم كيبور «يوم نشوب القتال» وقف الجنرال أهارون ياريف المتحدث العسكرى الرسمى الإسرائيلى يعلن فى راديو إسرائيل لأمة حزينة «أن عددا من الطائرات الإسرائيلية قد تم اسقاطه بواسطة الصواريخ المضادة للطائرات» ولم يفصح ياريف ولا أى مسئول فى إسرائيل عن هذا العدد بالضبط، ولكن ورغم ذلك، فإن عائلات الطيارين، الذين لاقوا حتفهم وتم إبلاغهم بذلك، سرعان ما نشروا الأنباء المحزنة، وأصيبت الأمة كلها بحالة من الذعر والفرع من جراء هذه الحقائق الجديدة التى يواجهونها لأول مرة.

لقد وجد مجتمع إسرائيل نفسه أسير حالة الرعب التى أصبح فيها..

وكان على القيادة التى واجهت الرعب والفرع لأول مرة محاولة عمل شئ يخفف من تلك المشاعر خاصة بعد أن انتشرت الأخبار عن أعداد القتلى الذين يسقطون على الجبهة.

ولذلك نشرت جريدة جيروساليم بوست فى اليوم الرابع من الحرب خبرا فى صفحتها الأولى يقول أنه باستطاعة الأهالى المدنيين الاتصال بأفراد عائلاتهم الذين يخدمون بين صفوف القوات المسلحة «وذلك فى الحالات العاجلة فقط» عن طريق أرقام التليفون الآتية: ٦٣١١١ بالنسبة لمدينة القدس، و ٢٥٤١٢٢ بالنسبة لمدينة تل أبيب، و ٦٦٠٩٦١ بالنسبة لمدينة حيفا.

كان هذا الإعلان مقدما من القيادة العسكرية وقد نشرته الجريدة دون أى نقاش، ولكن بعدها بيوم تلقت الصحيفة إعلانا أثار نقاش المسئولين فى الصحيفة وهل من المصلحة نشره أو تجاهله.

وقد تقدم بالإعلان حزب «راكاح» الشيوعى الإسرائيلى وقد ذكر فى الإعلان:

أوقفوا نزيف الدم. أوقفوا سياسة الاحتلال وضم الأراضى من أجل تحقيق سلام دائم وعادل.. واستطرد البيان منددا بسياسة إسرائيل التوسيعية ومطالباً بالتنفيذ الكامل لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بما فى ذلك الانسحاب من جميع الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل بعد عدوان ١٩٦٧ والاعتراف بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى.

وكان واضحاً أن قلوب الكثيرين قد سقطت، وبعد مناقشة أجراها المجلس التنفيذي للجريدة اقنع «تيدلورى» رئيس تحرير الجريدة الجميع بضرورة قبول الإعلان ونشره! وفى نفس هذا الوقت أعلن اتحاد المعابد اليهودية فى إسرائيل عن حاجة القوات الموجودة فى الجبهة إلى مزيد من مخطوطات التوراه «لرفع الروح المعنوية أيضاً» كما طلب الاتحاد أن تقوم كافة المعابد بتقديم مواعيد الصلاة المسائية بحيث تنتهى قبل حلول الظلام وتنفيذ قواعد التقييد التام للإضاءة.

كان الأهالى، كلما سمعوا صفارات الانذار يهرعون بعصبية إلى المخابئ ممسكين بأطفالهم فى أيديهم وحاملين معهم البطاطين وسلال الطعام، وداخل المخابئ كانت السيدات المسنات يجلسن على المراتب، وسرعان ما تنشط ذاكرتهم ويسترجعن أهوال الحرب فى الماضى والحاضر، ثم يبدأن فى «التراجع والأنين» أما البعض الآخر فكان ينصت باهتمام إلى الأنباء الإذاعية عن طريق أجهزة الترانزستور، وتبقى بعد ذلك طائفة قليلة من الناس كانوا يغمضون أعينهم ويستمررون فى الصلاة حتى تنطلق صفارات الأمان.. وفى معظم الأحيان كان الجميع يفضلون المبيت فى المخابئ حتى صباح اليوم التالى.

وتبقى بعد ذلك مشكلة المهاجرين الذين وصلوا حديثاً إلى إسرائيل منذ أشهر أو أسابيع، أو حتى أيام قليلة معدودة قبل اندلاع الحرب، لقد كان هؤلاء جميعاً صامتين تماماً كما لو كانوا قد أصيبوا بالذهول فقد كانت هذه الحرب المهولة هى أول تجربة لهم فى أرض الميعاد، ولم يكن أحد منهم يعرف ماذا يمكن أن يحدث بالضبط، وكيف ستتطور الأمور بعد هذه الصورة الكئيبة المحزنة التى يزنونها.

وقد تصادف فى نفس الفترة التى شملتها حرب أكتوبر أن جاء عيداً يهودياً آخر يسمى «عيد الحصاد» وكان اليهود فى الماضى يحتفلون خلاله بجنى حصاد المحاصيل الصيفية، ولذلك كان مواعده يختلف من عام إلى آخر حسب الموعد الذى تكون فيه هذه المحاصيل جاهزة للجنى، وقد كان هذا العيد دائماً يتسم بالبهجة ومشاعر الفرح.. إلا أن هذا العيد الذى جاء فى أكتوبر ١٩٧٣ «فقد كان عيداً كئيباً حزيناً، جاء بعد أيام كلها حزن ومرارة لإسرائيل التى شعر شعبها أجمع بأنه قد أفاق

على محنة هائلة شاهد خلالها معظم أفراد الشعب الإسرائيلي موت أعز أصدقائهم .
وعملا بقصيدة «لمن تدق الأجراس» الشهيرة للشاعر الإنجليزي جون دون والتي
تقول:

ليس هناك إنسانا عبارة عن جزيرة قائمة بذاتها

كل إنسان جزء من الكل

إن بقعة واحدة يستطيع البحر أن يحورها بسهولة

وأن موت أى إنسان ينقص شيئا منى لأننى أنتمى إلى الجنس البشرى

لذلك لا ترسل أبدا من يسأل: لمن تدق الأجراس؟

لأنها تدق من أجلك أنت .

(يقصد الشاعر أجراس الكنيسة التى تدق عندما يموت أحد الناس) .

وعملا بهذه القصيدة الشهيرة فإنه بعد الخسائر الهائلة التى نزلت خلال حرب
أكتوبر فإنه فى كل أرجاء إسرائيل لم يكن هناك أحد ليسأل: لمن تدق الأجراس؟ فقد
كان الموت يشمل الجميع .

أعياد تتحول إلى مآتم

وبعد ١٣ يوما من أندلاع حرب كيبور جاء عيد آخر من الأعياد اليهودية يسمى
«سمحات التوراة» وهو عيد يتميز بالبهجة ومظاهر الفرح والسرور ويملاً فيه اليهود
شوارع المدن بالرقص والغناء والطرب حاملين فى أيديهم مخطوطات التوراة
المقدسة، كذلك تشترك فى هذا الاحتفال كافة الهيئات والقواعد العسكرية، ويتم اختيار
شخصية عسكرية بارزة وأخرى من القيادة السياسية ليكون لهما شرف حمل
مخطوطات التوراة ويتقدمان بها على رأس مواكب الاحتفال

وبصفة عامة فإن إسرائيل تحتفل بهذا العيد كيوم للمرح فهو آخر يوم من أيام
العطلة، وهو يوم تعقد فيه حفلات المرح وتخرج العائلات للنزهة والرحلات وزيارة
المعارف، ويسود الدولة كلها نوعا من البشر والسعادة والشعور بالارتياح . ولقد تصادف

أن كان هذا العيد فى العام الماضى (١٩٧٢) من أسعد الأعياد التى شهدتها إسرائيل ويبدو أن القدر كان يعوض لهم مقدما تلك الأهوال والأحزان التى سيرونها فى العيد القادم: أكتوبر ١٩٧٣ .

فى هذا اليوم تقرر إلغاء مظاهر الاحتفال واستمر حظر الاضاءة فى جميع أركان إسرائيل، وجاء عيد المرح هذا حزينا كثيبا وخاليا من كل مظاهر الحياة . وكانت الأمة كلها قد أنغمست فى نوع من الحزن العميق وبصفة عامة كان الشعب كله فى فترة حداد على الأقارب والأصدقاء الذين قتلوا فى المعركة، وكان الجميع تكالى وكانت يد الموت قد مست كل إنسان يعيش فى إسرائيل .

معابد الحزن والتابوت المقدس

وبمجرد غروب الشمس فى هذا اليوم، اضطرو المصلون داخل المعابد اليهودية إلى اسدال ستائر المعبد حتى لا يخرج أى ضوء من خلال النوافذ . كانت معظم هذه المعابد مليئة بالنساء والأطفال الصغار والشيخوخ، أما زهرة شباب إسرائيل فكانوا جميعا يلاقون الموت على جبهتى القتال، وفى لحظة يأس أراد بعض هؤلاء المصلين أن يتحدوا ما أنزله عليهم القدر فقاموا باعتناق أطفالهم وحملوهم محاولين إقامة شعائر الفرحة المفقودة وذلك بالرقص حول «تابوت العهد المقدس» .. لقد كانت محاولة يائسة لتحدى الأقدار وتجسيدا للرغبة فى الحياة بعد أن قابلوا الموت وجها لوجه .

كان هناك داخل بعض المعابد فى ذلك اليوم، عددا قليلا من الجنود وجاءوا من الجبهة ووقفوا بين النساء والأطفال والشيخوخ، ولم يستطيع أحد منهم أن يحتوى الدموع التى تذرفها عيناه . لقد ذهب الشباب والرجال جميعا إلى الحرب يلاقون هناك الأهوال والمصير المحزن ولم يتبق داخل إسرائيل غير هؤلاء الشيخوخ والنساء وأولئك الأطفال أملا لهم فى المستقبل .

الشك والحيرة

ويتذكر أحد الكتاب هناك حديثا جرى بينه وبين سيدة إسرائيلية تدعى «هاداساه ايشيل» وتبلغ من العمر ٤٠ عاما، قالت له: هل تعلم يا هارولد، إننى من جيل الصابرا الرابع، فقد ولد أبى فى هذا البلد، كذلك جدى وأبوه ... ولدوا جميعا هنا، وفى شبابى

تطوعت بمحض إرادتي في الجيش الإسرائيلي. وكنت فخورة بأنني أدافع عن إسرائيل، وفي الحرب الأخيرة (حرب أكتوبر) كنت مستعدة للذود بحياتي في سبيل الدفاع عن البلاد.. ولكن أنظر الآن إلى ولداي. أن كلا منهما أعلى من حياتي نفسها.. أنهما توأمان بلغا الآن الحادية عشرة من عمرهما، والسؤال الذي يلح على الآن: ماهو الهدف الذي أرييهما من أجله؟ لكي يلاقيا حتفيهما في الحرب!.. لا إنني لست مستعدة للتخلي عنهما، لقد كنت مستعدة للتضحية بحياتي، وحتى حياة زوجي، لمجرد أن نجعل هذا البلد مأمونا لأطفالنا... وتوقفت فجأة عن الحديث لتجفف دموعها ثم استمرت قائلة: إننا لانسطيع الاستمرار هكذا، نخوض حربا كل خمس سنوات، إننا نعمل ونكافح ونعلم أبناءنا ولكن ليس ليلاقوا حتفهم في القتال كما يحدث الآن إنني لانسطيع أن أنحمل مجرد التفكير أن ولداي سيكبران كي يلاقيان حتفيهما في الحرب..

وخلال الأيام الأولى من حرب أكتوبر، وبسبب الحقائق الجديدة لهذه الحرب، فإن مظاهر الامتعاض اكتسحت المجتمع الإسرائيلي بأكمله وأصبح الجميع يشعرون أنهم يحاربون لإنقاذ حياتهم وأن العدو لا يتأثر بالخسائر في الأرواح لأن تعداد السكان عنده ضخم ويستطيع أن يستوعب ويمتص هذه الخسائر في حين أن الخسائر في الأرواح مؤثرة جداً في المجتمع الإسرائيلي بسبب قلة السكان.. «إننا نريد أن نعيش بدون هذه الضغوط والأعباء الهائلة والضرائب الفادحة التي ترمى إلى توفير ميزانية مجحفة للدفاع والتسليح، إننا لا نريد أن نبذل كل هذا ثم تأتي مثل هذه الحرب لتقتلنا.. وحرب بعدها لتقتل أعز ما نملك: أطفالنا».

ويقول الكاتب: إنه في النهج الطبيعي لحياة الإنسان فإن مسألة الموت بالنسبة لعائل الأسرة لا تحدث إلا عندما يبلغ هذا الشخص سن الشيخوخة، وغالباً ما يكون هذا الشخص هو الأب أو الأم، ولكن في إسرائيل تختلف المسألة تماماً، فالموت هناك الآن أصبح رفيقاً دائماً يوجه ضربته دائماً إلى شباب العائلة وليس كهولها.

مرتين أرملة وعمرها ٢٦ عاماً

وعلى سبيل المثال هناك سيدة إسرائيلية تدعى «حاناه» ذهب زوجها ليقاتل في حرب ١٩٦٧ ولم يعد أبداً بعد ذلك فأصبحت أرملة وأماً لطفل واحد وهي في سن العشرين، وفي سنة ١٩٧٠ تزوجت «حاناه» مرة أخرى وأنجبت طفلين من زوجها الجديد، وعندما نشبت حرب أكتوبر تم استدعاء هذا الزوج للقوات المسلحة، حيث لاقى مصرعه بعد أيام قليلة من نشوب القتال، وبذلك «ترملت» هذه الزوجة الإسرائيلية مرتين وهي مازالت في السادسة والعشرين من عمرها.

إن المرء بعد حرب أكتوبر يسمع عديداً من هذه القصص في إسرائيل، وأن إحدى المتطوعات الأمريكيات في إسرائيل وتدعى «ديل» قالت: إن أصدقاءها من الجنود الإسرائيليين يقولون لها: إنهم لا يريدون أن يقعوا في الغرام ويتزوجوا حتى إذا ما قتلوا في الحرب فإنهم لا يكونون قد تركوا من خلفهم أطفالاً وأرامل كما فعل زملاؤهم.

وأكثر من هذا فإن الفتيات، بعد هذه الحرب، أصبحن يشاركن الشبان في نفس هذا التفكير اليائس من المستقبل الذي لم يعد يخبئ لهم غير المأسى، وربما استطاع هؤلاء الشبان الإسرائيليون أن يغيروا أفكارهم تلك بعد فترة فسيحة نلتئم خلالها جروح الزمن، ولكن الذي يحدث الآن أن موجة من التشاؤم الأسود تسود بين الشباب الإسرائيلي بسبب ما رأوه وما تعرضوا له في الحرب السابقة، وقد أدى هذا الإحساس بلعنة المصير إلى نشوء نوع من روح الفكاهة التي تصاحب شعور الإنسان باليأس من المستقبل بأكمله.

مقابر هائلة

كان من نتائج حرب أكتوبر في إسرائيل أنه تم على عجل إنشاء ٣ مدافن مؤقتة لضحايا تلك الحرب: الأولى في تل أبيب لضحايا القيادة العسكرية المركزية، والثاني في «عقولا» لضحايا القيادة الشمالية العسكرية، والثالث على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً لضحايا القيادة العسكرية الجنوبية (سيناء) والتي كانت تضم أكبر عدد من الضحايا.

وإلى هذه المقابر الأخيرة بالذات توجه حوالي ٦ آلاف من أهالي الذين قتلوا على تلك الجبهة (وبعد شهر تقريباً من بدء الحرب) ليزوروا ١٨٥٤ قتيلاً ضمتهم المقابر.

وبدأت الموسيقى الحزينة والصلوات، بينما كان قادة المناطق العسكرية الثلاثة الإسرائيلية ينادون على الجميع للوقوف «انتباه» حتى «لا يشعر الموتى أنهم ضحوا بحياتهم عبثاً»، وفي نفس هذا الوقت تم تنكيس الأعلام في جميع الوحدات العسكرية الإسرائيلية وأقيمت نفس الشعائر في عدد من المقابر العسكرية الإضافية بكل أرجاء إسرائيل.

لماذا .. لماذا .. لماذا ؟

كانت المقبرة مزدحمة للغاية بأمهات، وزوجات، وشقيقات، وجدات القتلى. وقد جلس جميعاً قرب القبور بعضهم يصرخ والبعض الآخر «يلطم» خدودهن. أما باقي الأهالي فقد كانوا صامتين يحاولون بجهد فارق منع دموعهم. وكانت هناك زوجة شابة وقفت بجانب مقبرة لا تفعل شيئاً غير ترديد كلمة واحدة، لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟. وبجانب قبر آخر وقف جندي إسرائيلي حاملاً ابنة أخيه الطفلة لتزور قبر أبيها، وكان يردد هو الآخر: كوني شجاعة لا تبكي. وبجانب قبر ثالث يبدو واضحاً أنه قد فتح منذ فترة قريبة، رقدت جدة تحتضن شاهد القبر الذي دفن فيه حفيدها بينما وقف خلفها زوجها يحتضنها ويقرأ بصوت عال «مزمар داود» رقم ٨٣، فإن هذا هو الموجز المتكرر لما حدث داخل كل المقابر العسكرية في إسرائيل يوم أن خرج الشعب بأكمله ينعي قتلاه في حرب أكتوبر.

«بحيرات مرة» من الدموع

وبعد ٧٣ يوماً من انتهاء الحرب، أجريت في نفس المقبرة (مقبرة ضحايا الجبهة الجنوبية أي سيناء) فرائض أخرى للصلاة التذكارية وحضرها آلاف من أسر الضحايا، وأعلن هناك أحد كبار الضباط الذين خدموا في نفس الجبهة، أنه لو أمكن فعلاً تحقيق السلام، فإن تضحيات هؤلاء الجنود لن تذهب سدى، وكان هناك أحد الآباء الذين فقدوا أبناءهم في هذه الحرب. قام بتلخيص المأساة كلها على المستوى الشخصي عندما صرح لمراسل جريدة «جيروسليم بوست» قائلاً: الآن أصبحت لدينا «بحيرات مرة» ولكنها مليئة بدموع أهالي ضحايا القتال.

عودة الأسرى

فى نفس هذا الوقت أصدر الرئيس السادات قراراً إنسانياً بإعادة الأسرى الإسرائيلىين، وبعد ٤١ يوماً من القتال وصل الفوج الأول من هؤلاء الأسرى، وكانوا جميعاً يرتدون البيجامات وحليقى الشعر. ولقد كانت فرحة إسرائيل بهم لا توصف واستقبلوهم فى مطار اللد بالأحضان، والدموع، وكل مشاعر الإثارة، وبعد ذلك حملوهم فى قافلة إلى مستشفى «تل هامو شامير» وأدخلوهم جناح الحالات الطارئة ثم قاموا بتوزيعهم حسب حالة كل منهم إلى مختلف الأجنحة والأقسام.

ومن بين هؤلاء الأسرى كان هناك طيار إسرائيلى أمضى فى الأسر ٣ سنوات ونصف، إذا كان قد تم أسره خلال حرب الاستنزاف، ويدعى هذا الطيار سيرين رامى هاباز. وعندما عاد هذا الطيار إلى الكيبوتز الذى يعيش فيه أقاموا له حفل استقبال كبير ثم طلب منهم أن يحملوا قطعة، أحضرها معه من سجن المعسكر إلى زميله فى الأسر دان أفيدان الذى يقطن بالكيبوتز المجاور والذى أفرجت عنه مصر قبل ذلك بثلاثة أسابيع. وعندما وصل هاباز إلى بيته اكتشف أنه أصبح أباً لـ ٣ بنات وولد، إذا أنجبت زوجته توأمين أناث بعد أن أسقط المصريون طائرته الفانتوم بشهرين.

ومع مرور الأيام ظهرت فى إسرائيل مشكلة جديدة هى مشكلة الأهالى الذين لا يعرفون حتى الآن مصير أبنائهم، فقد قالت لهم القيادة الإسرائيلية: إنهم فى عداد المفقودين، لم تقل لهم إذا كانوا قد قتلوا أو أسروا، وعندما عاد الأسرى من مصر ثار هؤلاء الأهالى على القيادة والحكومة الإسرائيلية مطالبين بمعرفة مصير ذويهم، وأصبحوا بمثابة مشكلة أخرى زادت من أعباء القيادة والتزاماتها أمام جماهير الشعب.

كلام عاقل جداً

وكان لابد وأن يتكلم الرئيس الإسرائيلى فى ذلك الوقت أفرام كاتزير، فخرج بعد ٥٠ يوماً من الحرب يقول فى الإذاعة الإسرائيلية بالحرف الواحد: «إن عديداً من الأخطاء السياسة والعسكرية قد وقعت فى هذه الحرب.. وإننا جميعاً نتحمل اللوم فى ذلك.. لقد أردنا أن نعيش فى عالم خيالى لا يمت بصلة إلى عالم الواقع الذى نعيش فيه، وأن محاولات البحث والتحقيق فى أسباب هذه الأخطاء التى وقعت يجب أن لا

ترمى أبدأ إلى معاقبة كل منا للآخر، ولكن يجب أن تهدف إلى تعلم الدروس التي قد تحدد مصير الشعب اليهودي .

وعن الصدمة قال الرئيس الإسرائيلي: إن الشعب اليهودي عاقل وأنه شعر فجأة بقوة العرب العسكرية والحاجة إلى عمل مشترك.. الشيء الذي لم نكن قد تعودنا عليه قبل ذلك، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الألم من جراء الخسائر التي لحقت بنا، ونتيجة لذلك فقد بدأنا نعيد النظر في أعمالنا ونعيد تقديرها بتعقل ورزانة، ولكن هذه العملية مصحوبة بالكثير من الآلام، وبالأسي غير القليل، لما حدث لنا.

السيدة مائير

وبعد ذلك بحوالي ٢٤ ساعة خرجت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل، لتقول: ان إسرائيل خدّرت نفسها طوال السنوات الماضية بفكرة أنهم طالما كانوا لا يرون هناك مبرراً للحرب فإن العرب بدورهم لن يجدوا هذا المبرر. أننا كنا واثقين تماماً أن الحرب لن تحل شيئاً وإننا نبغى السلام، وعندما جاءت تقارير المخابرات حول استعداد العرب للحرب فإن أحسن من في قومنا قالوا: إن هذا لا يمكن أن يحدث.

ثم أضافت رئيسة وزراء إسرائيل قائلة: إنه لأول مرة في تاريخ إسرائيل شعر الشعب عند اندلاع هذه الحرب وخلال ساعاتها الأولى أن إسرائيل قد تخسر المعركة، وكان مستقبل إسرائيل بل مستقبل الشعب اليهودي كله يعتمد على نتيجة حرب أكتوبر، وإنني لواقئة إنني لم أقل أبدأ من قبل أن استمرار الشعب اليهودي في البقاء يعتمد علينا (إسرائيل) .

وأضافت مائير قائلة: ليس هناك في إسرائيل كلها شخص واحد يستطيع أن يقول: إنه نفس الشخص الذي كان عليه ليلة يوم كيبيور.. إنني شخصياً لا أعتقد أنني سأعود يوماً إلى ما كنت عليه في الليلة السابقة لحرب كيبيور.

إنى ذاهب للبحر

وأهم من هذا كله كان التغيير الهائل الذى طرأ على المقاتل الإسرائيلى وفيما يلى مقتطفات من حديث صحفى مع ضابط مدرعات إسرائيلى اشترك فى حرب أكتوبر، وطوال الحديث نشعر بأن الرجل يتجه إلى مفهومات أخرى كما لو كان قد تعرض لتوه لنوع من «العلاج بالصدمة». وهو فى الحديث عن مشاعره يتجه إلى الأسلوب الأدبى الرفيع الذى يساعد على تكوينه تلك التجارب الأليمة التى يتعرض لها الإنسان.

يقول الضابط الإسرائيلى: إنى ذاهب أنظر إلى البحر، ومازال عندى أمل أن أرى السماء شاسعة زرقاء كما هى. لقد جئت من الصحراء وحيدا مقهورا وأشعر أن كل ماكان قريب منى بالأمس أصبح بعيد عنى الآن ولذلك فإننى ذاهب انظر للبحر.. ربما لمحت شراعا فى الأفق.. ولكن إذا قذفت لى الأمواج بمهمة رسمية فى قلب زجاجة فلن افتحها أبدا.

إنى ذاهب للبحر

سوف أجلس على الرمل، أرتدى معطفا كبيرا.. لا تشفقوا على فأننا أشفق على نفسى أكثر منكم.. ولكن فى استطاعتكم أن تجلسوا بجوارى.. فهناك متسع للجميع على شاطئ البحر. ولا تسألونى من مات؟ ومن بقى على قيد الحياة؟ ومن جرح؟

ومن هزم؟ ومن خسر؟ ومن الذى على حق؟ ومن المخطئ؟.. فلم يعد ذلك يهمنى أبدا.. كلما يعيننى اليوم هو أن تصدقونى لأننى أنا أيضا لم أكن أذكر الحقيقة دائما.. ولكننى سأذكرها الآن:

إنى ذاهب أتأمل البحر فلم أعد أحتاج لشيء سوى البحر.

إن ما قتل فى داخلى لن تستطيعوا أن تردوه إلى أبدا إنى ذاهب أتأمل البحر.

بدأت طائرة النقل الضخمة تستعد للهبوط فى تل أبيب وينظر جنود المظلات منها إلى أسفل، وبحركات متعبة أخذوا يمسخون بأيديهم الدامية على شعورهم المتربة من كثرة الليالى التى قضوها فى حفر الخنادق.

قال أحدهم: يبدو أن مناظرنا جميلة.

وسأل الآخر دون أن يبتسم: من الذى كسب الحرب؟

أما أنا فمازلت أشم رائحة الجثث المحترقة وهناك كلب يأكل فى جثة أحد الجنود.. حمدا لله إنى مازلت على قيد الحياة لكننى فى الوقت نفسه أحس بشعور مبهم كما لو كنت قد اشتركت فى تمثيل فيلم خليع.. ينبغى أن أذهب هذا المساء إلى أهل «يورام» وإلى زوجة «تسفيكا» وإلى أولادى «يواف» فقد مات هؤلاء جميعا.

وفى وقت متأخر من الليل سوف أصرخ أثناء نومى: «أيها الممرض.. أيها الممرض» وللمرة الثانية فى حياتى سوف أذهب لأسجل اسمى فى حزب الشياطين الاحتياطين أولئك الذين تهددهم الحرب دائما والذين يموتون أحياء.. بكل تأكيد سوف يدهش الأقارب والأصدقاء الذين فى الخلف عندما يرون الابتسامة تقترب بالدموع.. ومع ذلك فإن بدنى لا يقشعر حينما يذكر اسم أحد الموتى أمامى.

إنى ذاهب أتأمل البحر:

وسوف أبعث بكارث بوستال (كارث صفراء وعسكرية صغيرة) إلى الذين يقررون بداية ونهاية الحروب.

إنى فى الثامنة عشر.. فى السادسة والعشرين.. فى الواحد والثلاثين.. فى الثانية والخمسين.

إن السادسة والعشرين من أجمل سنوات الحياة وأجمل سنوات الموت أيضا.. في حياتي لم أشعر بمثل هذا الشعور إلا ربما عندما كنت في التاسعة عشر خلال حرب الأيام الستة حينما أضللنا «تل الحار» وجاء إلينا أحد الوزراء ليقول لنا «أننا انتصرنا» ورد عليه الذين بقوا على قيد الحياة: «أنت الذي انتصرت أما نحن فذهبون لتأمل البحر».

طوال أشهر عانينا من الكابوس والأحلام المخيفة.. كنا نستيقظ على صراخ: «أيها الممرض».. في الصحف كانوا يقولون إننا كنا مدهشين.. كما لو كنا نمثل مسرحية كانوا يتكلمون عن النصر.. أما أنا فلم أكن أفهم أى نصر هذا الذى يتكلمون عنه.. فإذا كانوا يعنون السلام فإنه لم يكن بعيدا عنا كما هو الآن.. ولكن يبدو أن الأمر كذلك وإن كل شئ يسير على مايرام وإننى أستطيع أن أنام فى هدوء وأن الموقف – على مستوى الامن – لم يكن أفضل من ذلك أبدا.

وعندئذ ذهبنا ونحن نغنى لحن «جسر نهر كواي» باحثين عن الزوجة والمسكن والعمل.. وفى كل صباح بعد ليالى الأرق كنا نستيقظ ونعيد على أنفسنا معا أن موقفنا على مستوى الأمن «لم يكن أفضل من ذلك أبدا».. كم من الوقت نستطيع أن نتأمل البحر؟

منذ عام ١٩٦٧ بعيدا عن ذكريات الحرب قامت شركة غربية استهلاكية، ولم تمر إسرائيل بمثل هذا المنحنى الصاعد، كان الأثرياء يزدادون ثراء والفقراء يزدادون فقرا.

كان الجميع يعلمون أن هناك فدائيين فلسطينيين فى الضواحي ولكن كان الجميع يعتمدون على أجهزة الأمن الأعمال مزدهرة والصناعة والمباني على أحسن مايرام.. كان المقارلون الأغنياء يشترون بالملايين أراضى راح ضحيتها كثير من زملائي... والفن أيضا بدأ يزدهر.. الكتب.. صالونات الفن.. علب الليل.. المطاعم الغربية ومع ذلك جاء يوم خرج فيه شباب الكيبوتز يفكر فى هذا الانتصار ويعلق عليه وقاموا بتأليف كتاب صغير بعنوان «اليوم السابع» شرحوا فيه بكلمات بسيطة الحرب كما يرونها وأنها ليست سوى الموت والدمار:

من أجل السلام يجب أن نحارب..

نحن نحارب من أجل السلام..

الحرب من أجل السلام..

إن هذه الشعارات فى جميع اللغات تتسم بالبلاهة.. يضعون جنباً إلى جنب كلمة ونقيضتها دون حياء.. مثل عبارة «نقاء السلاح».. هل يمكن أن يكون السلاح الذى يقتل إنساناً، نقياً؟

إن السلام كما ترون مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا.

إن الشباب الإسرائيلى لم يبق منه الكثير بعد الحرب الرابعة من أجل السلام ويرغب الآن حقاً أن يقبله العرب وأن يتقرب منهم.

يقولون لنا قبل وبعد كل حرب إننا نناضل من أجل السلام والأمن ولكننى أعرف بعضهم ممن قتلوا فى ميادين القتال دون أن يفكروا فى السلام والأمن.. كانوا يفكرون فى الزوجة والطفل الذى يستيقظ كل ليلة فى الساعة الرابعة فى الأهل.. فى الأطفال.. فى الصديقة.. فى فيلم السينما الذى يجب ألا يفوته.. فى شجرة البرتقال الخضراء وشذاها.. من كان يحب البحر يفكر فى البحر، والذى يحب الشمس كان يفكر فى الشمس، أما أنا فكنيت أفكر فى الموت.

لايكفى أن أحارب من أجل السلام فقط ذلك لأننى نضجت قليلاً وقرأت بعض الكتب، وتناقشت مع بعض الزملاء.. وأريد أن أفهم أيضاً عن أى سلام تتكلمون على وجه التحديد؟.. أى سلام؟.. وكم سلاماً؟ والسلام مع من؟

وما هو الأمن؟.. أريد أن أفهم لأنه كلما نشبت حرباً فى أى مكان.. أذهب أنا لأقتل نفسى أما أنتم فتستمرون فى الحديث عن السلام والأمن.

هل لمس أحد منكم السلام والأمن بيديه؟.. أنهم يرددون على مسامعكم بكلمات لا يستطيعون أن يشرحوها لكم.. وتذهب أنت لتضحى ربما بحياتك من أجل كلمات لا تفهم حتى معناها.. هناك زملاء لى فى المستشفيات فقدوا أذرعتهم أو أرجلهم أو الاثنين معاً.. فما هو ذلك الأمن الذى حصلوا عليه؟.. إن هناك من فقد عقله ويسير الآن متخبطاً فى دهاليز المصحات صارخاً: «أيها الممرض، أهذا هو السلام والأمن؟

لذلك فإننى أقول لكم الآتى: إننى فى السادسة والعشرين من عمري وعندى طفلين وليس عندى مسكن.. السلام والأمن أنهما بلا شك شئ رائع.. ولكن حياتى أغلى عندى من كلماتكم.. إننى لست أبله وحينما أحارب أريد أن أعرف بالضبط ما الذى أحارب من أجله؟.. إذا كان هذا من أجل السلام فأعطونى إيضاحا أهو سلام يدوم حتى يبلغ ابنى سن التجنيد ليخوض الحرب من أجل نفس السلام؟.. إذا كان هذا هو «سلامكم» و «أمنكم» فلنذهبوا أنتم وتحاربوا من أجله.. أما «سلامى» و «أمنى» أنا سوف أجدهما فى حياة طويلة بقدر المستطاع وليس فى الموت أو بتر عضو من أعضاء جسدى.. ومع ذلك سوف أقول لكم شيئا: إننى على استعداد للتضحية بالكثير من أجل سلام وأمن حقيقيين.. ولكننى لست مستعدا لكى أموت من أجل كلمات لا أفهمها.

لقد كان أمامنا ٦ سنوات طوال للتكلم فيها عن السلام والأمن ولكننا بقينا سجناء لكلامنا وتفكيرنا وفلسفتنا الرخيصة.. لقد كنا نحارب دائما من أجل شئ ما: «الحرية» «الاخاء».. «الاستقلال».. «الديموقراطية» «السلام».. «الأمن».. ولكن الأهم من ذلك كله هو الحياة التى أهملناها جانبا تحت أكوام من الشعارات البالية والخيالية من كل معنى.

لقد رأيت شبابا يموت، ولم يصرخ أحدهم وهو يسقط صريعا: «كم هو جميل أن تموت من أجل الوطن.. أو يحيا السلام والأمن» ولكننى بدلا من ذلك كنت أسمعهم يبيكون منادين أمهاتهم كالأطفال أو كانوا حانقين ومنهم من كان يقول: «لاتحكوا لزوجتى فسوف تؤاخذنى طول حياتى» (كان يعنى طول موتى).. أو يقول: «إننى أموت دون أن اعلم إذا كنت قد حصلت أخيرا على سلامكم وأمنكم».

فيما بعد، فى فصل الكبار، سوف يقصرون علينا غزوات بطل مات فى سجن الأعداء دون أن يفش أسرار الدولة. وسوف تلصحنا المدرسة، بالأدب المعتاد. ألا نفشى الأسرار إذا وقعنا يوما فى الأسر. ومع ذلك فإننى إذا وقعت يوما فى الأسر فسوف أصرخ عاليا: «الأسرار! وهذه هى أتريدون أكثر؟.. هاهى ولكنى أستحلفكم ألا تعذبونى.. فأنا لست بطلا.. أنا على استعداد لتسليم أناس لم يولدوا بعد، ولكن اتركوا لى يدى.. أتريدون أسراراً أخرى؟ بالطبع مازال عندى. أن ما قلته لكم الآن ليس بذى أهمية.. أنا على استعداد حتى إلى تأليف الأسرار.. وذلك لأننا لدينا الملايين من الأسرار.. وأستطيع أن أقول لهم بعضها. فأنا لست بطلا.

منذ نشأتى، كنت أعتقد أن هذه حقيقة رائعة أو أكذوبة رائعة .. أو الاثنين معا، لأننى إذا كنت أحب وطنى حقا فما الذى يدفعنى إلى أن أموت من أجله، وإذا كنت لا أحبه فما الذى يمنعنى من أن أصرح بذلك؟ إن شعارى الآن هو: «كم هو رائع أن أحييا من أجل الوطن».

إن التحرك نحو السلام من جانب إسرائيل لم يأت فى يوم وليلة فقد كان أمامهم ٦ سنوات بعد حرب يونيو ليتحركوا نحو السلام، ولكن شئ من هذا لم يحدث إلا بعد زلزال حرب أكتوبر فهو «سلام بقوة السلاح»، ولنقرأ معا ما قاله ضابط إسرائيلى عائد من عمليات القتال:

«اسمى ايلى» ولكن هذا لا يهم حيث أنكم لن تنشروا اسمى .. أنا طالب عمري الان ٢٦ عاما .. واعترف بأننى أمقت الصحفيين الذين يعيشون على الجثث ويمجدون الحرب بكلمات رنانة وجمل منمقة.

لن أنسى عودتى من معركة رافيد، لقد كنت أحمل ١٤ جريحا فوق عربتى هم قوام من استطاع النجاة من الفرقة التى أعمل بها، وكانت عربتى المصفحة هى المركبة الوحيدة السليمة بين جميع مركبات الوحدة.

وعندما وصلت إلى المستشفى الميدانى انقض علىّ أنا وزملائى الجرحى محرر ومصور من التليفزيون .. وفى فرحة محمومة بدأوا فى تصوير الجرحى .. وعندئذ انتابتنى رغبة قوية فى أن أطلق النار لأقضى على هؤلاء المتطفلين الذين يحومون حول مستشفيات الميدان لينتزعوا التفاصيل المروعة من بقايا البشر العائدين من ميدان القتال.

«بطل» .. ماذا تعنى هذه الكلمة .. كل الأبطال الذين كانوا معى ماتوا .. وأنا لست سوى ضابط مدرعات بسيط يريد أن يعيش، ومن هنا كنت أعلم إننى لو توقفت عن التقدم .. والضرب فسوف أصبح الهدف القادم وهكذا فإنه كما ترون هناك فى كل فرقة أولئك الذين يقاتلون وهؤلاء المضطربون المترددون الذين يحاولون الهروب بخلودهم وعادة يكون قد فات الأوان.

أتريدون الحقيقة لقد تعبت ولم أعد أحتمل.. لقد خضت حروب حرب الأيام الستة وحرب الاستنزاف والآن حرب كيبور.. وحينما اندلعت هذه الحرب الأخيرة بدأت أرتجف لقد كنت مقتنعا أن دورى قد حان هذه المرة وأننى لن أستطيع الهروب من هلاك الموت.

فى حرب الأيام الستة كنت أعمل فى كتيبة مدرعة بقيادة «أهرد آلد» وقد عبرت «جيرادى» معه، ولقد كتبنا كثيرا عن هذا الموضوع بل أننا كتبنا فصلا بأكمله فى كتاب «مدرعات تموز» وقيل وقتذاك إنه لن يكون هناك أبشع من هذه المعركة.

وفى هذه الحرب الأخيرة كنا قد حصلنا على كل ما اخترعه الإنسان ليدمر به الإنسان مدرعات دبابات ثقيلة مدافع مضادة للطائرات هاونات أسلحة خفيفة. صواريخ وهناك كثير مما نسيته.

ويرد على خاطرى الآن إننا كنا فى مدرسة الضباط قد درسنا المعركة التى قام بها «موشى بريل» عام ١٩٥٦ خلال حملة سيناء، وقد هزتنا شجاعته كثيرا، أما اليوم فإن ذلك يجعلنا نضحك.. إن كل موقع حصين من مرتفعات الجولان دارت فيه معركة أعنف بعشرات المرات من هذه المعركة التى قادها «موشى بريل».

وفى خلال معارك الاستنزاف وقعت محاصراً فى شمال القتال وعانيت ما لا يمكن أن يتصوره إنسان ولم نكن نستطيع أخلاء جثث زملائنا كما إنه لم يكن فى الإمكان إمدادنا بالطعام الذى كنا نتناول منه كمية غير كافية لاتحتوى على الفيتامينات التى يحتاجها الإنسان.. ولذلك فقد بدأ شعر رأسى فى السقوط.. وأصبحت أصلع الرأس علما بأنه ليس هناك صلح فى عائلتى وبالتالي ليس هناك عامل وراثى.

لقد كان يفصلنا عن خنادقنا فى الخلف مائتى متر فقط لم نكن نستطيع الوصول إليها حيث توجد وجبات غذائية كاملة. أما اليوم من الصعب على تحمل ذلك لأننى الوحيد - من الوحدة الذى بقى مع قائد الفرقة. أما هو فقد أصابته طائرة «ميج» انقضت عليه وكانت الصدمة عليه عنيفة بالدرجة التى لم يكن معها يريد أن يستعيد مدرعته فتركها وفضل أن يركب معى وقد واصلت حتى أستطيع أن أنقذ من تبقى على قيد الحياة من زملائى. وفى هذه الأثناء وصلت طائرات الفانتوم لنجدتنا

وللسخرية تكادت هذه الطائرات أن تؤدى بحياتى وحياة من معى، والسبب فى ذلك
إنى كنت قد نزعنت الشارة المعدنية التى تميز عربتى المدرعة. نزعنتها لأنها كانت
تحدث صوتا مزعجا، وهذا أعتقد أحد طيارى الفانتوم إنها مدرعة عربية فانقض
عليها وقذفها بصاروخين وقعا على بعد أمتار منا، والذى آلمنى أكثر من هذا كله هو
رد قائد الكتيبة حينما قصصت عليه هذه الواقعة وإن الفانتوم لم تصبى وعندئذ رد
على القائد بعدم اكتراث. «أتقول أخطأك.. هذا غير معقول».

وحينما وصلت إلى المستشفى لم أكن قد أفقت بعد من صدمة إبادة فصليتى
بأكملها.. ولم أكن أريد الاعتراف بأن صديقى الحميم «يورى» قد مات، لقد كنا من
دفعة واحدة ومن نفس السن، وكان شابا جميلا أتذكره عندما قال لى بعد زواجى منذ
أربعة أشهر. أسكت عنى ولا تجلب لى الصداق بسيرة الزواج هذا.. وهاهو يورى قد
ذهب ولن يتزوج أبدا

إننى أؤكد لكم إن أحدا لا يعرف حقيقة الحرب سرانا. إن المعاناة من الغارات ليست
هى الحرب.. المسألة هى إما إنك تقع فى الفخ وإما أن تنجو منه.. إن الذى يتردد
ثانية واحدة، والذى لا يعرف كيف يفكر بسرعة ويتصرف بطريقة أسرع.. فالموت
أفضل له.

لقد حكى لى والدى أنه عاش أربعة حروب، فقد كان يقوم بالحراسة فى معسكر
صرفند خلال الحرب العالمية الثانية.. وفى أثناء التحرير رحل مع المحاصرين من بن
شيمين ورأى أيضا بعض الانفجارات والدانات.. لقد أعطوا حرب التحرير الدامية
أهمية كبرى.. واعتبروا معاركها من أعظم معارك التاريخ.. وللسخرية فإن عاما
بأكمله من الحرب فى تلك الآونة لم يصل إلى خسائر معركة واحدة من معارك حرب أكتوبر.

إن الحروب تتطور وأنا خائف لقد سمعتهم يقولون إن شباب وأطفال منطقة القناة
قد جمعوا صواريخ مضادة للدبابات من طراز «ساجر» أما نحن فلم نمر بذلك أبدا..
وعلى أية حال فإنها مسألة وقت وإننى أعلم جيدا إننى مقتول فى النهاية.. تقولون
إننى قد قمت بما فيه الكفاية وينبغى أن أترك مكانى لآخرين ليكملوا الحرب.. إن ما
أعلمه جيدا هو إننى سأكون هنا فى الحرب القادمة، ومع ذلك يجب أن تصدقونى

عندما أقول إننى أكره الحرب.. لماذا لأننى قائد مدرعة.. ولأننى طحنت فى ثلاثة حروب وأصبحت لا أخاف كثيرا من الألغام وهذه ميزة لن يجدوها فى أى شئ آخر يرغبون فى تعيينه قائدا لمدرعة.

إننى أذكر أنه فى أثناء إحدى المراحل الأخيرة لخدمة الاحتياط التى قضيناها فى شرق الأردن - أن أرسلوا إلينا شابا ليلقى محاضرات عن طبوغرافية هذه المنطقة.. وكم كان هذا الجندى الإسرائيلى متحمسا حتى إنه فى وسط المحاضرة، ومن فرط الحماس، أخذ يحدثنا عن الحرب القادمة وكان يقول: «فى هذه المرة سوف نحتل دمشق» وتمالكت نفسى فى ذلك الوقت حتى لا أصفعه.. والغريب إننى رأيت اليوم بالذات هذا الجندى المتحمس هاوى الحروب الذى كان يلقي علينا محاضراته.. لمحته فى عربة جيب للاستطلاع فى نفس اللحظة التى وصلت فيها إلى المستشفى.. وذكرته بلقائنا الأخير ومحاضرة الطبوغرافيا.. وطلبت منه أن يلقي نظرة على الجرحى الراقدين ثم سألته عن ما إذا كانت الحرب مازالت تثير حماسه مثل الأمس.. وحينئذ زاغ بصره فى الأفق وظهرت عليه علامات الخجل.. من مثل هذه المشاعر وهذه التأثيرات تولد الاتجاه نحو السلام.

أما هذه القصة التى ننقلها على لسان أحد المقاتلين الإسرائيليين تروى لنا آثار المفاجأة على المدنيين فى إسرائيل أولئك الذين أرسلوا ذويهم إلى الحرب ظنا منهم إنهم سيعودون إليهم بالمجد وأكاليل الغار ويعيشون باقى حياتهم على ذكرى تلك البطولات... ولكن الحال تغير تماما فى أكتوبر ١٩٧٣ ولم يعد «الأبطال» إلى ذويهم، بل جاء ذويهم إلى الجبهة وخطوط وقف إطلاق النيران يبحثون عن الأبناء المفقودين ويلعنون هذا المجد الزائف الذى ضاع وضاع معه كل شئ... وننتقل إلى كلمات المقاتل الإسرائيلى كما كتبها بالضبط:

وصل عندنا فى الوقت الذى كان فيه الشمس تختفى وراء المباني، كان رجلا عجوزا ونحيف.. لقد جاء إلينا فى خطوات مترددة وعينيه تنظران إلى نعله البالى.. كان يرتدى بنطلونا مدنيا وسترة وكاسكيت من ذلك الطراز الذى يرتديه العمال الذين جاءوا إلى إسرائيل منذ ٥٠ عاما.. كان رؤيته غريبة فى هذا المكان رجل ظهر فجأة لاتعرف من أين، وجاء ليأخذ معنا الشاي التقليدى بعد وقف إطلاق النيران فى إحدى تلك الأمسيات الهادئة التى أعقبت تلك الحرب الرهيبة.

كنا قد أعتدنا هذا النوع من الزيارات، فقد كان يصل إلينا يومياً شخصاً من هذا الطراز، وكنا نعلم أنه لن يتكلم طوال الدقائق الطويلة، وأنه سيحترق مع الشاي الذي يشربه، وكنا نعلم أيضاً إنه سيفترش معنا الأرض الرطبة ويستمع إلينا نتكلم، ولقد كنا نعلم إنه جاء ليبحث عن ابنه المفقود في الحرب، ولم نكن نلوى عن شيء انتظارا منه أن يبدأ الكلام.. وها هو ذا يضع كوب الشاي على الأرض ويقطع الصمت قائلاً: «إنه شاي جيد»... ثم يسكت ليعود هامساً: «هل يعرف أحد منكم «أتراك»».

أما نحن فقد كانت لا تنقصنا الخبرة في هذه اللعبة البشعة، فأجبنا قائلين. عندنا لم يكن هناك أسرى ولا مفقودين، وليس عندنا في وحدتنا من يدعى «أتراك».

كنا نشعر بالحب لمثل هذا الرجل العجوز ونحاول أن نحى فيه الأمل تدريجياً، ومع أية حال فقد كان هناك عشرات من أمثال «أتراك» في كل كتيبة، وكان العجوز يعود قائلاً: معى صورة له أنظروا.. هذا هو أنا.. أما هذا الصغير فهو أتراك.

— لا.. لا نسرفه فهو ليس من كتيبتنا بالقطع.

— لا تؤاخذونى فأنا لا أتكلم العبرية جيداً.

— لا أهمية لذلك.

.. لقد جئت من بولندا.. و «أتراك» هو كل ما أملك في الدنيا.. والآن لم يعد هناك «أتراك».. لقد زرت معظم الوحدات وسألت عنه على أمل أن يكون أحداً يعرفه.. لقد كان قائد مدرعة.. ولكنى لا أعلم وحدته.. والآن بدون ماذا سأفعل أنا في هذه الحياة.. في الجيش البولندى كان هناك نظام...

وسألناه: ما أسمك؟

— اسمى الياهر.

وكنا نلاحظ إنه يحاول أن يخفى دمة.. دمة واحدة تتضمن كل عجز الدنيا.. الناس تصنع الحروب والطائرات والصواريخ، بل إنهم يذهبون إلى القمر... ولكنهم عاجزون عن العثور على «أتراك».

كان الجو بارداً، وأعطاه أحدهم معطفاً تركه أحد الجرحى، فشكرنا الرجل الحزين على كل ما فعلناه، وابتعد بخطواته الثقيلة متجهاً إلى مواجعتنا.

— ليس من هنا فهذه هي الحدود.. اتجه إلى اليمين.

— أنا لن أتجه إلا عندما أجد ابني «أتراك».

فى الخندق الذى أقيم فيه، وبالرغم من تعبى وإرهاقى، لم أعد أفكر إلا فى هذا الرجل العجوز «الياهو» الذى جاء إلينا يبحث عن ابنه «أتراك» المفقود فى الحرب.. إذا ارتفعت كل أصوات الآباء الذين فقدوا أبناءهم فى الحرب إذا ارتفعت تلك الأصوات كالسد المنيع مردهة.. لن نتحرك من هنا قبل أن نجد «أتراك».. فهل سيفهم المسئولون أخيراً أن الحرب حماقة كبرى؟

عدنا إلى تل أبيب فى طائرة.. ينظر أحد الجنود إلى المدينة عندما اقتربنا إليها فيرى الأنوار المبهرة لآلاف من الإعلانات فى أركان المدينة الأربعة، معلنة عن أطعمة أفضل، وفنادق مريحة وغسيل مذهش أو عن فيلم سينمائى.

ويعلم هذا الجندى أنه لن يجد فى تلك «الحفلة» مخبأً يبكى فيه، وخلال لحظات كثيرة يتمنى لو أن الطائرة التى تحمله عادت أدراجها إلى ميدان القتال فهناك يستطيع أن يجلس على هضبة صغيرة بين زملائه الأحياء والأصوات ويبكى ويبكى وسط كتل الحديد المتفحم ولكن الطائرة تنزل بين ضجيج المحركات لتنزل منها كتيبة المظلات فوق أسفلت المطار فى مواجهة المدينة الكبيرة.. ولكنهم يتعجبون داخل أنفسهم لماذا لا يسرعون إلى ديارهم؟ نحو أسرهم.. نحو إعلانات النيون.. نحو كل هذه الأشياء التى حاربوا من أجلها!

إنهم ليسوا على عجلة من أحدهم.. يقتربون حاملين أمتعتهم على ظهورهم.. يقتربون من عالم الأحياء بخطوات مترددة رتيبة.. يتبادلون السلام فيما بينهم.. وعندئذ تلتقى نظراتهم بطريقة يصعب عليهم التخلص منها.. إن الذكريات التى تبدو فى أعماق هذه العيون لن يستطيع، أن يحكوها لأحد.. لن يستطيعوا أن يحكوها لزوجاتهم.. ولا حتى أنفسهم.

إن الذى مات فيهم هناك لن يستطيعوا أن يتقاسموه مع أى إنسان آخر.

قَتْلُ الْخَوْفِ مِنَ السَّلَامِ!

سلام بلا حمائم

لم يكن حظ مصر بأقل من حظ إسرائيل فيما قدمته من قرابين لحروب مسعورة ومتتالية:

● حرب ١٩٤٨ (بجانب عدد من الدول العربية)

● حرب ١٩٥٦ (مصر وحدها)

● حرب ١٩٦٧ (مع سوريا والاردن)

● حرب الاستنزاف (مصر وحدها)

● حرب ١٩٧٣ (مع سوريا فقط)

قدمت مصر ما يقرب من مائة ألف شهيد، والاف الجرحى، وبعد أن كان الجنيه المصرى فى بداية الخمسينات يساوى جنيها استرلينيا وثلثا، تدهور الاقتصاد المصرى بشكل حاد - وأساسا بسبب هذه الحروب إلى أن وصل إلى حد الصفر قبل أكتوبر ١٩٧٣.

ومع ذلك كان يمكن أن يستمر هذا الاتجاه ويزداد العناد والتحدى لو لم تكن قد حققنا نصرا فى أكتوبر ١٩٧٣، لأن ما هو أهم بكثير من رغبة الخبز ومصانع الانتاج، هو هذا الكبرياء القومى الذى فقدناه بعد ١٩٦٧ واستعدناه فى ١٩٧٣ .. هو

الإسّاس الذى لا يمكن أن يحقق المجتمع أى إنجازات بدونه، وخاصة إذا كان مجتمع يختزن فى أعماقه قدرا هائلا من العراقة والكبرياء الإنسانى.

ومثلما كان السادات رجل نفسه عندما اتخذ قرار الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣، كان السادات أيضا رجل نفسه عندما اتخذ قرار السلام فى نوفمبر ١٩٧٧.. وكلا القرارين كان أهم أحداث التاريخ المصرى الحديث وكان لهما وقع الزلزال على أشخاص ومجريات المسرح العالمى.

لقد جاءت حرب أكتوبر على عكس إرادة الدولتين العظميين، وعلى خلاف كل التوقعات والحسابات الاستراتيجية وأكدت لدول العالم الثالث إنه يمكنها الاستقلال بارادتها فى هذا الاختيار المصيرى، وانتهت هذه الحرب بنصر مستحيل لم يتوقعه : أكثر الاصدقاء تفاؤلا، ولا أكثر الاعداء تشاؤما.. وكان أهم ماخرجنا به من هذه الحرب هو استعادة كبريائنا القومى الذى اهدر فى يونيو ١٩٦٧، والذى بدونه لا يمكن أن تستمر دولة فى الحياة.

صقور السلام

من هذا المنطلق فقط عادت إلينا الشخصية المصرية، وعادت إليها اصالتها الحضارية، وعلى عكس مايعتقد الجميع أن الحمائم للسلام، الصقور للحرب، فإن أحداث الشرق الأوسط أكدت أن الصقور وحدها فى أركان الحرب والسلام وأن الحمائم هى مجرد زهور زينة لا دور لها فى القرارات المصيرية من حرب أو سلام.

إذا نظرنا إلى حرب عام ١٩٦٧ فإننا سنجد أول نداء للسلام ينطلق من موشيه ديان وزير الدفاع الإسرائيلى وقتذاك، ولم ينطلق بهذا النداء الخطير الا بعد أن اجتاحت جيوش اسرائيل اراضى مصر وسوريا والاردن، وفى اليوم الذى استولت فيه اسرائيل على مدينة القدس.. يومها كان ديان فى اوج ساعات مجده واسرع إلى حائط المبكى بالمدينة المقدسة حيث أذرف دموعا كانت اساسا دموع نشوة وفرح وكتب فوق قطعة من الورق الأمنية التى يطلبها من الله تعالى وكان مكتوبا عليها (اللهم اجعل السلام من نصيب هذه المنطقة من العالم).

كان ديان وقتها فى أوج ساعات مجده، وذروة انتصاراته العسكرية فكان بالقطع قويا وسويا ومن ثم فإنه الاتجاه السوى السليم الذى يطليه . اتجاه السلام .

عجلة الزمان

ودارت عجلة الزمان ٦ سنوات كاملة وانتقلت مقومات النصر إلى صفوف المصريين وبعد ٦ أيام من انتصارات متوالية اذهلت العدو والصديق .. كان دور السادات أن يقف مزهوا شامخا فى ذروه مجده وانتصاراته العسكرية .. وقف الرجل ايضا قويا، وسويا يطلب السلام .. لم تكن هناك حمائم إذن فى الحرب أو السلام، ولكن صقور الحرب المنتصرة هى نفسها التى كانت تطلب السلام .

وقد يعتقد البعض أن هذا اتجاه غريب من جنرالات الحرب وقادتها ولكن هناك فرق كبير بين جنرالات وقادة الخيانة والسيوف الذين أتوا إلى كتب التاريخ والمتاحف العسكرية وبين جنرالات المعركة الحديثة بأسلحتها الآتية التى أضفت الليكترونيات عليها طابعا سحرى فجعلت منها قوة عنصرية هائلة تستنزف ارواح، ودماء اقتصاد اغنى الدول .

ان الحرب الحديثة بأهوالها وويلاتها جعلت من العسكريين الذين يخوضونها وهذا وجه التناقض - اشتد الناس كرها لها، وأكثر الناس رغبة فى السلام .. ولكن فقط عندما لا يكون هناك ما يخدش الكبرياء الذاتى الذى هو نواة الكبرياء القومى .

ولم يأخذ الإسرائيليون بنداء السادات بالسلام بعد الأيام الستة الأولى من الحرب، وعندما جاءت بعد ذلك معارك ثغرة الدفرسوار فقد جاءت لتؤكد للجانبين ضراوة الحرب الحديثة وضرورة السلام، فقد كانت الخسائر فى هذه المعركة بالذات أكثر من خسائر الحرب كلها .

وكان هذا بمثابة سيناريو عاقل هادف تدبره قوة قدرية معينة لتحقيق السلام بين ألد عدوين فوق الكرة الأرضية .

وعندما كانت مصر تحارب لم تكن هناك مشاكل من أى نوع مع اشقائنا العرب وحتى عندما كانت تتوالى عليها الخسائر والهزائم التى كان يمكن أن تقضى تماما

على أى دولة أخرى.. لم تكن هناك أيضا أى مشاكل مع العرب... ولكن مع نداء السلام كانت - وللعجب - كل أنواع المشاكل.

لقد كان السلام اتجاها مختلفا يخرج بالمنطقة عن اطار الغو غائية التى عاشت فيها عشرات السنين، وجريئا يحتاج إلى رجل لا توصف شجاعته يقف وحيدا أمام ١٠٠ مليون من بنى امته يعلن عليهم ما يراه صوابا رغم إنه يغاير تمام ما يدور فى عقولهم. لو كان الخوف رجلا لقتلته

لم يكن هناك غير هذا الرجل الذى وقف يوما ما يقول.. «لو كان الخوف رجلا لقتلته»، كان هذا النمط من الرجال، وهذا النمط من التفكير، هو بالضبط ما يحتاجه الرجل الذى سيطير إلى عرين الخصم ويقف أمام الكنيست يذكرهم بحرب أكتوبر وإنه جاء اليهم بهامة تحلق فى السحاب، ولم يكن راكعا أو متوسلا.. فكان سلام أقوىاء وعقلاء لا يشوبه أى ضعف أو استسلام..

لم يكن سلاما بالوسائل الميكانيكية كما سماه البروفيسير بوفول مؤسس علم البوارلاجى «علم البحث فى أساليب ونتائج الحرب» ويقصد به السلام الذى تنشده منظمة الأمم المتحدة التى تقف بإمكانيات محدودة لتحقيق هذا الهدف السامى، والتى لم يساندها مؤسسوها كما ينبغى.

المنظمة الدولية بلا أسنان

إن الجمعية العامة التى هى أساس منظمة الأمم المتحدة، هى هيئة استشارية وليست تشريعية، وبالتالي فإن توصياتها ليست ملزمة وكثيرا ما ضرب بها عرض الحائط علنا وتكرارا كما اعتادت أن تفعل اسرائيل، كذلك فإن قراراتها تأتى أحيانا بعيدة عن المنطق والعدل، وبناء على المصالح والاتصالات الدولية، كما أن حق الفيتو الذى تتمتع به الدول الخمس الكبرى يؤدي أحيانا إلى الارباك بل والظلم أيضا فى مجلس الأمن.

وفوق كل هذا فإن منظمة الأمم المتحدة تفتقر إلى الوسائل المباشرة التى تمكنها من تنفيذ قراراتها إذا ماتطلب الأمر ذلك، كما أن قواتها العسكرية اختيارية فقط، يشترك فيها بصفة عامة عدد من الدول الصغرى بما يترتب على ذلك من نتائج عشوائية ومشاكل لا يمكن حسابها، وبالتالي فإنها منظمة «بلا أسنان».

ولعل الصراع العربى الإسرائيلى كان من أبرز المشاكل التى لم تلعب فيها الأمم المتحدة دوراً فعالاً، ومن بين المشاكل الأخرى حرب الجزائر سنة ١٩٥٤، والحرب الفيتنامية الأولى مع فرنسا، والثانية ضد الأمريكيين، ومشكلة برلين عام ١٩٦٠ ومشكلة كوبا سنة ١٩٦٢، ومشكلة الأردن ولبنان سنة ١٩٥٨، وغزو السوفيت للمجر سنة ١٩٥٦، وغزو السوفيت لتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨، كما أنها لم تلعب أى دور فى الخلافات العالمية الكبيرة مثلاً الخلاف بين إنجلترا والارجنتين حول جزر فوكلاند، والخلاف العالمى الحالى حول حقوق الصيد فى المياه الإقليمية، ومشكلة قبرص، والكونجو البلجيكي، وجنوب افريقيا... إلخ..

صراعات ومشاكل كثيرة لم تفعل الأمم المتحدة حيالها شيئاً ومع ذلك فإن العرب مازالوا يتمسكون بها ويحجمون عن الاقتراب المباشر لحل مشاكلهم رغم المتاهات الهائلة التى دخلوا فيها بسبب تفسير قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ .

لم يكن السادات لينتظر حتى يغير العالم من منظمته الدولية ويجعل منها أداة نشطة وفعالة لحل النزاعات الدولية.. لم يكن لينتظر هذا واستقل طائرته متجهاً إلى عرين الخصم وخاطب المجتمع الإسرائيلى، ومن ورائه العالم مباشرة، ومن هنا فإن السلام الذى توصلنا إليه كان من نوع خاص لأنه جاء نتيجة اقتناع كامل من الجانبين.. وهاهو السادات يلقى استقبال الأبطال فى إسرائيل بين دموع وأفراح كل طوائف الشعب الإسرائيلى، ثم هاهو يعود إلى القاهرة فتخرج عن بكرة أبيها دون تنظيم أو تخطيط، تنقل إليه رسالة معلنة: «إننا معك ولقد قمت بما ينبغى القيام به».. بعدها أصبح الرئيس ضمير الشعب وزعيماً يستشعر رغبات الأغلبية من بنى وطنه ويقوم بتحقيقها.

مصر والاختيار العسكرى

ولذلك فإنه إذا كان البروفسير بوقول يقول فى كتابه الشهير «٨ آلاف معاهدة سلام» إنه خلال الأربعة آلاف سنة التى سجلها التاريخ الإنسان تم توقيع معاهدة سلام بمعدل كل ستة أشهر تقريباً وأن أى منها لم تؤد إلى سلام بين الاطراف المباشرة للمعاهدة إذا كان التاريخ يقول لنا ذلك، فإن الحاضر والمستقبل شيئاً آخر، لأن الحاضر

بما يطويه من مخاوف من الحرب الذرية - التي اشرفت عليها منطقة الشرق الأوسط . بل ومن الحرب التقليدية كما شرحناها فى الأجزاء السابقة من هذا الكتاب وبما وصلت إليه من قدرة هائلة على التدمير تقترب من الاسلحة الذرية المحدودة .. هذا الحاضر يفرض السلام فرضا على العقلاء ولاشك أن المستقبل سيكون أكثر تطلبا لهذا الضرورة الملحة .

وبعد ذلك يظل سؤال هام : هل خرجت مصر من اطار الصراع المسلح وهل فقدت الاختيار العسكرى .

لو فعلت مصر ذلك فمعناه أنها تعيش فى خيال مثالى لا يتماشى مع وقائع الحى التى نعيشها ، ولا يتواءم مع روح العصر الذى نحياه .

إن استراتيجية السلام التى تتبعها مصر يمكن القول إنها تقوم على المثل الرومانى الشهير . « عندما تعمل للسلام استعد للحرب » وعلى ذلك فإن مصر تواصل تسليحها ، الشرق والغرب سعيا لتوفير احدث الاسلحة لقواتنا المسلحة مع تنويع مصادرها ؛ الدرس المرير الذى لقنه لنا السوفييت .

إن مصر السلام مازالت تقطع جزءاً كبيراً من قوت ابنائها لتدعيم قواتها بالاسلحة المناسبة والقادرة على ردع أى مغامر فنحن لم ننفصل عن الواقع ونعلم تم مايجرى حولنا بل إننا من واقع خبراتنا العميقة فى هذا المجال ، استطعنا أن نقنع الا بوجهة نظرنا فى الأحداث ونلفت انظاره إلى المناورات والنفاقات التى غابت أذهان الدول الكبرى .

وإذا كان المفكر المسكرى الشهير كلاوزفتر قال مبدأه الذائع « إن الهجوم هو وسائل الدفاع » فإن روح العصر وتجربة أكتوبر ٧٣ تؤكد أن حقيقة أخرى مؤداها السلام المتكافىء هو خير وسائل الدفاع ، صحيح أن الانجاز الأول حققناه بالسلح بعد اقتحام قناة السويس بالقوة العسكرية المسلحة ، ولكنه صحيح أيضا أن الا أعاد لنا باقى أراضى سيناء بالدبلوماسية القوية التى تركز على إنجاز عسكري الطراز الأول أعاد لنا هيبتنا على مستوى العالم - وأهم من ذلك أعادت لأنفسنا والاحترام لم تكن رحلة أو نزهة ولكنها ملحمة طويلة من الصراع العس

والدبلوماسية والفكرى.. صراع لن يتوقف لأن الصراع هو جوهر الحياة.. صراع لا يتوقف باختفاء القادة والزعماء الذين قادوه حقبة معينة من الزمان - كما حدث بعد استشهاد أنور السادات - ولكنه يستمر من خلال أبطال وقادة جدد، يستمر طالما استمرت الحياة.

الشجعان والصقور!

قافلة الشجعان

سر الشجاعة الإنسانية هو من بين تلك الأسرار الغامضة فى الحياة وبشكل عام منذ بداية الوجود الإنسانى وحتى يومنا هذا لا أحد يعرف على وجه الدقة ما الذى يجعل من بعض الناس شجعانا وعمالقة؟ وما هذا الذى ينقص المرتعدين والاقزام؟ فى ذلك يقول لنا علم النفس «إن الشجاعة هى تلك القدرة المميزة التى تجعل الإنسان الفرد قادراً على التغلب على الخوف والرعب الذى يدهم الإنسان العادى ويقعده عن الحركة والعمل» وفى أغلب الأوقات فإن أولئك البشر الذين يظهرون قدراً هائلاً من المناعة والحصانة عند مجابهة المواقف المثيرة للخوف - هم أولئك الذين تتميز شخصياتهم بقدر كبير من البساطة، وليسوا بالضرورة أولئك الذين يتخيلهم العامة كشخصيات بطولية!!

وإذا ما تركنا العامة تتصور ما تشاء، طالما كانت بطبيعتها تعزف عن التعمق فى طبيعة الأشياء بحثاً عن الحقائق والإجابات الشافية، فإن الشجاعة لا تعنى أبداً عدم ممارسة الخوف ولكنها تعنى فى المقام الأول إن من يتمتعون بهذه الخاصية هم نوعية خاصة من البشر قادرة على مجابهة كل الأخطار رغم الخوف الذين يشعرون به كسائر البشر. وعلى أية حال فإن ظاهرة الشجاعة هى من الظواهر المركبة إلى الحد الذى يستحيل معه الشرح أو التعريف عن طريق نظرية واحدة بسيطة من نظريات علم النفس. وقد يكون من ضرب المحال أن نتنبأ بسلوك إنسان معين فى حالة الأزمات ووقتها فقط نستطيع أن نرى رد فعل هذا الإنسان، وذلك لأن عوامل كثيرة ستتفاعل عند هذه اللحظة من الزمن.

والكثير من هذه العوامل يكمن فى عقلنا الباطن الذى يقوم أساساً على تجارب الماضى، والقيم الإنسانية واحتياجات المرء، ونقاط القوة والضعف فى شخصية الإنسان.. وبايجاز تام يمكننا القول إنه فى لحظة الأزمات والمواقف الصعبة تتركز وتتبلور كل مكونات الإنسان الفرد... فتلك هى لحظة الحقيقة التى يكتشف فيها الإنسان ماهيته وطبيعته... وهنا - فى معظم الوقت - تكون المفاجأة الكبرى؟.

وليعدرنى القارئ لهذا المدخل الطويل ولكننى لم أجد غيره مدخلاً للتحدث عن عملية السلام فى الشرق الأوسط والذى وافق بعد سنوات على توقيعها من كل من الزعيم المصرى الراحل انور السادات ورئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجين والرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر... المعاهدة التى غيرت - كما يقول الكاتب الأمريكى ويليام كوانت - جذور الخريطة الاستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط.

فى هذا اليوم كنت هناك فى واشنطن وداخل البيت الأبيض الأمريكى حيث تمت مراسم التوقيع داخل حديقة هذا المقر لرئيس أقوى دولة فى العالم.

واتذكر جيداً هذا الهرج والصراخ الذى كان يدور خارج أسوار البيت الأبيض الأمريكى والمظاهرة الرخيصة التى كانت تهتف «بالخيانة» وبيع القضية وتحول الصراخ إلى نوع من عويل النساء العاجزات فى الوقت ذاته، وهنا اتذكر جيداً كيف ابتسم السادات بمرارة وامسك بالقلم ووقع على الاتفاقية التاريخية وهو يدرك تماماً أنه يفتح الهويس لمجرى التاريخ وتياره الذى لا يمكن أن يقف أمامه إنسان، أو مجتمع أو حتى دولة بأكملها.

كنت أقف فى هذه اللحظة داخل حديقة البيت الأبيض الأمريكى أشعر تماماً بحسم اللحظة ووطأة تاريخ طويل، وحاضر عنيف ومستقبل رحب ممتد، وبعد أن وقع السادات المعاهدة كان يقف بجوارى المهندس عثمان أحمد عثمان وحسن كامل وزير رئاسة الجمهورية فى ذلك الوقت وكلاهما لا يعرفاننى - ولا يعرفاننى حتى يومنا هذا - وظناً أننى أحد الأجانب الذين لن يفهموا ما يقولانه باللغة العربية... وإلى يومنا هذا مازالت ترن فى أذنى كلمات اثنين من أقرب الناس إلى الزعيم الراحل.... قال أحدهما «لا اتذكر أيهما»: «مش ممكن... مش ممكن يكون فيه راجل فى العالم كله

بالشجاعة دى، ورد عليه الوزير الآخر: «ده خرافه... ده مش لحم ودم زينا ده حاجة ثانية خالص.. كنت أقف بجوارهما صامتا طوال هذا الوقت ولم أرد أن أظهر لهما أنني مصرى مثلهما وأفهم وأشعر تماما بما يقولانه... وربما كانت هذه هى أول قصة أنشرها فى حياتى الصحفية دون أن استأذن صاحبها.. فمعذرة لكليهما مع كامل التقدير.

أردت هنا فقط أن أقول أن المخاوف كانت موجودة فى ذلك اليوم، مثلما كانت موجودة بالقطع يوم أن استقل الرجل طائرته وهبط بها فى مطار بن جوريون... المخاوف لا بد وأنها كانت موجودة ولكن كانت هناك أيضاً تلك الشجاعة الإنسانية التى تستطيع وحدها هزيمة المخاوف والإنطلاق إلى آفاق المستقبل.

وقد كان كل هذا يمكن أن يندثر وتندثر معه مصداقيتنا أمام العالم كله - وأسوأ من هذا أمام أنفسنا - إذا ما كان الرئيس الذى جاء بعد السادات لا يتمتع بنفس القدر من الشجاعة فاستطاع أن يلتزم بما تعهدنا به أمام العالم كله وأن يعمل فى صبر وثقة وبهدوء شديد على ترسيخ عملية السلام وإضفاء طابع الاستمرارية - الذى كان يخشى عليه الجميع - وكما قلنا فى بداية هذا المقال عن ارتباط الشجاعة بالبساطة فكم كان الرئيس مبارك بسيطاً ومؤثراً خلال حديثه مع مجموعة من الصحفيين الاسرائيليين، وجاء أحدهم يسألنى كيف استطاع السادات أن يكتشف مبكراً مميزات الرئيس مبارك؟ فأجبت عليه دون تردد: «لأنه أثبت شجاعة هائلة وقدرة على مواجهة الأخطار والمخاوف... وعلى وجه التحديد يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ بشجاعة الرجلين معا... وعدد آخر من القادة حسمنا حرب أكتوبر فى هذا اليوم لصالحنا.... وبدأت الخريطة القديمة كلها تتهاوى بلا رجعة».

معذرة مرة أخرى فلا يمكن أن نتحدث عن السلام دون أن نتذكر الحرب ومن تجربتنا هنا وهى تجربة غنية حقاً فلم يحدث أن خاضت دولة غمار ستة حروب فى غضون خمسة وعشرين عاماً «بمعدل حرب كل أربعة سنوات» غير مصر... بل إنه فى إحدى هذه الحروب كانت مصر تقف وحدها فى الميدان أمام بريطانيا العظمى وفرنسا الكبرى واسرائيل، ولذلك فإن لدينا الكثير من الخبرات فى هذا المجال ومن أولى هذه الخبرات أن المقاتل الجيد هو أكثر الناس حباً للسلام وأن شجاعته تظهر

واضحة في كلا المجالين ومن أعجب ما شاهدناه في هذا الإطار أن أولئك الذين لم يحسنوا الأداء في الحرب تجدهم أشد الناس كرهاً للسلام... وتجدهم يسمعون لحرب جديدة كما لو كانوا يريدون أن يعرضوا إخفاقاً شخصياً ولو على حساب المجتمع والدولة بأكملها... وهم لا يعرفون ولا يدركون أن إعادة سيناريو الأحداث معناه إعادة نفس الأداء وإن خداع النفس هو أسوأ أنواع الخداع.

لذلك كله فقد رأينا أن صقور الحرب هم أنفسهم الذين يصنعون السلام لهم وحدهم يملكون الشجاعة والقدرة على إتخاذ القرار وتحريك الأحداث وفي هذا الإطار رأينا من الجانبين المصري والإسرائيلي أكبر وأكفأ القادة العسكريين يشتركون بحماس شديد في عملية السلام بين البلدين بل إن اللجنة العسكرية المشتركة بين مصر وإسرائيل تؤدي عملها بحماس ملحوظ وتتعدى كل العقبات بشكل لا يتصوره أحد في سبيل تحقيق السلام، وعلى الجانب الآخر فقد كانت الاجراءات تتعثر بعض الشيء وتستغرق وقتاً طويلاً مع الدبلوماسيين ورجال الماون من البلدين.

ومع ذلك فلا يمكننا أن ننسى رجالاً لم يعرفوا القتال يوماً ولكن كانت شجاعتهم وقدرتهم على تصور الأمور في إطارها الصحيح على درجة عالية من الفاعلية والتأثير وفي مقدمة هؤلاء كان ولا بد أن نرى الكاتب العملاق نجيب محفوظ فمن يمكن أن يكون أكثر إنسانية من أديب فيلسوف على هذا القدر من العمق في المعرفة والطبيعة الإنسانية.

ولا يمكن أن ننسى رجلاً من طراز آخر هو المهندس مصطفى خليل الذي ما أن سمع عن قرار السادات بالتوجه إلى قلب إسرائيل حتى أرسل برقية إلى الرئيس المصري يطلب منه أن يكون معه في نفس هذه الرحلة التي كانت تعتبر مخاطرة جسيمة في ذلك الوقت.. لم يكن هناك ما يدعو الرجل لهذا العمل اللهم إلا إحساسه بالمسئولية وبالشجاعة الكافية لقهر الخوف الذي عاش الكثيرون في احضانه سنوات طويلة.

وهناك الكاتب الصحفي الكبير لطفى الخولى الذى تصدى بشجاعة مسانداً لحركة السلام وصمد بشموخ أمام صغائر البعض وتهديدات من اسماهم بالجالسين على

الرصيف السياسى والحالمين بواقع غير الواقع الذى نعيش فيه فى نهاية القرن العشرين .

وفى الحقل الدبلوماسى هنا كثيرون أيضاً يأتى فى مقدمتهم - فى رأى السفير سعد مرتضى أول سفير لمصر فى اسرائيل والذى تطوع لشغل هذا المنصب الخطر فى وقت كان فيه المرتجعون يهددون بقتل وسفك دماء كل من يشترك ويساعد فى عملية السلام.

أسماء الشجعان كثيرة والحمد لله فى مصر.. شجعان استطاعوا أن يقهروا المخاوف التى عشنا فى فلها سنوات طويلة وبذلك استطاعوا أن ينجوا من العجز والشلل الذى يصيب المرتجفين ويقعد حركة التاريخ.

إن عملية السلام نجحت بفضل كل الشجعان الذين ساهموا فيها من هنا وهناك... نعم فقد كان هناك شجعان على الجانب الاسرائيلى كان على رأسهم أيضاً صقور الحرب من أمثال ديان ووايزمان ورابين وابراشا شامير إلخ. وأعضاء حركة السلام الآن «وكلهم من رجال الاحتياط، وذلك على عكس المرتجفين أيضاً داخل المجتمع الاسرائيلى من أمثال حركة «جوش امونين» ومعارضى الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة وآخرين على قمة الادارة الاسرائيلية.

وحتى الآن فإننا لم نذكر أشجع الجميع الذى استطاع فعلاً أن يطلق العنان لرياح التاريخ فامتألت الاشرعة وتحركت القافلة إلى الأمام... أشجع الجميع هو أكثرهم عقلاً وحكمة وصمتاً.. هو الوحيد الذى كان يخشاه السادات وقرر أن يتفادى مقابلته بعد العودة من الرحلة إلى اسرائيل ولذلك قرر أن يهبط بطائرته فى إحدى القواعد الجوية القريبة من بلده ميت أبو الكوم، ولكن الرئيس مبارك اتصل به لاسلكياً فى الجو وطلب منه ضرورة المجيء إلى القاهرة... القلب النابض لهذا الكيان العملاق الذى كان يخشاه السادات... وعندما وصل الرجل متحلياً بالشجاعة مرة أخرى... فوجيء بأن الشعب المصرى ذلك الكيان العملاق الشجاع خرج عن بكرة أبيه - لأول مرة بمحض إرادته الحرة - فى الشوارع والشرفات يهتف ويصفق وبحسم حركة السلام....

ومرة أخرى نذكر بالعلاقة بين البساطة والشجاعة والبطولة الحقيقية، فالشعب
المصرى معروف ببساطته المتناهية.

حتى آخر مليمترا

نعم... إن مساحة طابا على الخريطة لا تتعدى مليمتراً واحداً، ولكن الأحداث وتطوراتها منذ عملية السلام بين مصر وإسرائيل دفعت بإسم طابا دفعاً إلى مسرح الحياة السياسية والمصالح الوطنية العليا. ويهمننا هنا أن نقول إن المصلحة الوطنية هي عبارة جادة وضخمة وعملية قد يصعب تحديدها بكل دقة وموضوعية إذا ما تعرض صاحب القرار - أو خضع - للانفعالات العاطفية والمشاعر الملتهبة الساخنة التي يتميز بها سكان منطقة الشرق الأوسط، ولكن في جميع الأحوال فإن علم السياسة الحديث يؤكد أن المصلحة الوطنية لأي دولة هي ذات ما تقررته تلك الدولة من خلال عملية صنع القرار السياسي.... ومن هنا فإنها عملية قيادية تعتمد إلى درجة بعيدة على طبيعة وشخصية صانع القرار.

وفي مجال سياسات الدولة بشكل عام، فإن عملية تحديد المصلحة القومية حول أي مسألة كبيرة هي حقاً وبكل صدق عملية صعبة ومعقدة بل وبالغة الحساسية لأنه ينبغي في هذه الحالة على القادة وصناع القرار أن يوفقوا بين مصالح مختلفة ومتعددة، بل وقد تكون مصالح متضاربة داخل الدولة الواحدة ويزيد من صعوبة هذا الموقف الشائك أن يكون المجتمع صاحب القضية متعدد الميول ويتمتع بكامل حرياته الأساسية في إطار أنظمة الحكم الديمقراطي. وفي ذلك لا ننسى عبارة قالها أحد السياسيين الأمريكيين القدامى تقول: «في البلدان الديمقراطية ترفض الغالبية العظمى من المواطنين الانتظار إلى ما بعد إنتهاء المباحثات أو ظهور نتائج السياسات التي

تتبعها الدولة، كذلك تطالب تلك الغالبية العظمى بمعرفة كل ما يجرى وتوفير كل الفرص لهم للإعراب عن رأيهم فى جميع المراحل الحساسة والحرجة التى تشملها العملية الدبلوماسية» .

هذا عن المجتمع الديمقراطى الذى مارس هذا النمط من نظام الحكم والسياسة لفترات طويلة قد تمتد إلى بداية تاريخ الدولة ذاتها، ولكن إذا ما كان المجتمع يمارس الديمقراطية لأول مرة بعد سنوات طويلة طويلة من الحكم الشمولى والقمع أو الحكم الدكتاتورى أو أى شكل من حكم الفرد الواحد بدون أى مؤسسات تؤازره أو تعارضه، فإنه فى هذه الحالة تصبح العملية السياسية كلها وعمليات تحديد المصالح الوطنية وعملية صنع القرار... كل هذا يصبح على درجة هائلة من التعقيد والصعوبة فالمجتمع الذى حصل على حرياته حديثاً - مثلما يحدث الآن عندنا - يمكن أن يهدر كاشلالات العنيفة سنوات طويلة قبل أن يهدأ ويتمتع باستقرار وراحة النظام الديمقراطى.... هذا النظام الذى أصبح حتمياً فى مصر بعد أن أعلن الرئيس مبارك مراراً تمسكه بالتجربة الديمقراطية رغم كل التجاوزات والممارسات التى لا تصدق من جانب بعض أجنحة المعارضة حتى فى أخرج المواقف التى قد تمس الأمن القومى والمصلحة العليا لمصر.

وأذكر هنا أن زارنى يوماً صحفى أجنبى وشاهد أمام مكتبى مجموعة من صحف المعارضة وطلب منى أن أترجم له ما نشرته بعض هذه الصحف من منشآت كبيرة باللون الأحمر الذى يستهوينى «كما أشار لأول مرة شاعرنا الكبير نزار قبانى»، وبعد أن فرغت من الترجمة بكل أمانة قال لى الزميل الذى يعمل فى دولة عرفت الديمقراطية والحريات طوال تاريخها: «إن هذه الصحف لا يمكن أن تصدر فى بلدى، وإن كل هذه الكتابات ليست من قبيل حرية الصحافة فى شىء ولكنها عملية تحريض بالدرجة الأولى يعاقب عليها القانون بكل حزم وصرامة» .

وإذا ما طبقنا تلك المبادئ العامة السالف ذكرها عن المصالح الوطنية على مسألة طابا، فإن صانع القرار خلال هذه الأزمة هو بلا شك الرئيس مبارك الذى أدار هذه العملية منذ عام ١٩٨٢ وحتى إنتهت، وإنعكست على وسائل الإدارة والمعالجة وصنع القرار - فيما يختص بأزمة طابا - الطبيعة والصفات الشخصية للرئيس الهادى الذى

نعرف عنه الصبر إلى أقصى حد، والصمت، والبعد تماماً عن الميول الاستعراضية، وهدوء الأعصاب، وقدرة حقيقية على الانتظار حتى يأتي التيار - كما يقول المثل الصيني - بجثة عدوك يوماً ما.

إن أزمة طابا لا بد وأن تحتل فصلاً هاماً من فصول تاريخنا القومي وإذا كان التاريخ، كما يقولون، هو تمهيد للمستقبل، فإن المستقبل بذلك لا بد وأن يكون نهجاً من إمعان العقل، والاعتزان، والعصرية والبعد تماماً عن الانفعالات والتشنجات التي لم تأت إلينا إلا بالخراب والتدهور.

في هذا الإطار وخلال أزمة طابا خرجت بعض أجنحة المعارضة وبطريقة فجأة، كما لو كانت اكتشفت «خيانة عظمى» لتصب إنتقاداتها على الحكومة وسياساتها فيما يختص بعملية السلام...

كانت الأمور أقرب إلى الشماتة، وتصفية الحسابات، ومحاولات التجريح المؤلم أقرب منها إلى الحرص على المصالح القومية والتراب الوطني، وفي ذلك، وكما تشهد أرشيفات دور الصحف، خرجت علينا بعض صحف المعارضة بقصص ساذجة عن الأوضاع في طابا أقرب إلى أساطير ألف ليلة وليلة. وبين يوم وليلة أصبحت تلك الرقعة من الأرض التي تطل على ساحل خليج العقبة بمواجهة طولها ٩٦٢ متراً قد أصبحت فجأة هي المفتاح السحري للماضي والحاضر والمستقبل وهي الأرض العربية من الخليج إلى المحيط، وذلك رغم أنه كان هناك ١٤ موقعاً مختلفاً عليها بين مصر وإسرائيل وكان بعض هذه المواقع أكبر وأخطر بكثير من موقع طابا مثل علامة الحدود رقم ٨٥ «٢٣٧١ متراً» وعلامة الحدود رقم ٨٦ «١٧٤٠١ متراً» وعلامة الحدود رقم ٨٧ «١٦٥٥٠ متراً»؟؟.

مبالغات ومبالغات لم يكن لها أي فائدة عملية اللهم إلا محاولة البعض في الجانب الآخر استغلالها للضغط على المفاوض المصري، ومن أغرب ما حدث في هذا المضمار أن مراسلي الصحف العربية في القاهرة وقبل عودة العلاقات بين مصر والعرب كانوا يكبرون ويضخمون من أزمة طابا إرضاء لمن استوظفهم حتى إن أحدهم كتب لإحدى صحف الخليج عن معارك وهمية نشبت في طابا وسيناء...

ووصل الحد إلى نشر قصص بهذه الصحف عن معارك جوية بين طائرات القتال المصرية والاسرائيلية! وقصة أخرى عن بناء فندق ثان في طابا! وذلك ضد كل قواعد الأمانة الصحفية في محاولة رخيصة لإرضاء المسؤولين عن هذه الصحف. وكم كان موقف هؤلاء مخزياً بعد عودة العلاقات بين مصر والدول العربية... وكم كان موقفهم أكثر خزيًا بعد الأخذ بإتجاه السلام كحل للمشكلة الفلسطينية.

ويقول علم السياسة الحديث إن البقاء المادى للأمة أو الدولة يأتي على رأس المصالح الوطنية لهذه الدولة، وتأتى فى المرتبة الثانية السيادة على التراب الوطنى وتوفير الأمن لمختلف أراضي الدولة... وتأتى بعد ذلك مصالح وطنية كثيرة ولكن بالطبع فإن هذه المصالح ليست متساوية من حيث الأهمية بل إن بعضها قد يكون غير صحيح أو مبالغاً فيه، لذلك فقد لاحظ المفكرون السياسيون أن هناك إسرافاً - وخاصة بين دول العالم الثالث - فى استخدامات وتعريف «المصالح الحيوية»، ومن هنا فإن تلك المصالح ينبغى أن تقتصر على تلك الأمور التى إن تعرضت لأى مساس فإن الدولة تهب فوراً للقتال والحرب دفاعاً عن بقائها وكيانها. وقد مارسنا هذا الموقف ذاته فى مصر خلال السنوات الأخيرة عندما نهضنا فى عملية هجومية من الدرجة الأولى سبق تخطيطها بعناية فائقة واقتحمنا خلالها قناة السويس وخط بارليف فى إطار عمليات حرب أكتوبر ٧٣... أولاً لاسترداد الأرض المحتلة... وثانياً «وهو الأهم فى رأى». لاستعادة هيبة الدولة والكرامة الوطنية، كذلك مارسنا نفس هذا الموقف الجاد والخطير عندما أعلنت مصر على لسان رئيسها إنها لن تسمح أبداً بالعبث بمياه النيل وإن أى عبث فى هذا الشريان الرئيسى للحياة - معناه الحرب فوراً.

ومما لا شك فيه أن هناك علاقة قوية بين قوة الدولة ومصالحها الحيوية، فقد تكون الدولة من القوة بحيث تمد مصالحها الحيوية إلى أرجاء بعيدة فى العالم لا تمتلكها أصلاً، والعكس صحيح تماماً، كذلك قد يحيط سوء الفهم وسوء تقدير النتائج بهذه العملية الحساسة كما يحدث فى بلدان كثيرة بمنطقة الشرق الأوسط والعالم الثالث عندما تعقد إحدى الدول حلفاً أو تحاول استعراض قوتها بأن تعلن تلك العبارة الشهيرة أن أى عدوان على دولة معينة هو عدوان علينا، فى ذلك يجدر بأصحاب مثل هذا

القرار أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال الهام: لماذا يزجون ببلادهم إلى حرب دفاعاً عن دولة أخرى قد تكون هي الدولة المعتدية أو دولة صانعة اضطرابات كما حدث بمنطقتنا في الماضي القريب، وما زال يحدث حتى يومنا هذا.

من هذا المنطلق فإن أسلوب إدارة أزمة طابا كان أسلوباً مختلفاً بالمرّة.... أسلوباً جديداً تماماً على المنطقة أسلوباً متحضرأً أبتعد تماماً عن الانفعالات التي هي في الحقيقة مظهر مؤكد للعجز والضعف البشري.... في البداية اتفقت عملية الإنسحاب النهائي للقوات الاسرائيلية في سيناء وإعتبرنا منطقة طابا و ١٤ منطقة أخرى على الحدود بين البلدين كانت عبارة عن «مناطق مختلف عليها» ثم لجأنا إلى التحكيم بإصرار من الرئيس مبارك بدلاً من مبدأ التوفيق الذي رفضه الرئيس تماماً خلال إدارته الصامتة الهادئة لتلك الأزمة، وكان أن صدر الحكم لصالحنا مؤكداً حقنا في السيادة على أرض طابا و ١٠ مناطق أخرى من الأراضي المختلف عليها ودخلنا في مفاوضات التعويضات المالية عن الفندق والمنشآت السياحية بالمنطقة وإتفقنا على كل شيء بما في ذلك إمتداد خط الحدود من العلامة «٩١» على استقامته إلى ساحل خليج العقبة، ثم كان ان أعلنت اسرائيل قرارها بالإنسحاب من هذه المنطقة يوم ١٥ مارس ١٩٨٩، وبذلك يكون الموقف وأسلوب الحل الذي إتبع في طابا مختلفاً تماماً عن أسلوب الحل الأهوج الذي إتبع شمالاً في «ياميت» حيث قامت بلدوزرات إسرائيل بهدم المنشآت وكل شيء حتى لا نستفيد منه.. رغم أن مصر عرضت تعويض إسرائيل بقيمة هذه المنشآت.

وعلى أية حال نعود إلى علم السياسة الحديث الذي يتسم بكثير من البرجمانية التي تعترف بأنه لا يمكن لأي دولة أن تتمسك... بجميع مصالحها الحيوية في جميع الظروف، وأنه عندما تتعارض مصالح دولتين وتتفاقم الأوضاع إلى حد الخطر فإن الحل العاقل هو التوصل إلى حل سلمي وسط لأن القوة التدميرية التي تتميز بها الآن أسلحة القتال الحديثة جعلت من السلام ذاته مصلحة حيوية لأي دولة... مصلحة يجب الحفاظ عليها بكل قوة.

وهنا يجمع جميع المراقبين العسكريين والمعاهد الاستراتيجية الدولية بل وتصريحات القادة المصريين أنفسهم أكثر من مرة - على أن مصر وقواتها المسلحة

الآن أقوى بكثير جداً مما كانت عليه في أكتوبر ٧٣ أو في أى وقت مضى - ومعنى هذا أننا طوال الفترة التي أدارها خلالها مصر أزمة طابا، لم تكن نتفاوض أبداً من منطلق الضعفاء أو المستسلمين، ولكن من منطلق حضارى واقعى يدرك حقيقة الأوضاع وأبعاد الحرب الحديثة التي للأسف لا يعي حقائقها وأبعادها إلا العسكريون المحترفون وأولئك الدارسون المهتمون بالشئون العسكرية والاستراتيجية.

وفي ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن الرئيس مبارك هو واحد من أفضل القادة العسكريين الذين أنجبهم مصر، وتدرج في حياته العسكرية من رتبة الملازم إلى رتبة الفريق محافظاً على أدائه المتميز طوال هذه الفترة ومختتماً حياته العسكرية بأول نصر عسكري على إسرائيل، بل وقائداً للقوات التي جابهت عنصر القوة الأول الذي تعتمد عليه إسرائيل. وفي معركة طابا استطاع مبارك أن يحقق الهدف المستحيل كما يقول المفكرون الاستراتيجيون عندما استعاد أجزاء من أرضه وتجنب في الوقت ذاته الحرب أو مجرد التلويح بها رغم صعوبة المفاوضات، وطول الفترة الزمنية التي استغرقتها... فالحرب كما يقول المفكرون المعاصرون هي أخطر مرض يصيب نظام الدولة، ويزيد من خطورة هذا المرض الذى لازم البشرية منذ نشأتها وحتى يومنا هذا وللأسف لسنوات طويلة في المستقبل - يزيد من هذه الخطورة - التطور الرهيب للأسلحة التقليدية الحديثة التي تقارب قوة تدميرها قوة الأسلحة الذرية التكتيكية، ومن المفارقات المأساوية في تاريخ الصراع الإنسانى أن كثيراً من الحروب، بل إن معظم الحروب لم يستطع أن يحقق المصالح الحيوية المنشودة لكل طرف، ولم تكن هذه الحروب في معظمها - كما يقول لنا التاريخ القديم والحديث - أكثر من طموح عنيد وملح لحاكم أو قائد رأى في نفسه ما لا يراه غيره!

كذلك ينبغي أن نعى جيداً ما يقوله المفكرون السياسيون والعسكريون حيث أن القوة في حد ذاتها تعتبر من المصالح الحيوية، وأن جميع الدول تسعى للحفاظ عليها، ولكن في الوقت ذاته هناك من المسئولين من تستبد بهم مشاعر القوة إلى حد التورط في إشعال الحروب هنا وهناك. ويقول التاريخ أن أمثال هؤلاء هم قادة ضعفاء الطبيعة وضعفاء في تكوينهم العقلى والشخصى وأنهم ينتهون عادة نهايات مأساوية بعد أن يجروا مجتمعاتهم إلى سفح الخراب.

ومن ناحية أخرى هناك أيضاً ذلك الطراز من القادة الذين يتكلمون بهدوء وأدب شديدين، لكنهم فى الوقت ذاته يحملون فى أيديهم «عصا قوية» كما قال الرئيس الأمريكى الأسبق تيودور روزفلت... وهذا بالضبط هو المفهوم الغربى والعصرى للقوة: أن تكون هادئاً ومهذباً وفى الوقت ذاته تكون يدك الأخرى تحمل سلاحاً قوياً رادعاً.

ومع تطور سبل ووسائل الصراع الإنسانى أصبحت القوة العسكرية - كما تقول الدراسات الحديثة - ليست وحدها صاحبة الوزن الكبير لأى دولة لأنها فى الحقيقة ليست وحدها هى المكون الأساسى للقوة الوطنية، وبناء على تجربة طابا فإن هناك أيضاً القوة السياسية التى تعكس قدرة الحكومة على التحكم فى الأحداث، وهناك القوة الاقتصادية والتكنولوجية، وهناك - كما أظهرت طابا - حكمة القادة وصانع القرار وقدرة رئيس الدولة على إجتذاب الأصدقاء لشعبه وبلاده، وهناك أكثر من ذلك كله - كما أظهرت أزمة طابا - حكمة الشعب ووعيه وذكائه، أن هذه الحكمة والذكاء الشعبى المصرى كانا من أكبر أسباب تدارك الأزمة وإمتصاصها بصبر وحكمة وهدوء اتسقت تماماً مع صبر وحكمة وهدوء... مبارك.

رفع . . وسور برلين!

كانت اتفاقية السلام - كما نعلم - قد نصت على انسحاب القوات الاسرائيلية من سيناء على مرحلتين، وكان خط الانسحاب المرحلى الأول يمتد من العريش شمالاً على ساحل البحر الأبيض إلى رأس محمد جنوباً على مياه البحر الأحمر، ولتنظيم الانسحاب حتى هذا الخط تم تقسيم العملية إلى خمس مراحل فرعية للانسحاب بحيث يتم تنفيذ المرحلة الفرعية الأولى خلال شهرين إعتباراً من تاريخ تبادل وثائق التصديق على معاهدة السلام، أما المرحلة الخامسة فيتم الانسحاب فيها خلال تسعة أشهر من هذا التاريخ.

ولكن يهمنى هنا فى هذا المجال أن المرحلة الفرعية الأولى لانسحاب القوات الاسرائيلية شملت أساساً منطقة العريش بما فى ذلك مدينة العريش ومطارها فكانت المرحلة الأولى للانسحاب تشمل أساساً المنطقة الشمالية من سيناء والممتدة غرباً من حيث توقف هجوم قواتنا المسلحة فى أكتوبر ٧٣ شرقى القناة بمحاذاة مدينة الاسماعيلية تقريباً ثم تمتد شرقاً حتى مدينة العريش عاصمة سيناء الشمالية ... نعم كانت المرحلة الفرعية الأولى عميقة وأخاذاً.

من هنا كان وما زال للعريش مذاق خاص، وأتذكر جيداً ذلك اليوم الذى توجهت فيه مع زملاى الصحفيين من الجرائد والمجلات الأخرى إلى مدينة العريش لحضور المباحثات والترتيبات التى قامت بها اللجنة العسكرية المشتركة بين البلدين تمهيداً للانسحاب من هذه المنطقة الهامة ... يومها كنا أول مصريين نطأ أقدامهم هذه

المدينة المصرية العريقة بعد أكثر من عشر سنوات تحت الاحتلال.... أتذكر هذا اليوم جيداً لأن أحداً منا لم يستطع أن يسيطر على مشاعره ويعمل بالوصية الأولى في ممارسة مهنة الصحافة من حيث ضرورة أن يكون الصحفي مراقباً موضوعياً للأحداث لا ينفعل خلالها بسبب أهواء أو مشاعر شخصية، ولا يشترك بالفعل أو بالعمل في هذه الأحداث.... كان أهل العريش يجلسون أمام حوانيتهم وينظرون إلى الاتوبيس الذى يقلنا بكل عدم المبالاة فقد كان الاتوبيس مازال يحمل الأرقام واللوحات المعدنية الاسرائيلية، ولكن عندما عرف أهل العريش هويتنا وأنا مصريون إنتفضت المدينة بأكملها كما لو كان قد مسها تيار الحياة لأول مرة بعد سبات طويل وقام الجميع يهتفون بصوت واحد، ودون إعداد أو تنظيم: «أهم... أهم... أهم.... بتوع أكتوبر أهم.... لم نستطع أن نكتفى بدور الصحفي المراقب والموضوعى وامتلأنا بالحدث وباللحظة حتى آخر مدى للإنفعال الوطنى.

كان يوماً لا ينسى وكانت تجربة فريدة إزدادت حماسة مع الأيام حتى تم الإنسحاب النهائى من العريش فى وقت علت فيه فى السماء الزغاريد البدوية المميزة لأهل المنطقة، بينما كان الاسرائيليون يذرفون الدموع وهم يرون علم نجمة داود يهبط إلى الأبد من فوق ساريتته بمدينة العريس المصرية... من هنا فقد كنت أحد شهود العيان الذين شاهدوا ما كانت عليه العرب بالضبط قبل الإنسحاب الاسرائيلى. كانت تماماً كما تركناها منذ سنوات طويلة لم يحدث فيها أى تغيير، مدينة بسيطة بشوارعها الضيقة وأبنيتها الصغيرة... كل ما زاد على المنطقة حتى نكون صرحاء موضوعيين - كان عبارة عن عدد من المستوطنات الزراعية ومعظمها كان تجريبياً، ثم أخيراً على الشريط الساحلى الممتد شرقاً... هناك وعند أجمل منطقة تحتضن رمالها البيضاء عدد هائل من النخيل يطل على مياه صافية زرقاء هى من أنقى أجزاء البحر الأبيض... هناك كانت تلك المستوطنة الشهيرة «ياميت».

هناك تستطيع أن ترى الآن آثار ذلك التصرف الأهوج الذى قامت خلاله جماعة من الاسرائيليين بتدمير مستوطنة «ياميت» فى حركة مسرحية قادها شارون وتورط فيها جيش الدفاع عندما قام بتدمير المستوطنة بمساعدة تلك الجماعة من المتعصبين الذين تصوروا يوماً أن ذلك البناء الجديد سيتمدد ويتوسع ليسكنه نصف مليون

اسرائيلي.... مازالت آثار هذا الدمار موجودة إلى الآن تشهد على هذا التصرف غير الحضارى بالمرّة. وبالإمكان أن نتصور جميع هذا الكيان المدمر «فى كوم» أو «تل» واحد ليظل شاهداً عبر التاريخ على التصرف الأحمق لمنطق لم يعد له مكان الآن وإلى جوار ذلك الصرح الأخرق نستطيع أن نبني ونصنع شيئاً أفضل مما قام به الاسرائيليون... شيئاً أكثر حضارة وفخامة وبهجة يحكى لأجيال المستقبل عن القدرة اللا محدودة للإنسان المصرى على البناء فى أجواء السلام المفعمّة بالأمل والرغبة فى الحياة والاستمرار والبقاء. بالإمكان أن نعتبر ما يواجهنا فى هذه المنطقة نوعاً من «التحدى» الذى يرتبط بالمصير والكرامة.... ومعروف عنا أننا نقبل التحدى ونعتبره حافزاً قوياً لنا، والتحدى هنا يكمن فى أن تصبح منطقة «ياميت» أفضل مما كانت عليه... وهذا ليس بكثير علينا... ونحن قادرون عليه.

فى هذا الإطار شهدنا فى شمال سيناء تطورات لا يمكن أن يتصورها إنسان.... إعترف بذلك الاسرائيليون أنفسهم الذين حرصوا على المجيء لسيناء ليكتشفوا ما إذا كانت الإبل قد التهمت الزهور، أم لا!!

لقد قابلت حينئذ اللواء منير شاش.. وناقشت معه أموراً عديدة.. وكان طبيعياً أن يكون سؤالى الأول عن «ياميت».. ولماذا تركت هكذا؟ وهو سؤال كان هاماً وقتها، لكننى يجب أن أشير إلى المعجزة التى حققها المصريون فيما بعد حين أعادوا بناء ياميت بسواعد فتيه.. وبأيدي أبناء القوات المسلحة الذين إحترفوا التعمير.

اتذكر الآن ما قاله المحافظ اللواء منير شاش:

يجب أن نعترف بطباعنا بما فيها من محاسن وعيوب فإن مواجهة النفس هى أول الطريق للوصول إلى الحلول والارتقاء بالمسيرة الإنسانية.

فى هذا الإطار أقول بكل صراحة أننا شعب يحب الاستقرار وله مفهوم خاص فى هذا المضمار. فمنذ آلاف السنين ونحن نكاد نلتصق التصاقاً بوادى النيل بل إن امثلتنا الشعبية تقول: «امش سنة ولا تعدى قنا»، لقد سمعنا الكثير عن «ياميت»... كلنا سمعنا عن ياميت ولكن القليل جداً منا من سمع عن «أبو شنار» التى بنيناها أمام ياميت فى اتجاه الشرق و «جوز غانم» التى بنيناها قبل ياميت وكلاهما لا يقل أبداً عن المستوطنة

الاسرائيلية التي بنيت فى نفس المنطقة . كذلك أحب أن أقول أن ياميت تم بناؤها طبقاً للمفهوم والتراث اليهودى الذى يميل للحياة بعيداً فى «الجيتو».... ومن هنا فإننا كنا نرى ياميت وفد بنيت بطريقة دفاعية محضة لا يمكن أن يراها المرء من البحر، كما لا يمكن أن يراها من الطريق البرى.. فهى تحتل موقعاً مختلفاً عن الانظار... صحيح أن الموقع جميل وساحر، ولكنه يخالف مفهومنا فى البناء والمعمار. ولا شك أنك تتفق معى فى أننا شعب عريق فى العمارة والبناء، تشهد بذلك آثارنا.... هذا الكيان الهائل الصامت الذى استطاع أن يهزم الزمن ذاته.

ومن ناحية أخرى فإن الكثيرين منا بنفس المنطق سمعوا الكثير عن «ياميت» و «طابا» فى الجنوب، ولكن القلب منا من يعرف أن هناك وضع فى رفح يشبه تماماً الوضع فى برلين الغربية وبرلين الشرقية... فهناك رفح الغربية وهى رفح سيناء، ورفح الشرقية وهى رفح فلسطين، واعتقد أنه كان من الضرورى أولاً بدلا من أن نتعاون فى بناء ياميت أخرى فإنه من الأفضل أن نتعاون فى بناء رفح سيناء التى هى الواجهة الحقيقية لنا على حدودنا الشرقية. ونحن نعمل على تجميل وتطوير هذه الواجهة... هناك فى رفح الآن حى الامام على، وهو حى سكنى كامل أنشأناه ومستشفى مركزى يسع ٥٣ سريرا وقصر ثقافة كامل ومركز إعلام نموذجى، ومصنع البان ينتج ٢٠ طنا يوميا ومحطة كهرباء طاقتها ٦ ميجاوات، بالإضافة إلى وسائل متطورة للزراعة، وطرق مرصوفة ووسائل للمواصلات عملاً بقاعدة ومبدأ أن الحضارة هى المواصلات... وفى هذا الإطار يدور مفهومنا حول «ياميت» ومستقبل سيناء الشمالية..

حتى هذه اللحظة لم تكن مصر قد قامت بوضع الخطة القومية لتعمير سيناء الهادفة لإستيعاب ٣ مليون نسمة وتوفير ٨٠٠ ألف فرصة عمل، لكن الجهود فى ذلك الوقت كانت تنطلق من أجل تحقيق التنمية.. وكما قال لى المحافظ وقتها فقد قامت المحافظة بجهود جبارة فى قطاع الزراعة لاصلاح وإعادة بناء ما دمره الاسرائيليون لاسيما فى مجال الرى من آبار وشبكات المياه بالإضافة إلى حفر آبار جديدة. وتم إنشاء مزرعتين نموذجيتين بالإضافة إلى المساحات الزراعية المستديمة التى تقدر بـ ٦٦٢٠ فداناً وفى هذا الإطار تم ترميم سد الروافعة وصمم سد بمنطقة عين

الجديرات وأنشئت صوبه زراعية لإنتاج مليونى شتلة، واسنصلاح ٥ آلاف فدان بوادى المغارة. وفى مجال الثروة الحيوانية وإنتاج الدواجن فقد انشئ مشروع للإنتاج الحيوانى بطاقة ٤٤١ رأساً بالإضافة إلى رعاية ما لدى الأهالى من ثروة حيوانية كما أنشئت محطة تفريخ بطاقة مليونى كتكوت فضلاً عن ١٤٣ عنبراً قطاعاً خاصاً بلغ إنتاجها ١,٧٠٨,٣٨٥ دجاجة... أما مشروع السمان الذى يعد الأول من نوعه فى الشرق الأوسط فلقد ساهم فى توفير اللحوم البيضاء بالمحافظة ويجرى التفكير فى إمداد معظم الفنادق الكبرى بطائر السمان الذى ننفرد بتربيته.

وباعتبار محافظة شمال سيناء من المحافظات الساحلية التى تقع على ساحل البحر المتوسط، وتضم بحيرة البردويل فقد تم توفير ١٠٢ مليون جنيه لتنطهير البحيرة والبواغيز وحمايتها، كما أسهم جهاز التعمير بإنشاء قرى سكنية للصيادين وتركيب ثلاث ثلاجات ومركزين لتجميع الأسماك بالإضافة إلى إفتتاح المرحلة الأولى من ميناء العريش البحرى الذى وفر فرص العمالة وقلل الضغط على بحيرة البردويل مما سيساعد على زيادة ثروتها السمكية فى المستقبل القريب.

ولما كانت سيناء الشمالية لديها مجموعة هائلة من المقومات الطبيعية والبيئية والتاريخية والثقافية فلقد كان من الضرورى قيام «صناعة السياحة» حيث أعد تخطيط هيكلى للساحل الشمالى بالمحافظة من رفح شرقاً حتى بالوظة غرباً، واختيرت فى ضوءه مناطق للسياحة العالمية والمحلية بالإضافة إلى المخططات التفصيلية للقطاعات الشاطئية فى رمانة والمساعد والعريش ورفح. وشهدت الطاقة الفندقية بشمال سيناء تطوراً كبيراً خلال الفترة من عام ١٩٨٣ حتى الآن حيث كان إجمالى عدد الأسرة ١٨٢٨ إلى عام ٨٣ قفز ليصل إلى أكثر من ٣٠٠٠ سرير خلال العام الماضى وذلك دون حساب مساهمة القطاع المحلى فى مجال الكبائن والشاليهات والشقق المفروشة بالإضافة إلى شاليهات جهاز التعمير. كما وصلت الاشغالات الفندقية إلى نحو ٧٠ ألف زائر فى سنة ١٩٨٦ أما حركة العبور من منفذ رفح البرى فقد شهدت أعداداً كبيرة من السياح المصريين والعرب والأجانب بلغت حوالى ٢٤ ألف سائح خلال نفس العام.

فى مجال التعليم العام والأزهرى، والعالى - والكلام مازال للواء منير شاش - وصل عدد المدارس فى عام ١٩٨٧ إلى ٢١٥ مدرسة فى حين أنه فى عام ١٩٧٩ كان لا يزيد على ٢٩ مدرسة وقفز عدد الطلاب من ١٥٧٠٠ طالب إلى ٤١٧٨٨ خلال نفس الفترة، كما تم إنشاء ١١ معهداً إزهرياً بالإضافة إلى كلية التربية فرع جامعة قناة السويس بالعريش وكليتى العلوم والزراعة لخدمة البيئة السيناوية .

وفى قطاع الصحة نجد أنه بعد أن كان بالعريش مستشفى واحد لكل شمال سيناء به ٥٠ سريراً فقط أصبح هناك ٤ مستشفيات فى بئر العبد والشيخ زويد ورفح والعريش بالإضافة إلى ٢٩ وحدة صحية ريفية وتضاعف عدد الأسرة بالمستشفيات إلى أكثر من خمسة أضعاف .

أما الثورة المعدنية التى تشتهر بها سيناء بإحتوائها على الرخام والاسمنت والجير وأكاسيد الحديد والفحم الحجرى والرمال السوداء والرمال البيضاء والأملاح فكلها خامات تم التخطيط لاستغلالها بإنشاء المصانع والمناجم والمحاجر خلال الخطة الخمسية الحالية والقادمة .

وفى مجال النقل والمواصلات رصف أكثر من ٩٠٠ كيلومتر من الطرق لربط سيناء إقليمياً بمحافظات الجمهورية وداخلياً بين مناطقها المختلفة ولأول مرة تم إنشاء طريق عرضى مواز للحدود يربط رفح حتى الكدنيلا بطول ١٦٥ كيلومتراً ويتكالف ٨ ملايين جنيه كمرحلة أولى بالإضافة إلى تخصيص ٣ ملايين جنيه لهذا الطريق خلال خطة المحافظة للعام الماضى ... كما تم إنشاء ٤ معديات بالقنطرة والاسماعيلية والفردان، وتجهيز مطار العريش كمطار مدنى للاستخدام الداخلى والدولى بتكلفة بلغت ٤,٢٥٠ مليون جنيه .

لماذا استطرد فى ذكر هذه الأرقام القديمة رغم أنها تضاعفت عدة مرات، ورغم أنه جاء محافظ بعد اللواء منير شاش قام بجهود أخرى جباره ١٢ الإجابة واضحة، ذلك أن الصورة التى كانت توحى لنا بحجم الإنجاز الذى تحقق الآن، ونؤكد لنا أن مصر كانت ولم تنزل تؤمن باستراتيجية التعمير والتنمية .. ولذا فإننى أعود إلى ما قاله المحافظ .

ولعل أكثر المجالات حيوية وأهمية هو «الاسكان» الذى شهد إنشاء ١٠١٥٩ وحدة سكنية على مستوى المحافظة بمراكز العريش وبئر العبد ورفح والشيخ زويد ونخل والسحنة بالإضافة إلى قرية «تلول» للصيادين والتي تشتمل على ٥٠ وحدة سكنية وقرية «البردويل» التى ستتضمن ٥٠ وحدة أخرى روعى فيها أن تتلاءم كل وحدة مع البيئة المعروفة للصيادين مع استقلال كل وحدة عن الأخرى.

وفى مجال الرعاية الاجتماعية تم إنشاء ١٩ داراً للحضانة ومركزين لتنظيم الأسرة و ١٣ مشغلاً للفتيات و ٣٥ جمعية أهلية للنشاط الاجتماعى ومشروع للأسر المنتجة ومركز للعلاج الطبيعى وآخر للتكوين المهنى وثالث للتأهيل الاجتماعى.

وقبل عام ١٩٧٩ لم يكن الارسال التليفزيونى يصل إلى المنطقة بل كانت شمال سيناء وجنوبها مغطاة بشبكات الدول المجاورة وفى ٢٥ ابريل ١٩٨٢ ثم وصول إرسال القناة الأولى وبعدها بعام غطى إرسال القناة الثانية المنطقة. كما تم إنشاء أول إذاعة محلية فى ٢٥ ابريل عام ٨٤.

وفى ٢٥ مايو ٧٩ كان لدى شمال سيناء بأسرها ٢٠٠ خط تليفونى فى سويتش قديم ومستهلك بالعريش، أما الآن فقد أصبح فى العريش وحدها ٨ آلاف خط وضاحية السلام ٣٠٠ خط والمساعيد ٣٠٠ خط وبئر العبد ٤٠٠ خط والشيخ زويد ٤٠٠ ورفح ٢٤٠ ورمانة ٢٠٠ خط بالإضافة إلى تنفيذ مشروع وسط سيناء فى نخل الذى يعتمد على شبكة من الميكروويف.

فى عام ١٩٧٩ كان لدى الشباب فى شمال سيناء مركز واحد لممارسة هواياتهم الترفيهية فى بئر العبد، أما الآن فقد بلغ عدد مراكز الشباب ٤٢ مركزاً... لم يكن لدى المحافظة أية أندية وأصبح فيها الآن ١٠ أندية ولم يكن موجوداً فيها أية لجان رياضية أو مناطق أو إتحادات وأصبح بها ١٧ بالإضافة إلى إنشاء استاد للمحافظة والمعسكر الدائم بالعريش ومعسكرات أخرى بالشيخ زويد ورمانة ونزل الشباب بمدن المحافظة.

فى عام ٧٩ كان فى العريش فقط محطتان للكهرباء بطاقة واحد ميجاوات. الكهرباء وزاد توليد العريش ورفح والشيخ زويد وبئر العبد ونخل والحسنة والمساعيد بطاقة تزيد على ١٥ ميجاوات.

أيضاً ثم إنشاء ميناء العريش البحرى الذى يقع شرق مدينة أبو حنضل بغاطس ٧ أمتار مما يمكنه من استقبال حمولات حتى ٥ آلاف طن.

كما حصلت المحافظة على العديد من المنح والقروض التى قدمتها بعض الهيئات والمنظمات الدولية مثل المنحة المقدمة من فرنسا لدراسة بحيرة البردويل، ومنحة اليونيسيف لإنشاء مشروع مياه الشرب بحفر ١٢ بئراً عميقة بوسط سيناء، ومشروع الخدمات الأساسية للقرى بالتعاون مع المعونة الدولية الأمريكية، ومشروع دراسة الصرف الصحى لمدينة العريش، ومشروع إنشاء مشتلين بالتعاون مع هيئة «كير» الأمريكية لتوزيع شتلات البطيخ والشمام والطماطم والمنحة البريطانية لمشروع فحم المغارة، ومشروع برنامج الغذاء العالمى الذى تنتفع به ٢٦٣٠ أسرة ومشروع المنحة الفنلندية لإقامة مستشفى بئر العبد والهولندية لإقامة مركز للعلاج الطبيعى... إلخ.

هذه هى ملامح التغيير الجذرى والحقيقى للإنجازات التى تحققت فى سيناء... لقد كان التغيير مطلباً حيوياً وقومياً يستجيب لذلك النداء الكامن فى أعماق كل مصرى بقبول التحدى الذى فرضه الواقع فوق أرض سيناء فكان ذلك الحجم الضخم من المشاريع والمبادرات الفردية والجماعية التى أكدت قدرة الإنسان المصرى على تغيير واقعه إلى الأفضل... إتسعت الرقعة الخضراء فوق أرض سيناء وزادت أعداد الزهور ولم تنتزع زهرة واحدة... أصبح اسم سيناء بين أشهر أسماء الأماكن السياحية والمنتجعات المخصصة للاستجمام وملاذا للباحثين عن الجمال والهدوء مجتمعات عمرانية جديدة وتجمعات سكنية... تنمية حضارية حقيقية لشعب عريق فى الحضارة... رغم كل الظروف.

ولا يمكن أن أختتم هذا الجزء من الكتاب دون أن أشير إلى أن هذه العملية التنموية الضخمة قد امتدت وتنوعت إتجاهاتها.. وبعد أن طورت مصر مدينة رفح.. ووفرت كل الطاقات لسيناء.. شرعت فى بناء ياميت من جديد.. وهو ما تحقق خلال فترة زمنية وجيزة وفى صمت حتى فوجئنا بالاعلان عن هذا.. فمصر بنت ما خربته إسرائيل.. وسوف تستمر على هذا النهج.

الصقور القدامى!

لقد إستعرضت فى الفصل السابق ماذا فعل السلام فى مصر وكيف جاء بالتنمية.. وفى حين كانت إسرائيل تستفيد منه أيضاً كانت هناك تفاعلات مختلفة قد خلقها السلام هناك.

فى إسرائيل والأراضى المحتلة فإن أحداً سواء كان طفلاً أو شاباً أو هرماً لا يتحدث ليلاً ونهاراً سوى عن الحرب والسلام والمشكلة الفلسطينية، والحكم الذاتى، وأسباب عدم مجيء المصريين إلى إسرائيل.. إنهم هناك يعيشون ويتنفسون هذه المشاكل طوال اليوم تقريباً، حتى إن المرء لا بد وأن يشعر بنوع من الاكتئاب إذا ما استمر يستمع إلى هذه الدائرة المفرغة التى يعمل على فراغها أساساً التشدد من أجل الوصول إلى مكاسب أكثر فى وقت يدرك فيه الجميع فى قرارة أنفسهم - عندما يخلون بها بعيداً عن الكاميرات والميكروفونات وأجهزة التسجيل - إنه لا فائدة بغير السلام وأن هذا السلام ينبغى، فى المقام الأول، أن يكون عادلاً، وأنه لكى يكون عادلاً لا بد وأن يحل جوهر ذلك الصراع التراجيدى إلا وهو المشكلة الفلسطينية.. هكذا ببساطة، ولكن المشكلة إنه ليس هناك شىء بسيط فى منطقة الشرق الأوسط، وكل شىء أصبح مركباً.

فى هذا الإطار فقد لاحظنا إنقساماً واضحاً داخل إسرائيل على فرعية من هذا الإدراك المنطقى العام.. وحتى وقت مبكر قبل أن ينعقد المؤتمر الدولى للسلام فى الشرق الأوسط كان هناك فى إسرائيل من يرون ضرورة إجراء المباحثات مع المنظمة

لحل المشكلة الفلسطينية بينما يرى الصنف الآخر من اسرائيل تقريباً، أنه لا مفاوضات ولا حوار مع المنظمة، وللأسف فإن هذا الصنف الأخير يتزعمه الحزب الحاكم حالياً: الليكود بزعامه اسحق شامير فيما يمكن أن يكون أخرج فترة في حياته السياسية.

من أجل استكشاف الاتجاهات داخل اسرائيل إزاء هذه العملية الحيوية في تاريخ الصراع ومستقبل المنطقة التي نعيش فيها، والتي تؤثر على حياتنا جميعاً قابلنا عدداً كبيراً من المسؤولين من مختلف الإنتماءات والاتجاهات.. وكانت أولى هذه المقابلات مع عيزرا وايزمان رئيس البحث العلمي السابق والذي أصبح رئيس اسرائيل فيما بعد والذي كان وزيراً للدفاع قبل ذلك، وقبلها - وهذا هو الأهم - كان قائداً للسلاح الجوي الاسرائيلي ويعتبرونه هناك الأب الروحي لطيارى القتال الاسرائيليين الذين تعتمد عليهم بالدرجة الأولى آلة الحرب الاسرائيلية، في هذه المقابلة مع «الصقر القديم» كان الحديث ودياً للغاية، وكان نفس ما ينادى به الرجل هو نفس ما ينادى به الجانب العربى، وكان حرصه على السلام بين العرب والاسرائيليين واضحاً بشكل لا يمكن أن تخطئه عين أو أذن، في هذه المقابلة قال لى وايزمان: «أن هناك إنقساماً حالياً في اسرائيل حول مسألة التفاوض مع ياسر عرفات، وأن المشكلة تتلخص في ضرورة إقناع الحكومة الاسرائيلية بالتفاوض مع المنظمة. ومن البديهي أنه حتى يمكن أن تكون هناك عملية تفاوض فإنه ينبغي أن يكون هناك طرف آخر يتفاوض معه الإنسان. وفي رأى بالنسبة للقضية الفلسطينية أن هذا الطرف الآخر هو المنظمة وبالتحديد فإن الرجل الذى ينبغي أن نتفاوض معه هو ياسر عرفات. وأنا أتكلم عنه بصفة خاصة لأنى أعرفه جيداً ولا أعرف الباقين مثل أبو مازن وأبو إياد وغيرهما، وبهذا التكنيك يمكننا أن نصل إلى حل عادل بالنسبة لقطاع غزة والضفة الغربية وفي الوقت ذاته فإننا نكون قد وصلنا إلى حل لمشكلة الانتفاضة التي نتعامل معها بكل حذر، ومع ذلك ثبت أنه من المستحيل منع سقوط ضحايا من هنا وهناك الأمر الذى أصبح يثقل كاهل الضمير الإنسانى داخل اسرائيل قبل خارجها».

واستطرد وايزمان متحدثاً كعادته بأسلوب الطيارين ومعبراً عن أفكاره بيديه قائلاً: «اعذرني فإننى استخدم فى حديثى دائماً لغة الطيران الذى قضيت فيه معظم حياتى تماماً مثل رئيسكم العظيم حسنى مبارك، ولذلك فإننى استخدم عبارات الطيران دائماً،

وهنا أعتقد أن البعض منا في المنطقة قد أقلع بطائرته وأصبح في المقدمة، وأن هناك آخرين أقلعوا ويحاولون اللحاق بالتشكيل الأمامي المتقدم. وهناك في الوقت ذاته آخرون مازالوا فوق الممر على سطح الأرض ولكنهم سيقلعون أيضاً وبمرور الزمن سيلحقون بالموكب في الاتجاه الصحيح. وأنت تعرف أن نفس الشيء حدث خلال مباحثات السلام مع مصر التي كنت أحد شهودها منذ البداية، وكان هناك في إسرائيل من لا يثق في نية الرئيس السادات رحمه الله، وكانوا يعتقدون أنه يناور ويخادع ليشن هجوماً آخر على إسرائيل، ولكن المسألة كما ترى أصبحت مختلفة تماماً حالياً، وأصبح هناك سلام بين الشعبين.. سلام حقيقى.. وأعتقد أنه في غضون عام تقريباً سيتفاوض الإسرائيليون مع عرفات، لأنه لا يمكن إحلال السلام في المنطقة بدون حل لمنطقة بدون حل المشكلة الفلسطينية، ولما كنا قد وقعنا على إتفاقية كامب ديفيد التي تنص على ضرورة حل المشكلة الفلسطينية فإننا ينبغي أن نلتزم بهذا الجانب الأخلاقي من الإتفاقية وحل هذه المشكلة أيضاً لتحقيق السلام والتفاوض مع المنظمة مع ضرورة إدراك أن مصر ستلعب دوراً حيوياً في هذه المفاوضات لأنها أصبحت الآن شريكاً في عملية السلام وهي في الوقت ذاته الدولة الوحيدة في العالم القادرة على التحدث مع الفلسطينيين والعرب والإسرائيليين والأمريكيين والسوفييت وكل دول العالم، كذلك في رأي لا بد أن تكون الأردن أيضاً ممثلة بشكل ما في هذه المحادثات التي نتوقع أن تكون صعبة لأنها تتعلق بالضفة وغزة وهي الأراضي المتاخمة لحدودنا مباشرة.

وفي مقابلة مع صقر آخر من «الصقور القدامى» هو شيمون بيريز ذلك الرجل الذي عمل كوزير للدفاع وذلك بعد أن شارك بجهد وافر في تأسيس صناعة الأسلحة التي أصبحت الآن في مقدمة الصناعات الإسرائيلية التي تصدر للخارج وتساهم بقدر كبير في تحقيق التوازن في ميزان المدفوعات. ثم أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية ورئيساً للوزراء. وزعيماً لحزب العمل.

الذى ينطلق من رؤية أكثر مرونة من حزب الليكود بزعامة شامير. في هذا اللقاء تحدث بيريز عن عامل «القدر» في تاريخ الشعب الإسرائيلي وقال إنه كلما كان ينبغي علينا أن نختار أو نتقدم من موقع إلى آخر فإن القرار دائماً كان قديراً بالنسبة لنا وليس

شيئاً عادياً كما هو مع المجتمعات الأخرى ويبدو أن القدر هو الرفيق الدائم للتاريخ اليهودي، وأعتقد أننا نختلف عن باقي الشعوب من حيث أننا قلة من البشر، ومن هنا فإن الثمن الذي ندفعه باهظ حقاً ويتمثل في حجم هائل من المسؤولية ملقاة على كاهل كل فرد منا في المجتمع اليهودي. إن على الجميع أن يدركوا الآن أن العالم يمر بتغييرات هائلة تقوم على محورين أساسيين:

الأول: هو أبعاد العلاقات الخارجية عن أى شكل من أشكال الصبغة العسكرية.

والثاني: هو صبغ الاستراتيجية القومية بالصبغة الاقتصادية.

ومن البديهي أن هذين المحورين هما وجهان لعملة واحدة، كما ترى بنفسك، وأنا نعيش في حقبة من التاريخ الإنساني يلعب فيها الاقتصاد دوراً بالغ الحيوية، وأصبحت جميع الدول تتأثر بالتغييرات العالمية، بل إن قوة الدول والأمم أصبحت إلى حد بعيد تعتمد على قوتها الاقتصادية والمستوى العلمي والتكنولوجي لشعبها أكثر من القوة العسكرية والمساحة التي تشغلها فوق الأرض بل وحتى تعدادها البشر.. واعتقد أننا مثلنا مثل باقي دول المنطقة عبارة عن جزء من هذا العالم، لذلك ينبغي أن نلحق بهذا التغيير العالمي الكبير. ولكن هذا التغيير الحيوي يعتمد أساساً على مسألة محورية وأساسية إلا وهي السلام. وأبعاد الصراع العربي الاسرائيلي عن الصبغة العسكرية وإيجاد حل سياسى للمشكلة الفلسطينية وبذلك فقط يتم تحريك منطقة الشرق الأوسط ونقلها من العدوان إلى النمو والرخاء. لذلك كله ينبغي أن تنتهى الحروب كلها من المنطقة وأن يكون هناك مزيد من السلام وتختفى المواجهات العسكرية بين العرب والاسرائيليين.

ولقد قلت في خطاب عام للشعب الاسرائيلي أن الأراضى لا يمكن أن تصبح أراضى يهودية دون أن تكون هناك غالبية يهودية ملموسة موجودة فوق تلك الأراضى، وعلينا أن نسأل أنفسنا: هل إذا سيطرنا على جميع الأراضى المحتلة فهل تصبح دولتنا يهودية؟ وهل هذا سيجذب المزيد من اليهود للهجرة من الشتات والدياسبوا إلى الأراضى الجديدة؟ لقد قلت علنا ينبغي علينا أن نعرف جيداً أن الأرض وحدها ليست جزءاً من أمننا ولكنها الأرض والناس وهذا غير محقق حالياً. وقلت

أيضاً أن إسرائيل ينبغي أن تكون دولة جذابة ومتيقظة في الوقت ذاته حتى يمكن أن نقنع الشعب اليهودي فيما بين ليننجراد وطهران وجوهانسبرج واديس أبابا وريودي جانيرو وسان فرانسيسكو.. نقنعهم جميعاً أن يأتوا إلى هنا ويعشوا حياة مستقرة في سلام».

وأضاف بيريز بلهجة تتم فعلاً عن رغبة حقيقية في سلام عادل للجميع قائلاً: «أننا لا ينبغي أبداً أن نحكم أو نسيطر على العرب أو الفلسطينيين ولا نريد مطلقاً أن نحكم شعوباً أخرى. وأن تمسكنا الشديد بالديمقراطية كسبيل للحرية يتطلب أساساً أن نتفادى تماماً الرغبة في السيطرة أو حكم المجتمعات الأخرى. وأننى أشعر في قرارة نفسى أننا لن نصبح قادرين على تحقيق السلام دون اللجوء إلى حل وسط تاريخي يقوم على إعادة ترتيب الأراضي المحتلة والحدود الراهنة. ليس معنى ذلك أننا سنقدم تنازلات لأي نوع من الإرهاب ولكننا سنقدم تنازلات فقط من أجل السلام.. ومن هنا فإننى أقول أننا على استعداد للتفاوض مع وفد أردني فلسطيني مشترك يمثل معظم الفلسطينيين أو مع وفد فلسطيني يمثل الفلسطينيين الذين يقطنون في الأراضي المحتلة، الأمر الذي يبدو لي أكثر واقعية وعملية، وينبغي علينا أن نتفاوض مع الفلسطينيين كما هم ومن حقهم أن يختاروا ممثليهم، ومن حقنا كما أعلنت في خطاب عام قبل ذلك أن نرفض بنادقهم ومدافعهم ولكن ليس أبداً حقوقهم المشروعة. وفي هذا فقد اقترحنا أن نبدأ المفاوضات بدون عنف أو تهديدات من الجانبين وأن تكون كافة الأطراف حرة في التفاوض أو في الدخول في مفاوضات حرة، وبذلك فإننى أقول للفلسطينيين من هنا أننا لا ينبغي إطلاقاً أن نحكمهم، فهم وحدهم الذين ينبغي أن يحكموا أنفسهم، كما ينبغي لنا أيضاً أن نحكم أنفسنا.. وأن هذا الحق سيتأتى في الأراضي العربية المحتلة والتي تكتظ بالسكان العرب كذلك فإنه من حق الفلسطينيين أن يقرروا طبيعة علاقاتهم مع العالم العربي وأن يمارسوا حياتهم من خلال مؤسساتهم، وأن تكون لهم هوية خاصة وأن تكون هناك مناطق عبور حرة إلى جميع المواقع الدينية المقدسة ما بين نهر الأردن والبحر المتوسط. وأضاف بيريز قائلاً: أن الفلسطينيين ينبغي أن تتوافر لهم في المستقبل حرية اختيار الجانب الذي يقيمون معه اتحاداً فيدرالياً. وفي ذلك ينبغي علينا أن نقوم بتعليم الحدود الآمنة وتلك المناطق التي

تقع فيما بين البحر المتوسط ونهر الأردن التي ستكون منزوعة السلاح ثم عاد بيريز بعد ذلك ليؤكد أن المستوطنات الراهنة ستظل قائمة وأن القدس ستظل عاصمة لإسرائيل مع السماح بحرية الحركة والمرور في جميع أجزاء المنطقة وضمان العبور إلى المواقع الدينية المقدسة مع ضمان عدم نشوب أى عنف أو أنشطة حربية أو إرهابية . ثم أكد بعد ذلك أن تعبیر الفلسطينيين عن ذاتهم لا ينبغي أن يكون على حساب الأمن الاسرائيلي . ثم أخذ بيريز يتحدث بعد ذلك عن ضرورة لحاق منطقة الشرق الأوسط بالتغيرات العالمية بحيث تصبح الحرب الوحيدة في المنطقة هي الحرب ضد الفقر والدمار والجهل . وبعد ذلك أشاد بيريز بالرئيس مبارك والدور الذي يلعبه في ترسيخ عملية السلام خاصة بعد حل مشكلة طابا التي مهدت الطريق لآفاق أرحب من أجل السلام . وحول سؤال عن الاجراءات التي سيقوم بها حزب العمل الذي يتزعمه بيريز في حالة فشل رئيس الوزراء الاسرائيلي إسحاق شامير في عرضة مقترحات مقنعة خلال زيارته لواشنطن قال بيريز أن حزب العمل ملتزم بتحقيق السلام في المنطقة وأنها نأمل أن نرى المنطقة كلها أرضاً للسلام وليست أرضاً للصراع والحرب ، ومع ذلك ينبغي علينا أن ندرك جيداً أن السلام من حزبي «العمل» و«الليكود» أهم طبعاً من السلام القادم من حزب واحد . ومن الأفضل أن ننتظر حتى نرى نتائج محادثات شامير في واشنطن . ولكن في النهاية نقول أن السلام أهم من الأحزاب كلها .

الصقور الجدد!

للأسف فإن الأذكىاء وحدهم هم الذين يستفيدون من تجارب الآخرين، ولولا ذلك لما تكررت الأخطاء الإنسانية منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، فالإنسان الذكى جداً ينظر إلى تجربة غيره ويستفيد منها دون أن يمر بنفس التجربة. أما الإنسان العادى فإنه لا بد أن يمر بالتجربة حتى يعى نفس الدرس الذى استخلصه غيره من سنوات، أما الأغبياء فإنهم لا يستفيدون من تجاربهم أو تجارب غيرهم لذلك فهم دائماً يتخبطون ويكررون نفس أخطاء الماضى. وفى إطار النزاع فى الشرق الأوسط والصراع العربى/ الاسرائيلى فإن التجربة غنية وهائلة ومليئة بالدروس المستفادة، وأول هذه الدروس التى خرجت بها الأجيال من جانبى النزاع - التى مارست تجارب الصراع منذ نشأته فى بداية الأربعينات - هو حتمية الحوار والحل السلمى، وأن لب المشكلة هو المشكلة الفلسطينية وإن عرفات هو زعيم فلسطينى معتدل يمكنه أن يساعد إلى حد بعيد جداً فى حسم المرحلة الحالية من عملية السلام.

للأسف فإن البعض من الجانبين لا يعى كل هذه الحقائق، بل إن هناك من المتطرفين على الجانبين - وهم قلة - من لا يعترف بكل هذه الحقائق، ولا بتجربة السلام نفسها، وبالطبع فإن أولئك هم أقل الناس معرفة بحقائق العصر وأقلهم ذكاء كما أشرنا فى مقدمة المقال.

وعلى أية حال فإنه خلال لقاءات متعددة مع كبار المسئولين الاسرائيليين فقد لاحظت أنه حتى من نقصدهم بعبارة «الصقور الجدد» فإنهم جميعاً يعترفون بحتمية

الحوار والحل السلمي، وأن لب المشكلة هو المشكلة الفلسطينية، ولكنهم في الوقت ذاته يصرون على فرعتين من هذه الحقائق الأساسية وهما: أن الحوار ينبغي أن يكون مباشراً بدون مظلمة المؤتمر الدولي، وأنه لا حوار مع عرفات والمنظمة، ولكن مع الفلسطينيين المقيمين في الضفة الغربية وفي قطاع غزة.

في هذا الإطار التقيت مع موشيه ارينز وزير الخارجية الاسرائيلي الذي أصبح بعد ذلك وزيراً للدفاع في حكومة نتانيا هو.. وقد لا يعلم القارئ العربي أنه مهندس طيران، وأنه الرجل الذي كان يقف وراء مشروع إنتاج طائرة القتال الاسرائيلية (لافي)، وقد لمع اسمه بشكل خاص هنا في مصر خلال أزمة طابا عندما خرج ليعلن بوضوح قاطع أن اسرائيل ستنفذ انسحابها من طابا! وتسلمها لمصر يوم ١٥ مارس الماضي، فكان هذا هو أول تصريح حاسم ومحدد بشأن الانسحاب من هذه الرقعة الأخيرة من الأراضي المصرية.

في مكتبة بالقدس كان هناك بالطبع نماذج لبعض طائرات القتال، ويندر أن تدخل مكتباً في اسرائيل دون أن ترى صورة أو نموذجاً لطائرات القتال..... بدا حديثه معي عن العلاقات بين مصر واسرائيل وأعرب عن أمله في أن تكون هناك علاقات مع الاردنيين والعراقيين والسعوديين وكل العرب الذين هم - من الوجهة النظرية - مازالوا في حالة حرب مع اسرائيل. قال لي الرجل أن الشعب في مصر يدرك طبعاً أن هناك آلافاً من الفلسطينيين يعيشون داخل اسرائيل، وأن هناك ملايين من الفلسطينيين في الأرض المحتلة، ومن هنا فإننا في اسرائيل لا نحتاج إلى المنظمة للتحدث والتفاوض، بل يمكننا التفاوض مباشرة مع هؤلاء الفلسطينيين الذين يعيشون في اسرائيل والأرض المحتلة. وطبعاً أنتم تعلمون أن الفلسطينيين يعيشون في شرق وغرب نهر الأردن، بل إن عدداً ضخماً منهم يعيشون في الأردن ذاتها، وقد حارلوا في عام ١٩٧٠ الاستيلاء على الدولة الاردنية وكان هناك من الاسرائيليين من يتصور أنه كان من الأفضل لنا هنا أن ينجح عرفات وأعوانه في الاستيلاء على الأردن ولكنني لست من هذا الرأي لأن ذلك كان يعنى قلب مختلف الموازين في المنطقة!!

أننا نريد - والكلام مازال لارينز - ممثلين عن الفلسطينيين الموجودين في الضفة وغزة ولا نريد أن نتحدث مع ممثلين للمنظمة التي تعمل على تخويف وإرهاب السكان المحليين، بل أن منظمات تابعة لحواتمة وجبريل يقومون بتهديد هؤلاء السكان ويقتلون البعض منهم، ولذلك فإننا مصممون على السير في طريق التحدث مع الممثلين الحقيقيين لأهالي الأراضي المحتلة، وليس من يعيشون خارجها. ولقد تحدثت مع الرئيس مبارك خلال زيارتي الأخيرة لمصر، وتحدثت عن مكانته الفريدة من حيث كونه زعيماً عربياً كبيراً يتزعم الدولة الوحيدة في المنطقة التي هي في حالة سلام مع إسرائيل، وأنتى لعلى يقين من أن الرئيس مبارك سيساعد إلى حد هائل في العمل على إيجاد حل.

وهنا قلت لآرينز الاسرائيلي: ولكن أهالي الأراضي المحتلة يصرون على أن المنظمة برياسة عرفات هي الممثل الشرعي والوحيد لهم فماذا تريدون أكثر من ذلك؟ فأجاب قائلاً: إن أفضل طريقة لمعرفة ذلك هي الانتخابات ليس ذلك فقط لكن الانتخابات ستعمل على اختيار الشخصيات التي ينبغي أن تتفاوض معها إسرائيل، فقلت له: إذن ففي هذه الحالة يمكن أن ينتخب السكان العرب تلك الشخصيات التي تمثل المنظمة وتعبر عن وجهة نظرها.

فقال آرينز: «إن الانتخابات - كما تعلمون جيداً في مصر - لا يمكن أن تكون ذات معنى إلا إذا كانت حرة. إن أى إنسان يمكن أن يرشح نفسه، وأى إنسان يمكن أن ينجح وهذا هو بالضبط ما نحتاجه فنحن نريد أن نتحدث مع الممثلين الحقيقيين للأراضي المحتلة وسوف نعرف من هم بعد الانتخابات.

قلت: إننا نسمع من رجال مثل عيزرا وايزمان وبيريز ومعظم أعضاء حزب العمل عن وجهات نظر واقعية ومشجعة بالنسبة للسلام مع الفلسطينيين، ولكن عندما يتحدث أعضاء «الليكود» وعلى رأسهم مستر اسحق شامير فإننا لا نسمع غير كلمات «لا ولا ولا» تماماً كما حدث عندما أعلن الرئيس مبارك عن استعداداته لزيارة إسرائيل لحل المشكلة الفلسطينية فخرج شامير في اليوم التالي ليعلن اللاءات الشهيرة. وهنا على الفور قال لى مستر آرينز: هل رأيت صحيفة «جيزرواليم بوست» هذا الصباح - يوم لقائى معه - فقلت له نعم فقال لى أن فى صدر صفحتها الأولى خبراً يقول أن

الرئيس مبارك لم يعلن عن زيارة لاسرائيل فنحن لا نقول «لا» لكل شيء، ولكن نقول «لا» فقط لما لا نرغب فيه، ونقول «نعم» لما نحبه. فقلت له إنكم تعلمون أنني صحفي محترف في أكبر جريدة بالشرق الأوسط، ولذلك فإنني إرتبت في هذا الخبر الذي تتحدثون عنه والمنشور في «جيزوراليم بوست» منذ أن وقعت عيني عليه فهو مطبوع طباعة خاصة وبالأسود في مكان بارز بالصفحة الأولى يريد أن يجذب نظر الجميع إليه، ولا أخفي عنك إنني منذ أن رأيته اعتبرته من نوعية تلك الأخبار التي تسريها السلطات عمداً لأحداث رد فعل معين، أو لتأييد وجهة نظر محددة. وهنا ابتسم وزير الخارجية الاسرائيلي قائلاً: حسناً فنحن نستغل الصحف أيضاً، ولكن حقيقة أنا لم أعرف أن الخبر سينشر هذا الصباح ولكنني أوّمن بأنها ستكون فكرة جيدة لو اجتمع الرئيس مبارك مع شامير، وبالفعل كان الرئيس مبارك قد قال لي خلال زيارتي لمصر إنه كان يود أن يأتي، ولكنه يحب أن نكون زيارته مثمرة، ومع ذلك فإنني اعتقد أن من أهم مميزات العلاقات المصرية الاسرائيلية هي أنه يمكننا الاجتماع معاً في أي وقت دون شروط وأنا أفعل ذلك مع نظيري المصري الدكتور عصمت عبد المجيد وأن الاجتماع في حد ذاته يعتبر شيئاً مثيراً.... ومثلاً فإنني عندما اجتمعت مع الرئيس مبارك فقد كان اجتماعاً هاماً جداً ومثيراً وأعطاني فهماً أكثر للموقف المصري، وموقف الرئيس مبارك، وعلى أية حال فإننا نقول «نعم» للتحدث مع الفلسطينيين و «لا» للتحدث مع المنظمة، وإنه ينبغي علينا أن نتحرك على مسار ذي ثلاثة محاور.

- ١ - اختيار ممثلين عن الفلسطينيين في الضفة وغزة.
 - ٢ - ضرورة وجود الأردن على مائدة المحادثات لأننا نرى أنه لا يمكن لمباحثات السلام أن يكون لها أهمية دون اشتراك الأردن.
 - ٣ - أن تحضر هذه المباحثات دولة عربية أخرى على الأقل من تلك الدول التي تعتبر نفسها في حالة حرب مع اسرائيل.
- ثم أختتم الوزير الاسرائيلي حديثه قائلاً: إن العرب واليهود ينبغي أن يعيشوا معاً سواء أرادوا أو لم يريدوا، وتمنى أن يسلم بذلك المسلمون والمسيحيون واليهود

والاسرائيليون والفلسطينيون في الضفة.... وكل الفئات والجنسيات الموجودة في المنطقة، وأن السبيل إلى ذلك يتحقق بالحوار المباشر وليس بالمؤتمر الدولي، وأن الحوار أو المفاوضات ستجرى مع الممثلين الذين ينتخبهم أهالي الأراضي المحتلة مهما كانوا ولكن ليس أبداً مع ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

وكان اللقاء الثانى مع وزير البيئة الاسرائيلى السابق واحد الأعضاء البارزين فى حزب الليكود (رونى مالون) وهو محام وكان يعمل نائباً للأحكام فى جيش الدفاع الاسرائيلى..... لذلك كان سؤالى الأول له عن المحاكمات التى تجرى فى الجيش الاسرائيلى للعسكريين الذين أساءوا التصرف إزاء أحداث الانتفاضة. وهنا علل مالون هذه الظاهرة بالمناخ الديمقراطى وحرية النشر والتعبير وبنوعية نظام الحكم الذى تعيشه اسرائيل وعندما تحدثت عن ضحايا الانتفاضة، وأن هذا من شأنه إعاقة عملية السلام فإنه أشار إلى الضحايا على الجانبين فى مصر واسرائيل خلال السنوات الطويلة من الصراع وإن ذلك لم يمنع من الوصول إلى السلام بين البلدين. وهنا أثرت إنتباهه إلى أن الحرب بين مصر واسرائيل كانت حرباً بين جيشين نظاميين ولكن فى حالة الانتفاضة هى حرب بين جيش نظامى مدجج بأحدث الأسلحة وسكان عزل على الجانب الآخر لا يملكون سلاحاً. وقد وافق الوزير الاسرائيلى بالطبع على هذه الملاحظة ولكنه علل هذه الأوضاع مؤكداً أنه لهذا السبب فإن الذين يتعاملون مع الانتفاضة هم رجال الأمن الاسرائيليون وليسوا رجال جيش الدفاع وأنهم يستخدمون فى ذلك طلقات البلاستيك والطلقات المطاطية وأنهم لم يلجأوا إلى ذلك إلا بعد إهانات لا تحتمل يوجهها إليهم سكان الأرض المحتلة.... وعلى أية حال - كما قلت له - فإن هذه الطلقات يمكن أن تكون قاتلة على مسافات معينة الأمر الذى يعمل على زيادة المأساة الفلسطينية وحتمية الوصول إلى حل عادل لهذه المشكلة التى بدأت تسيطر على الضمير العالمى.

وعندما تطرقنا للحديث عن مفاوضات السلام بين الفلسطينيين والاسرائيليين كان ما قاله (رونى مالون) هو نفس ما قاله ارينز من حيث رفض التحدث مع عرفات ومنظمة التحرير، مؤكداً أن عرفات ورجاله لا يريدون سلاماً حقيقياً مع اسرائيل..... ولم أشأ أن أغادر مكتب الوزير الاسرائيلى قبل أن أقول له ملحوظة عابرة وأعتقد أنها

منطقية وتقوم على أساس أنه حتى لو كانت المنظمة لا تريد السلام مع اسرائيل وأنها تستغل السلام لاحتراز مكاسب سهلة كما يقول الاسرائيليون فإن هذا ادعى لإجراء الحوار والمفاوضات معها حتى تكون ملتزمة أمام العالم كله بما تتعهد به في إتفاق السلام الذى لا يختلف عليه أى من أطراف المشكلة!!!

وكان اللقاء التالى مع عضو آخر بارز من أعضاء «الليكود» هو يوسف بن اهارون الذى يسمونه هناك رئيس أركان اسحق شامير، وهو فى الحقيقة كان يعمل مديراً عاماً لمكتب رئيس الوزراء الاسرائيلى، وهو مصرى الأصل وعاش بداية حياته فى مدينة بور سعيد.... فى الحديث معه ردد بن اهارون نفس الأفكار التى قالها ارينز ومالون، ولكنه فى الوقت ذاته اعترف بأنه ليس متفائلاً بشأن العثر على ممثلين أقوياء لأهالى الضفة وغزة يكونون من غير المؤيدين للمنظمة واعترف الرجل بأن سيطرة المنظمة على هذه المناطق أقوى من سيطرة اسرائيل عليها. والمعروف أنه فى الخامس عشر من مارس الماضى مثل الجنرال «آمنون شاهاج» مدير المخابرات الحربية الاسرائيلية أمام مجلس الوزراء الاسرائيلى فى جلسة خاصة قرر خلالها أن تقارير المخابرات الاسرائيلية تؤكد أنه من الصعوبة - إن لم يكن من المحال - إجراء مباحثات مع الفلسطينيين دون وجود المنظمة.

وأكد «شاهاج» إنه بدون هذه المباحثات فإنه من المرجح أن تستمر الانتفاضة على مستواها الحالى لعدة سنوات أخرى. وفى هذا الإطار كانت استنتاجات بن اهارون مماثلة لتلك النتائج التى توصلت إليها المخابرات الحربية/ الاسرائيلية والتى أثارت أزمة داخل اسرائيل منذ أيام عندما أنكر شامير أن هناك شيئاً من هذا القبيل ثم عاد واعترف بوجود هذا التقرير من المخابرات الاسرائيلية الأمر الذى خرجت معه صحف المعارضة الاسرائيلية فى اليوم التالى تتهم رئيس الوزراء بالكذب. ومع ذلك فقد كان «بن اهارون» مصرّاً فى حديث معى على عدم التحدث مع عرفات وقدم تبريراً غريباً عندما قال لى أن عرفات أعلن منذ أيام أن السلام مع اسرائيل لن يكون سلاماً استسلامياً ولكنه سيكون من نوع سلام صلاح الدين. والحقيقة أننى لم أفهم ما يعنيه المسئول الاسرائيلى، ولكننى شعرت أنهم فسروا هذه العبارة تفسيراً خاطئاً، فافهمته شيئاً عن طبيعة علاقة صلاح الدين بريثشار قلب الأسد أحد زعماء الحملة

الصليبية وهى علاقة كان يسودها رغبة حقيقية فى السلام، وانتهت بصلح «الرملة» الشهير فى بعض المدن الساحلية على ساحل الشام وفلسطين مع السماح للصليبيين بالحج إلى بيت المقدس.

وهكذا كما قلنا من قبل يصبح كل شيء معقداً ومركباً فى منطقة الشرق الأوسط ويعود كل طرف إلى التاريخ البعيد..... ومن هنا سمعنا عن تسميات «يهودا» و«السامراء»، ويبدو أن الجانب الاسرائيلى فسر هذا التصريح الذى أدلى به عرفات بالمعنى الآخر الذى يحمله، والذى جاء بعد ذلك بكثير فى عام ١٢٩١ م عندما قام السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بطرد الصليبيين نهائياً من الشام ومن السواحل.... كل شيء معقد ومركب فى تاريخ طويل من الصراع، والكراهية عملت على بناء حاجز نفسى رهيب بين شعوب المنطقة.... وبين ديانات أنزلها الله تعالى أساساً للهدى والحب والحياة.

**السلام الذى أرادته
إسرائيل.. على مقاسها!**

السلام السخيف

استطاع أحد الأساتذة، ويدعى البروفسير بوقول، أن يحصر عدد معاهدات السلام بين مختلف الدول والمجتمعات منذ بداية تسجيل التاريخ الإنساني، وتوصل الرجل إلى أنه خلال الأربعة الآلاف سنة التي سجلها التاريخ كانت هناك ثمانية آلاف معاهدة للسلام بين مختلف الدول، أى أن عمليات السلام كانت تتم بمعدل معاهدة واحدة كل ستة أشهر.. والأخطر من ذلك أن توصل الرجل إلى حقيقة غريبة تؤكد أن أيا من هذه المعاهدات لم تؤد إلى سلام حقيقى بين الأطراف المباشرة التي وقعت على المعاهدة، بإرادتها، أو على عكس إرادتها.

يقول البروفسير بوقول مؤسس «علم البحث فى أساليب ونتائج الحرب» إن هناك ما يسمى «بالسلام الميكانيكى» ويعنى به السلام الذى تنشده منظمة الأمم المتحدة التى تقف بإمكانيات محدودة تحاول بها تحقيق أحلام وأمال السلام، التى تداعب البشرية منذ فجر التاريخ، ولأن أساس منظمة الأمم المتحدة هو الجمعية العامة، ولأن هذه الجمعية عبارة عن هيئة استشارية وليست تشريعية، فإن توصياتها بالتالى ليست ملزمة وكثيرا ما يضرب بها عرض الحائط تكرارا ومرارا وعلانية، ولعل أوضح مثال على ذلك هو ردود فعل إسرائيل مع كل ما أعلنته الجمعية العامة من قرارات وتوصيات، وكفىنا فى ذلك المتاهات الهائلة التى دخلنا فيها بسبب هذا القرار الغامض والخبيث، المسمى بالقرار رقم ٢٤٢ وتفسيراته المتلوية عن عمد مسبق!!

من ناحية أخرى فإن قرارات الجمعية العامة تأتي أحياناً بعيدة عن المنطق والعدل، وتتماشى في الغالب مع المصالح الدولية، وذلك في الوقت الذي يؤدي فيه حق الفيتو، الذي تتمتع به الدول الخمس الكبرى، إلى الإرباك والظلم في معظم الأحيان، الذي يتم علناً في ساحة مجلس الأمن، وإذا أضفنا إلى كل ذلك افتقار منظمة الأمم المتحدة للوسائل المباشرة التي تمكنها من تنفيذ قراراتها إذا ماتطلب الأمر ذلك، وأن قواتها العسكرية غير دائمة ويشترك فيها بصفة عامة عدد من الدول الصغرى، بما يترتب على ذلك من نتائج عشوائية، ومشاكل لا يمكن حسابها أو توقعها. إذا أضفنا كل ذلك فسوف نصل إلى الحقيقة الواضحة التي تؤكد أن هذه المنظمة الدولية لا تستطيع أن تفرض أو تحسم.

ولعل الصراع العربي الإسرائيلي كان من أبرز المشاكل التي لم تلعب فيها الأمم المتحدة دوراً فعالاً، ونفس الشيء بالنسبة لحرب الجزائر في عام ١٩٥٤، وحرب فيتنام الأولى مع فرنسا، ثم حرب فيتنام مع الولايات المتحدة، ومشكلة برلين عام ١٩٦٠، ومشكلة كوبا عام ١٩٦٢، ومشكلة الأردن ولبنان عام ١٩٥٨، وغزو السوفيت للمجر عام ١٩٥٦، وغزو السوفيت لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، كما أن المنظمة لم تلعب دوراً في الخلافات العالمية الكبيرة مثل الخلاف بين إنجلترا والأرجنتين حول جزر فوكلاند، مما أدى بعد ذلك إلى نشوب الحرب بين الدولتين وكذلك مشكلة قبرص، والكونغو البلجيكي وحقوق الصيد في المياه الإقليمية والتي بسبب عدم حسمها نرى حالياً أزمة بين كندا وأوروبا بعد احتجاز كندا لسفينة صيد أسبانية.. وصراعات ومشاكل أخرى عديدة لم تستطع المنظمة أن تفعل فيها شيئاً يذكر وعلى قمتها تلك المهزلة الإنسانية فيما يسمى بمشكلة البوسنة!

(صحيح أن الأمم المتحدة لعبت دوراً فيما بعد في العراق بعد حرب الخليج الثانية.. لكن هذا استثناء يؤكد القاعدة.. لأنه استثناء جاء في عصر التغيير الذي ألم بالأمم المتحدة في زمن القطب الواحد حين صارت المنظمة الدولية لعبه في يد الولايات المتحدة بعد إنهيار الاتحاد السوفيتي ونهاية الحرب الباردة. بل إن ماجرى في كوسوفا في عام ١٩٩٩ تحت قيادة قوات حلف الأطلسي كان يؤكد الضعف الذي عانت منه الأمم المتحدة بعد أن أخذ الحلف منها زمام المبادرة في تحريك الأحداث

الدولية، والسيطرة عليها.

من هنا كان السلام الذى حققته مصر مع إسرائيل سلاماً مختلفاً بمعنى أنه لم يكن «سلاماً ميكانيكياً» رتيباً وعقيماً كما تحدثنا من قبل، ولكنه سلام إرادة وحيوية وشجاعة نادرة جسدها زعيم مصرى اسمه أنور السادات، استطاع أن ينتزع أعجاب العالم كله ويحقق ما لم تستطع أن تحققه المنظمة الدولية أو الدول الكبرى، أو المجتمع العالمى بأكمله.

ومنذ البداية أرادت مصر أن يكون السلام بينها وبين إسرائيل «سلاماً متكافئاً» لأن هذا النوع وحده من السلام هو القادر على البقاء والإستمرار، ولن ينتهى أبداً إلى ما أنتهت إليه تجارب السلام السابقة والتي كان السبب الأول فى تبديدها وأندثارها هو عدم التكافؤ بين الأطراف، الأمر الذى حول وثائق ومعاهدات السلام تلك إلى هدنة مؤقتة تنتهى بمجرد استكمال أطرافها لأستعداداتهم العسكرية، وكان النموذج الواضح فى هذا الإطار هو معاهدة فرساي التى أجهت حقوق ألمانيا، وكان هذا الأجحاف هو بعينه الشرارة التى أشعلت نيران الحرب العالمية الثانية.

أردناه سلاماً متكافئاً ليحمل بين طياته عناصر البقاء والأستمرار، ولأننا فعلاً كنا نريد سلاماً حقيقياً بعد أن أكتشفنا - كما يكتشف العالم كله الآن - أن الحرب الحديثة لم تعد مغامرة أو مجالا للتنافس بين الشعوب، ولكنها - إذا لم تكن لأسباب قهرية وعادلة - تصبح مجرد نزوة طيش، أو نوعاً من الرفاهية لا تستطيع أى دولة أن توفر نفقاته... كان هذا هو «اتجاهنا الرئيسى»، ولكنهم بعد الفرحة والفرور، التى صاحبت الحلم المستحيل، كان لهم اتجاه آخر!

شيئاً فشيئاً حولوه إلى نوع من «السلام السخيف» كما لو كانت استراتيجيتهم الجديدة قررت الأبتعاد تماماً عن مبدأ «التكافؤ» الذى خططناه منذ البداية:

جاءت السخافة الأولى ممثلة فى مستوطنة ياميت التى بنوها على شاطئ البحر شرقى العريش وكانوا يخططون أن تصبح ميناء فى المستقبل وكانت البيوت والمنشآت هناك فاخرة حتى أن السكن اقتصر على الصفوة من المجتمع الإسرائيلى دون غيرهم، وكان الموقع الذى أختاروه - ومازال - تحفة طبيعية برماله الفضية البيضاء ومياهه

الصافية، والنخيل الكثيف الذى يملأ المكان، وعرضنا الشراء والتعويض ولكنهم لم يوافقوا لأنهم فيما يبدو كانوا يستخسرون أن تصبح هذه المدينة الصغيرة فى أيدينا لدرجة أن المستوطنين هناك كانوا سيكون أمام كل من يأتى لزيارتهم

وعلى أية حال انتهت هذه «السخافة الأولى» بمسرحية مبتذلة قادها الجنرال إريل شارون ولم يسدل الستار إلا بعد أن قامت البلدوزورات الإسرائيلية بهدم جميع المباني والمنشآت فى هذه المنطقة، ومازال الحطام مكوما حتى يومنا هذا فى هذه البقعة التى تعتبر من أجمل بقاع العالم.. لم يكفوا خاطرهم حتى بإزالة الأنقاض والحطام ويعيدوا لنا الأرض كما تسلموها.. غطرسة، والتواء، ومشاعر نفسية مضطربة يظنونها تميزا وتفوقا!

ثم رفعت مصر الستار من جديد على ياميت حين أعادت بنائها فى مابعد ذلك بسنوات.. فى خطوة أدهشت العالم.

■ وجاءت السخافة الثانية على أيدى رئيس الوزراء الأسبق مناحم بييجين الذى طلب الرئيس السادات فجأة وألح عليه أن يجتمعا معا فى منطقة شرم الشيخ لأمر هام جدا جدا؟ وكان أن توجه السادات إلى شرم الشيخ، وأجتمعا مع رئيس الوزراء الإسرائيلى، ومضى الوقت دون أن يسمع كلمة واحدة تستحق أن توصف بأنها هامة أو غير عادية، وأنتهى الاجتماع وأقفل السادات عائدا إلى القاهرة، ليكتشف بعد ذلك أن المقاتلات الإسرائيلية أقلعت من إحدى القواعد الجوية بسيناء والتى كانت مازالت بأيديهم، أقلعت المقاتلات بعد لحظات من اجتماع السادات وبييجين، متجهة لضرب المفاعل النووى العراقى.. وكانت الرسالة المسمومة واضحة للجميع.. فقد أراد بييجين أن يوحى للعرب أنه اتفق مع السادات على ضرب المفاعل العراقى.. رسالة سم وسخف وسياسات شريرة.. ابتلعها الزعيم المصرى بكبرياء الصمت، لأنه كان لايسمح لأى أحداث جانبية بأن تجعله يحيد عن الهدف الأساسى، وكان هدفه الأساسى كأى فلاح مصرى، هو الأرض

■ وجاءت السخافة الثالثة فى مارس عام ١٩٧٨ ممثلة هذه المرة فى غزو عسكرى إسرائيلى كامل لجنوب لبنان الذى مازال يعانى حتى يومنا هذا.

■ ثم جاءت السخافة الرابعة بعد استشهاد السادات، وتولى الرئيس مبارك للحكم، وهنا انفجرت مشاعر القلق المزمّن من جانب الإسرائيليين جميعاً فقد كانوا يعلمون جيداً أن مبارك من قلائل العسكريين المحترفين في العالم العربي، وأنه خاض أول حرب منتصرة ضد إسرائيل وأستطاع أن يتصدى لسلّاحهم الجوي، الذي هو «قدس الأقداس» عندهم، وموضع فخرهم وزهوهم جميعاً، كذلك كانت ملامح مبارك - وما زالت - قوية، ولم يكن قد أفصح عن نفسه قبل توليه الرئاسة، فخاف الإسرائيليون على مصير السلام، وكانت هذه المخاوف نفسها قد ظهرت عند البعض حتى قبل استشهاد السادات، فكانوا يسألون: ماذا يمكن أن يحدث بعد السادات وكيف نضمن استمرار السلام؟.. حشروا أنوفهم بشكل سخيّف في شئوننا الداخلية بسبب قلقهم المزمّن والمتناقض في الوقت ذاته، وبعد سنوات اكتشفوا أن الرجل الوحيد القادر على تحويل حلم السلام، إلى حقيقة واقعة وملموسة.. هذا الرجل اسمه حسنى مبارك.

■ لم يكن هذا ليجعلنا ننجو ونتجنب مسلسل السخافات الذي يهب علينا من اتجاه الشرق، فجاءت السخافة الخامسة ممثلة فيما عرف بمشكلة طابا.. أرض مصرية منذ قيام الدولة المصرية على إيدى أجدادنا القدامى، ومع ذلك ساد «المزاج السخيّف» وتمكن من كل الإسرائيليين في آخر محاولة للأخلال بمعادلة «السلام المتكافئ» وتحويله إلى سلام قهرى يفرضه الجانب المنتصر!! ووقف مبارك بصبر ودبلوماسية وهدوء سيسجله التاريخ، وأستطاع أن يعيد البقعة الأخيرة من الأراضى المصرية، ويقيم للمرة الأولى في التاريخ حدوداً ثابتة وراسخة مع الجيران الجدد!

■ وفي إطار التدخل في الشئون الداخلية، جاءت السخافة السادسة حول لإجتماع الثلاثى الذى كان قد عقد فى الأسكندرية بين مبارك وفهد والأسد.. إجتماع لم يحضره غير القادة الثلاثة وخرج بيان رسمى عما دار به، ومع ذلك أصروا بسخافة أن الإجتماع كان موجهاً إليهم ولمنع عملية التطبيع فى العلاقات بينهم وبين بعض الدول العربية.. كيف عرفوا ذلك؟ وكيف توصلوا إلى مايجرى داخل هذا الإجتماع المغلق؟... مجرد سخافة.

■ ثم جاءت بعد ذلك السخافة السابعة - ولانقول الأخيرة - ممثلة فى رفض التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية، وبالله عليكم وعلى جميع سكان هذا الكوكب المتناقض، كيف يمكن لدولة أن تتحدث عن السلام وتنشده وفى الوقت نفسه

ترفض التوقيع على مثل هذه المعاهدة؟ إن إستراتيجية السلام التي اتبعناها منذ البداية لم تقم على خيال و«أوتوبيا» رومانسية، فتحن نعلم جيدا ونعى جيدا المثل الرومانى الذى يقول: «عندما تعمل للسلام استعد للحرب» لذلك لم تقم مصر بتسريح جيشها، ولم تبخل عليه من قوتها اليومى لشراء مايكفل له القوة من الأسلحة الحديثة.. وفى ذلك لم يكن الهدف هو إقامة استعراضات سنوية - وجدير بالذكر أن مبارك ألغى هذه الاستعراضات منذ توليه الحكم - ولكن كان الهدف دائما هو حماية السلام، وحماية الأمن القومى، وتوفير القدرة عليّ مجابهة زى تحد... ولكن ميول الاستهتار والسخف الإسرائيلى، ترى عكس ذلك، وتريد قوة نووية، وتفوقا شاملا على كل من الدول العربية، وفى نفس الوقت تقول أنها تريد سلاما.. فأى سلام هذا بالله عليكم.. لعنكم الله جميعا.

إن هذه المناورات لم تخل علينا منذ البداية، ولم نبتلع سخافاتهم الواحدة تلو الأخرى، من قبيل الضعف أو الأستكانة، ولكننا ابتلعناها من قبيل الأحساس بالمسئولية، والإحساس بأننا كبار ولسنا أقزاما، ومنذ البداية فقد كنا نحن الذين صنعنا السلام وأقمناه، ونحن الذين صبرنا عليه حتى كبر وشد عوده.. وعلى الجانب الآخر أن يكبر بدوره ويكف عن مناورات القلق والميكافيلية التى يعتقدون أنها سياسة عبقرية.. عليهم أن يفعلوا ذلك، أو يتوقعوا ظهور «شمشون» جديد ليهد المعبد على رؤوس الجميع □

كامب ديتون . . وكامب ديفيد

توقفت الحرب القذرة في البوسنة، بعد أربع سنوات تقريبا من كل ما عرفتة الإنسانية من انحطاط ووحشية وخداع وإستغلال.. توقفت الحرب الهمجية بعد أن حصدت أرواح أكثر من خمسة وثلاثين ألف رجل وطفل وامرأة.. أغلبهم، أن لم يكن جميعهم، لقوا حتفهم خلال مذابح حقيرة بعيدا جدا عن ميدان القتال وشرف الاستشهاد «وقدسية» السلاح.. إن كانت لاتزال هناك أى «قدسية» تذكر لأى سلاح، بعد كل الذى شاهدناه بسببه من مأس، وبصفة خاصة خلال هذا القرن الأهوج من الزمان.

لقد شهد قصر الإليزية بالعاصمة الفرنسية مراسم توقيع اتفاق السلام بين الأطراف الثلاثة المتصارعة: البوسنة وصربيا وكرواتيا، وبينما كان الزعماء الثلاثة يوقعون اتفاقية السلام، كان يقف خلفهم الرئيس الأمريكى كلينتون والرئيس الفرنسى جاك شيراك، ورئيس وزراء روسيا ورئيس وزراء انجلترا، ومستشار ألمانيا، ورئيس وزراء أسبانيا.. صحيح أنهم صفقوا وتبادلوا التهانى بعد انتهاء مراسم التوقيع داخل القاعة الفخمة بقصر الإليزية، ولكنه صحيح أيضا أنهم سيكون لهم موقف آخر مختلف تماما إذا ماتم انتهاك هذا الاتفاق!

لقد لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دورا أساسيا فى تحقيق اتفاق «كامب ديتون للسلام» بين الأطراف المتصارعة فى البوسنة، وأستطاعت واشنطن أخيرا أن تحقق المهمة المستحيلة لتضيف إلى رصيدها إنجازا آخر يؤكد قوة الولايات المتحدة ومدى

تأثيرها على المسرح العالمى، وقد جاء ذلك فى نفس الوقت الذى لم تنس فيه التزاماتها فى بؤرة الصراع الأكبر فى منطقة الشرق الأوسط والذى بدأ ينفرج. سواء أراد البعض أم لم يرد. بعد اتفاق كامب ديفيد الشهير بين مصر وإسرائيل.

.. مرة أخرى أثبتت الولايات المتحدة العجز الأوروبى، وقد جاء هذه المرة فى صراع كان يدور فى قلب القارة الأوروبية نفسها، وإذا كانت تفاصيل السلام بين مصر وإسرائيل قد دارت فى كامب ديفيد، فإن اتفاق السلام فى البلقان قد دارت تفاصيله فى كامب ديتون بولاية أوهايو، وهى عبارة عن قاعدة جوية أمريكية ضخمة تضم أقوى ماتملكه الولايات المتحدة من طائرات قتال حديثة، وجرت مراسم عشاء بين الأطراف المتصارعة فى البلقان فى إحدى حظائر هذه القاعدة وكانت موائد العشاء مرسومة بين طائرات ف- ١٨ وف- ١٥ وف- ١٦ وطائرات الشبح التى لها ليس نظير فى العالم كله.. وكانت الرسالة واضحة للجميع.

وربما كان عمق الكراهية والأحقاد بين أطراف الصراع فى البلقان أعظم بكثير من عمق الكراهية والأحقاد بين الأطراف العربية الإسرائيلية، ومع ذلك حققت الدبلوماسية الأمريكية نجاحا فى تحقيق اتفاق السلام رغم الشواهد التاريخية والراهنة التى تعكس بوضوح كراهية واحتقار المسلمين للصرب، وكراهية واحتقار الصرب لمسلمى البوسنة، أضف إلى ذلك كراهية واحتقار الكروات لكلا المسلمين والصرب.. كما لو كانت دائرة شريرة تنذر باندلاع الخطر فى أى لحظة فى المستقبل، ومع ذلك صمم الأمريكيون على قبول التحدى لتأكيد سطوتهم ونفوذهم العالمى داخل بقعة من الأرض فى قلب القارة الأوروبية تفتقر إلى أى سلعة استراتيجية تحتاج إليها أمريكا أو الحضارة الأوروبية بشكل عام كما هو الحال بالنسبة لحرب الخليج أو أى حرب فى الشرق الأوسط.

● وإذا تركنا المثاليات جانبا وهبطنا إلى أرض الواقع، فإن هذا الواقع يقول لنا أن إرسال واشنطن لقوات بهذا الحجم إلى أراضى البوسنة، يأتى فى المقام الأول لإنقاذ حلف الأطلسى أكثر منه لإنقاذ البوسنة، وفى ذلك فإن التفسير التاريخى لهذه الخطوة يعتمد أساسا على حقيقة أن حلف الأطلسى

يمثل التزاما أمريكيا «بالأمن الجماعي» التزمت به الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، وكان الهدف الأول من قيام هذا الحلف هو الوقوف أمام النزعة التوسعية السوفيتية التي تبناها ستالين بعد الحرب العالمية الثانية، وبدأ بمقتضاها في التهام دول أوروبا الشرقية الواحدة تلو الأخرى والجميع رأى بعد ذلك كيف دخل الحلف إلى البلقان من جديد ليفرض سطوته بعد أن تغيرت خريطة العالم.. أكثر وأكثر.

ولقد استنبط الأمريكيون درسا أساسيا بعد الحربين العالميتين قوامه ان مصير الولايات المتحدة يرتبط بشكل وثيق مع المصير الأوروبي، وانه في كل مرة حاولت فيها واشنطن ان تنأى بنفسها عن الصراع الدائر في أوروبا. كما حدث في الحربين العالميتين الأولى والثانية. كانت تجد نفسها مضطرة في النهاية لخوض هذه الحروب بعد ان تكتشف في كل مرة ان الأمن والاستقرار الأمريكيين يعتمد الى درجة بعيدة على الأمن والاستقرار الأوروبي.

من هنا كانت فكرة قيام حلف الأطلسي بعد الحرب الثانية، ولكن بعد نشوب مشكلة البلقان في قلب أوروبا، وقلب نطاق مهام الأطلسي الذي قام أساسا لمجابهة الاتحاد السوفيتي بأكمله وليس جزءا ضئيلا منه بحجم البوسنة!. فان هيبة هذا الحلف، الذي قدمت له الولايات المتحدة الكثير طوال خمسين عاما تقريبا، كانت هيبة هذا الحلف في مهب الرياح بما لذلك من آثار سلبية على الأمن الأوروبي، وبالتالي الأمن الأمريكي، وذلك في إطار المهمة الافتراضية الأولى للأطلسي الا وهي ردع واحتواء أي عدوان روسي، وهكذا بات واضحا للأمريكيين ان عدم تدخلهم في مشكلة البوسنة، دبلوماسيا وعسكريا، معناه ببساطة تامة نهاية الحلف الأطلسي وكل ما يتبع ذلك من ترتيبات أمنية شغلوا أنفسهم بترتيبها طوال السنوات الماضية.

وفي ذلك فانه طوال المحادثات والمجهودات الدبلوماسية الأمريكية لم تكن هناك أي اعتراضات من جانب الأمريكيين، ولكن عندما وصلت الأمور الى مرحلة إرسال قوات عسكرية «٢٠ ألف رجل» ثارت ثائرة الأمريكيين بشكل عام، وبدأ شبح فيتنام يطل من جديد على الشعب الأمريكي، ووصل الأمر الى حد مناداة البعض بالعودة الى «قوقعة الانعزالية» رغم ما يمكن ان توفره من شعور زائف بالأمان، ولكنه في

رأيهم أفضل بكثير من ارسال الشباب الأمريكي للموت فى أوحال البوسنة والغرق فى حمامات الدماء هناك من جراء تهديدات جنرالات الجنون من الصرب أمثال الجنرال راتكو ميلاديتش، وتهديدات المتطرفين الاسلاميين الذين يعملون مستقلين فى أراضى البوسنة دون قيادة أو ضوابط تحكمهم، ومن الميليشيات المحلية التى ما زالت منتشرة فى كثير من مدن البوسنة، ومن المليونى مواطن المشردين فى أرجاء البلاد دون مأوى، ومن ستة ملايين لغم مزروعة حالياً فى أراضى البوسنة دون خرائط أو وثائق تحدد مواقعها.. ومن أخطار أخرى كثيرة تراكمت على مر سنوات طويلة، تعود الى بداية هذا القرن، الذى امتلأ بكل أنواع المتناقضات والتى بدأنا الآن. فى نهاية القرن نفسه. نحصد ثمارها الأليمة.

● من بين هذه المتناقضات داخل المجتمع الأمريكى نفسه، انه بخلاف «عقده فيتنام»، ومنذ إلغاء نظام التجنيد الإجبارى والاعتماد على نظام التطوع لتكوين الجيش الأمريكى ومختلف أفرع القوات المسلحة هناك، فانه كان من المفروض ان تتلاشى حساسيات ارسال الجنود للقتال فى الخارج على أساس انهم تطوعوا بمحض إرادتهم، واختاروا هذا النوع من العمل كسبيل للحياة، ولكن الذى حدث هو انه منذ هذا التاريخ أصبح المجتمع الأمريكى شديد الحساسية والتردد فى ارسال قواته المسلحة للقتال فى أى مكان فى العالم، كما لو كانوا (على حد وصف صحيفة الواشنطن بوست) مجموعة من التحف الرقيقة النادرة التى لا ينبغى أبدا خروجها من المتحف، ولا ينبغى أبدا المخاطرة بهم فى أى مقامرة من أى نوع. وهذه مشكلة جادة فرضت نفسها على مسرح الحياة الأمريكية خلال الآونة الأخيرة، وقد نعود لها بالتفصيل فى مناسبة أخرى.

على انه مجرد توقيع الاتفاق بالأحرف الأولى فى الشهر الماضى، وبدأت الحياة تعود الى طبيعتها فى أراضى البوسنة خاصة فى سراييفو، وبدأ الأمريكيون فى أعداد المطارات هناك لاستقبال الاف من طائرات الشحن الأمريكية التى ستصل تباعا خلال الأشهر القادمة لنقل المعدات والمؤن وستين الفا من الرجال من بينهم عشرون ألف جندى أمريكى وأربعون الفا آخرون من قوات حلف الأطلنطى لن تقتصر مهمتهم على الفصل بين القوات المتحاربة، اذ أن روح الاتفاق تقوم على تصور بناء عملية

سلمية ومصالحة بين الأطراف، تتوقف خلالها تماما عملية التطهير العرقي وتسمح لما يقرب من مليوني مواطن تم تشريدتهم بسبب العمليات الحربية، إما بالعودة الى ديارهم أو تعويضهم عن الأضرار التي لحقت بهم، كما يقضى الاتفاق على القبض على جميع مجرمي الحرب الذين قتلوا الأبرياء واغتصبوا النساء، وتقديمهم الى محكمة دولية خاصة في لاهاي، كذلك فانه في الوقت الذي ينص فيه الاتفاق على سلطة الحكم الذاتى للمسلمين الكروات والصرب البوسنيين، فانه في الوقت ذاته يعترف بدولة البوسنة كدولة مستقلة ذات سيادة في أطار حدودها الدولية، ولقد كان من أبلغ ما قيل بعد الاتفاق ما أعلنه الرئيس على عزت بيجوفيتش رئيس البوسنة من ان «هذا الاتفاق مثل الدواء المر الذى يجب علينا ان نتجرعه من أجل الشفاء».. أما وزير خارجيتنا عمرو موسى الذى حضر مراسم الاحتفال فقد أعلن بكل شجاعة وصراحة «ان الاتفاق هو شهادة وفاة ليوجوسلافيا السابقة ونهاية لفكرة صربيا الكبرى أو أى دولة كبرى تريد الهيمنة على الآخرين»..

● ولأننا نعيش فى عالم متشابك ومتداخل، فقد احسست وقتها كما لو أن عمرو موسى يقول «ان اتفاق طابا بين الفلسطينيين والاسرائيليين معناه نهاية اسرائيل الكبرى».. وليس «أن تفاف البلقان معناه نهاية صربيا الكبرى».. ولأنه كما نعرف من خلال تجربتنا الرائدة فى عملية السلام بمنطقة الشرق الأوسط ان السلام. للعجب. أصبح له شهداء وضحايا استطاعوا النجاة من جحيم الحرب والمعارك، ولقوا حتفهم أو استشهدوا عندما تبنا اتجاه السلام فى عالم أصبح فيه الطريق الصحيح والطبيعى غير عادى وغير مألوف بالنسبة لضعاف العقول، الذى شوشت الأحقاد والدعاية الجاهلة على أسلوب تفكيرهم، قلنا ان نتخيل ماذا يمكن ان يحدث خلال المستقبل فى منطقة البلقان التى امتزجت فيها الكراهية والأحقاد بشكل عميق ابان فترة الكبت الأيديولوجى الذى استمر سنوات طويلة، وبشكل غير مسبوق فى أى منطقة أخرى فى العالم.

ومع ذلك، ولأنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح، فان السلام قادم لا محالة على كل ربوع وأرجاء الأرض، ربما قريبا جدا وربما بعد قرن آخر من الزمان، ولكن المهم أن البشرية بدأت تعمل بجدية فى هذا الاتجاه بعد أن أيقنت تماما انه لا سبيل لاستمرار الحياة بدون السلام والاستقرار، ولكن لأن معظم الأباء والأجداد قد اخطاوا

الطريق، ولأن خطايا الآباء تقع على كاهل الأبناء، كما يقول الأنجيل، فإن علينا جميعاً أن نكفر عن خطايانا السابقة، ونُدفع الثمن الباهظ خلال فترة الانتقال الحرجة والصعبة، من طريق الخطأ، والكذب، والخداع، إلى طريق الصواب والحق والمستقبل.. وفي ذلك فإن الأقدار لن تفرق أبداً بين دولة صغيرة في الحجم البوسنة، ودولة كبرى مثل الولايات المتحدة.. فالأقدار لا تفرق في عدالتها وتتناسى الرحمة والشفقة عندما تنزل العقاب...

وداعا للحرب. . وليس للسلاح!

نعرف جميعا ان الروائي العالمى إرنست همنجواى، خرج بقصته الشهيرة: «وداعا للسلاح» وذلك بعد تجربة شخصية مريرة خاض خلالها بعض معارك الحرب العالمية الأولى التى دارت فى ايطاليا، تجربة أثرت فى كيانه كله واتجاهاته الفكرية، وصلت إلى منتهاها. كما نعرف جميعا. بانتحار الأديب العالمى الشهير، عندما وضع «سلاحه» (بندقية صيد) عند نقطة التقاء الرقبة بأسفل الرأس، وضغط على الزناد، فودع الحياة بأسرها.. وداعا تعانق فيه «السلاح» مع الإنسان الخلاق، وتجاريه المريرة.

إذن فهى التجربة الشخصية والمباشرة التى تجعل الناس يفهمون حقيقة الأمور، فتؤثر فيهم ويؤثرون فى غيرهم، وفى حالة الحرب فإن أحد لن يفهم شيئا، ولكنه بالقطع سيشاهد أمام عينه مآسى وفظائع، وأحزاناً، ومخاوف.. يشترك المنتصر والمهزوم فى متابعة فصولها، والإحساس بها إلى آخر أيام العمر، بل أن البعض يقول: إن ثمة «رابطة مقدسة للسلاح» تربط بين أى طرفين محاربين نتيجة المشاعر الإنسانية المتماثلة، والتى تنبع من مؤثر واحد يحتوى الجميع برا وبحرا وجوا فيما يسمى بالحرب.

ومن هنا كانت الحفيظة الغربية غير المنطقية، وغير المتوقعة على الإطلاق والتى تتمثل فى أن العسكريين المحترفين هم أكثر الناس مقنا وكراهية للحرب، فهم وحدهم الذين يعرفون. إن لم يكن قد مارسوا. ويلات الحرب وجنون الأسلحة الصماء التى ينطلق الموت من فوهاتها، ومن هنا أيضا كان صقور الحرب هم أنفسهم أبطال السلام،

وذلك بشرط أن تكون الحرب حفيضة يخوض الجانبان غمارها حتى النهاية، ولا يهم في ذلك: من المنتصر؟ ومن المهزوم؟ لأن التجربة تصبح واحدة للجميع، أما إذا كانت الحرب نزهة من جانب واحد تنتهى بالأمجاد وأكاليل الغار، فإنها تتحول في هذه الحالة إلى دعوة للمزيد من المعارك والحروب.

ولذلك فانه عندما وقف الرئيس الراحل أنور السادات ليعلن في إحدى خطبة بسذاجة مقصودة وغير بريئة. لأنه بدأ في عملية الخداع الاستراتيجي لإسرائيل قبل سنوات من نشوب حرب التحرير. وقف السادات يعلن انه مستعد لإعادة فتح قناة السويس للملاحة الدولية من أجل صالح المجتمع الدولي في كل أرجاء العالم وأن على إسرائيل من أجل ذلك أن تنسحب إلى خط العريش. رأس محمد.. عندما أعلن السادات ذلك ضحك مناحم بيجين، ومعه كل قادة النصر السهل في يونيو ٦٧، بل وصل الأمر إلى حد الإستهزاء عندما وقف بيجين يعلن أنه لو كان السادات يريد أن يأخذ أرضه مقابل فتح قناة السويس، فالأفضل له ان يأتي ليأخذ «شيئا آخر»، ونطق اسم هذا «الشيء الآخر» باللغة البولندية التي هي لغة بلده الأصلي قبل ان يأتي الى فلسطين!

أما عندما اقتحم السادات قناة السويس بقواته العسكرية وذاقت إسرائيل لأول مرة ويلات الحرب ومرارتها، ففد كان مناحم بيجين نفسه هو الذي أخلى سبيلاً إلى ما وراء خط العريش. رأس محمد بكثير جدا وحتى آخر ملليمتر من أراضيها وعمل على اقرار السلام مع مصر، ولم يتفوه بأى ألفاظ «باللغة البولندية» ولكنه قال بوضوح قبل وفاته انه سيموت وسيذهب إلى قبره، ومعه وثيقة كامب ديفيد!!

إذن فالحرب لابد ان تكون متكافئة ليصل طرفاها إلى حقيقتها وجوهرها وانها باهظة على النواحي الإنسانية بحيث أصبحت فوق طاقة أى إنسان، إلا في حالة واحدة وهي ان يكون هذا الإنسان مهددا في شرفه وشرف وطنه، أو في حقوقه الشرعية، أو في حريته وحرية بلاده.. من هنا يأتي الدافع المعنوي: هذا السلاح السرى والطاقة السحرية التي جعلت فيتنام تتصدى بشجاعة وإصرار لجحافل الجيوش الأمريكية، وجعلت أفغانستان على الناحية الأخرى تتصدى لجحافل جيوش الاتحاد السوفيتى السابق، وتجعل، حتى يومنا هذا، الشيشان تتصدى لجحافل الجيوش الروسية.

ولقد نقلت لنا شبكة «إن بي سي» الأمريكية منظرا فريدا كان هو الدافع لفكرة هذا المقال، فقد راينا عددا من الأمهات الروسيات داخل العاصمة جروزنى يجلس فى إحدى المكاتب ويتفحصن صور الجنود الروس الأسرى، ليتعرفن على أبنائهن، ثم جاء أحد هؤلاء الأبناء فى ملابس عسكرية ودخل المكتب، فإذا به يجد أمه أمام عينيه، والنتى ما أن راته حتى صاحت بالبكاء والصراخ، ولم يتمالك هذا الجندى العملاق بملابسه العسكرية الكاملة إلا أن يبكى هو الآخر محتضنا أمه، وسند رأسه على صدرها كالطفل الرضيع، وانخرط الجميع فى حالة بكاء هستيرى، ولكنه طبيعى وإنسانى، وفى نفس اللحظة كان المسئول الشيشانى عن هذه العملية يجلس خلف مكتبه راضيا ومبتسما.. فبلاده لم تعتد على أحد، وإنما تكتفى بالدفاع عن نفسها وعن حريتها، وفى ذلك يتحمل أبنائها ويلات الآلة الحربية الروسية الضخمة بينما لا تملك أيديهم غير أسلحة بسيطة. ومع ذلك فإنهم يتحملون ويحاربون بعزيمة وقوة مردها الأول الدوافع المشروعة وما يتولد عنها من طاقة سحرية يسمونها بالروح المعنوية، التى لم تتوصل إلى إنتاجها حتى الآن أى ترسانة عسكرية.. لا فى الولايات المتحدة الأمريكية، ولا فى روسيا، ولا فى أى دولة فى العالم.

وبعد أن خرجت أمريكا من فيتنام خاضت عدة تجارب عسكرية كلها باءت بالفشل، ففى ليبيا كانت نتائج الهجوم الجوى الأمريكى، رغم طائرات القتال الحديثة والصواريخ والقنابل الذكية المتقدمة، كانت هذه النتائج ضئيلة ومتواضعة إذا ما قورنت عمليا وفنيا بالامكانات التى تم حشدتها لهذا الهجوم الجوى، أما بالنسبة لعملية تحرير الرهائن لأمريكيين فى طهران فقد كانت فشلا ذريعا لا يستطيع أى حاسب اليكترونى ان يتنبأ به.. وكانت العملية الوحيدة الناجحة هى عملية «عاصفة الصحراء» أوحرب الخليج وذلك لسبب أساسى يكمن فى التأييد الدولى والتحالف الدولى الذى وقف مع القوات الأمريكية، وايضا لأن الجانب الآخر (الجيش العراقى) لم يكن عنده قضية يدافع عنها، ولم يكن لديه «دوافع» تكفى من أجلها، فاختلفت من بين صفوفه هذه الطاقة السحرية التى تكلمنا عنها، والنتى تجعل من الدمار والموت والفناء أكثر رحمة من الحياة الذليلة والعيش بدون شرف وكبرياء، ولذلك شاهدنا ما سماهم صدام حسين والله الاعلامية، «بالنشامى» فيما هو أشبه بالكوميديا التراجيدية التى تغلب فيها الأحزان والأسى، يستسلمون لخصمهم فرارا من جحيم زعيمهم!

وكما كانت فيتنام بالنسبة لأمريكا، كانت أفغانستان بالنسبة للاتحاد السوفيتي السابق، وكما ساعد هذا الاتحاد السوفيتي الفيتناميين الشماليين ضد قوات العم «سام» ساعدت واشنطن أفغانستان بكل ما يمكن بل انها زودت الأفغان بأسلحة متقدمة ضنت بها على حلفائها من بينها صواريخ ستنجر المضادة للطائرات والتي أصبحت الآن في حوزة إرهابي ما بعد الحرب الأفغانية، وكما كانت ليبيا وطهران بالنسبة لأمريكا، أصبحت الآن الشيشان بالنسبة لروسيا، ومع ذلك علينا ان نتعقل وندرك حقائق الأمور وان نتوقع انه إذا ما استمرت روسيا في اتجاهاتها لقمع الشيشان عسكريا فإنها ستنتج أخيرا في ذلك بسبب التفوق الذي لا يقارن، ولكنها ستتحمل خسائر فادحة بسبب روح واداء الرجال في الشيشان.

ولما كان كثير من المراقبين يعتقدون ان عصر قهر الشعوب قد ولى وانتهى، ويؤيد ذلك التجارب الإنسانية وشواهد التاريخ، فإن مجال الصراع والتنافس بين المجتمعات الإنسانية ينحصر الآن في مجالات الانتاج والتطور، ومجالات الفنون والحضارة، وينحصر أيضا وبشكل ملموس مباشر في ملاعب كرة القدم، وملاعب التنس والأسكواش، وحمامات السباحة، وميادين الرماية، والقفز بالمظلات، والألعاب الهوائية والطائرات الشراعية، لذلك لا ينبغي ان يعجب المرء من تحول أسلحة الماضي مثل السيف والرمح والقوس والسهم، والبندقية، والطبجة وحتى المظلات والطائرات.. كلها تحولت إلى أنواع من الرياضة لامتناس روح التنافس بين الأفراد والمجتمعات ورغبتها في التفوق، والجنوح بها إلى اتجاهات صحية بعيدا عن الدمار والموت الذي كانت تحدثه في الماضي، ويقيني ان هوة تسلق الجبال حاليا هم أشد لياقة وقوة من أى جندي في أى قوات خاصة لءى دولة في العالم وأن الواحد منهم يشعر بدرجة أكبر من «حلاوة» الانتصار، عندما يقهر قمة جبل شاهق، ويقف وحده فوق الجبل المهزوم!

ولذلك فإنه عندما يتجانس المجتمع الإنساني، وتتحد صفوفه، ويتحلى بالنظام فإنه يصبح قوات هائلة مسلحة بالأجهزة والمعدات والعلم والتكنولوجيا، هدفها الأوحده هو العمل والإنتاج في منظومة بشرية هائلة تعود ثمارها على الجميع، وعلى الوطن الذي

يستطيع ان يتنافس ويباهى بذاته وبإنتاجه بين باقى دول العالم.. تماما كما يحدث حاليا فى اليابان والمانيا والصين ومجموعة نمور آسيا. أما إذا انقسمت المجتمعات على نفسها ووجه أفرادها صراعاتهم وتنافسهم إلى بعضهم البعض، فلن نرى غير مجتمعات إنسانية معاقة تجابه التصحر والجفاف والمجاعة.. والتخلف المشين.

وليس معنى هذا الكلام اننا أصبحنا نعيش فى عالم مثالى يعمل من أجل «الخبز والزيد» وينسى «المدفع» لأننا مازلنا حتى الآن ولسنوات طويلة فى المستقبل نحتاج لضمانات القوة العسكرية لحماية مكاسب أى مجتمع والدفاع عنها، ولردع أى نوايا أو اتجاهات عدوانية، ولكن كما قلنا من قبل فإن الحرب ستصبح الملاذ الأخير ومن أجل حقوق أساسية ومشروعه.. وليست أبدا من أجل عريضة أو بلطجة دولية، فالتجربة أصبحت رهيبة، والثمن أصبح غاليا جدا بالنسبة للدول العظمى فى صراعها مع صغرى الدول.

ومن أجل ذلك يظل السلاح مطلبا أساسيا للجميع، ولكن لأننا عشنا فى غفلة تامة لحقبات طويلة، فإننا لم ندرك، ولم نعبأ بطبيعة سباق التسلح وغايته.. فمنذ استخدام الإنسان الأول جسما صلبا استطاع به أن يقتل خصمه.. منذ هذا التاريخ والإنسان يسعى للحصول على «السلاح الأسمى أو النهائى».. هذا السلاح القوى الذى يردع الجميع، والذى يعمل بمجرد الحصول عليه على تخويف الآخرين وإرهابهم إلى الأبد، وقد كان هذا السلاح كما نعرف الآن، هو السلاح النووى الذى حسم المشوار الطويل فى سباق التسلح.

وكان هذا السلاح بعينه هو السبب الأساسى فى عدم نشوب حرب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الذى انهار أخيرا لأسباب تتعلق بالاقتصاد والإنتاج والادارة والعقيدة.. وعندما تم حسم سباق التسلح، بدأت الدول التى تعيش فى غفلة تفتيق من سباتها وتسعى بدورها للحصول على هذا السلاح النهائى، ولكن الذين حسموا السباق يعملون حاليا جاهدين وبفاعلية كبيرة على احتكار هذا السلاح لأنفسهم، وعدم شيوعه بين الجميع، وكانت إسرائيل من بين الدول التى نجحت فى الحصول على هذا السلاح فخلفت لنا مشكلة جديدة وخطيرة فى المنطقة ستستنفد جزءا كبيرا من طاقاتها فى المستقبل.

وحتى بعد تأكد حصول إسرائيل على هذا السلاح، فقد كان الجميع مازالوا في غفلتهم المريحة، فيما عدا «مصر مبارك». ورغم اتفاقية السلام بينها وبين إسرائيل.. تنبّهت مصر وأخرجت هذه القضية إلى دائرة الضوء والاهتمام، وأصر الرئيس مبارك على رفض التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية دون توقيع إسرائيل على نفس المعاهدة، لأننا نستطيع ان نتصور شكل المنطقة في المستقبل، إذا ما كانت إسرائيل وحدها تملك هذا السلاح النهائي.. وفي هذا الاطار يتحدد جزء كبير من شكل الصراع الاقليمي في المستقبل، فالصراع هو جوهر الحياة، وليت أشقائنا في هذه المنطقة المنكوبة دائما بخلافاتها المزمّنة، والتي لا مبرر لها، ليتهم يقفون معنا من البداية، بدلا من اللحاق بالأحداث بعد ان يتم حسمها، تماما كما فعل البعض في مرحلة الصراع العسكري، وكما فعل الجميع مع بداية مرحلة السلام.. وهكذا لن نستطيع أبدا ان نقول «وداعا للسلاح» □

**الارهاب يحاول حصار
السلام!**

شالوم . . ودماء!

أدلي مواطن أمريكي من كاليفورنيا بأعمق وأطرف تعليق عن حفيقة مايجري في عالمنا والأوضاع التي وصلنا إليها، فقد قال الرجل البسيط إنه مادام كان الكون الذي نعيش فيه يضم بلايين النجوم والكواكب، فإنه لابد أن تكون هناك كواكب أخرى نشأت فوقها الحياة، وأن سكان هذه الكواكب اقتربوا وطاقفوا حول الكوكب الذي نعيش فيه.. ثم اهتمدوا على الفور، وقد يكون السبب وراء ذلك هو أن هناك رسالة مافى الفضاء الكونى تدعو الجميع إلى زيارة الكواكب الأخرى والعيش فى أى واحد منها، باستثناء كوكب واحد ينبغى على الجميع عدم الاقتراب منه إذ أن الجنس الذى يعيش فيه جنس شرير بطبعه، يتبارى كل واحد منهم للقضاء على الآخر وسفك دمه، فهم يكرهون بعضهم البعض، ويكرهون كل المخلوقات الأخرى، ومن ثم فأنكم إذا اقتربتم من كوكبهم فإن هؤلاء الأشرار سيقضون عليكم لا محالة، ولذلك لا تقتربوا تحت أى ظرف من الظروف من هذا الكوكب الشرير المسمى بـ «الكرة الأرضية»

تعليق بسيط وطريف، وشديد العمق، يصور الأوضاع الراهنة تصويرا بليغا، ولننظر بأنفسنا لأحداث أيام رأينا خلالها سفاح العراق الذى جوع شعبه، وفتك بجيشه، وبدد ثروات وطنه، رأيناه فى النهاية يسفك دماء عائلة اكملها بلا ذنب سوى أن اثنين من أفراد هذه العائلة صاهراة بعد أن تزوجا ابنتيه - ودعونا من قصص الخيانة وأساطير

الأسرار العسكرية فليست هناك خيانة لحاكم NSF بلاده NSF، وليست هناك أى أسرار عسكرية يمكن أن تخفى على وسائل الاستطلاع الحديثة وأجهزة جمع المعلومات وإذا كان الجنون لدى هذا الحاكم قد وصل إلى هذا الحد، فأى جنون هذا الذى دفع «الأب» إلى ترميل ابنه، ودفع «الجد» إلى تيتيم أحفاده !!

وفى نفس هذه الفترة التى لا تتعدى أيام معدودة، قام رجال الجيش الجمهورى الأيرلندى بتدبير عدة انفجارات فى قلب العاصمة لندن، عملت على NSF عملية السلام التاريخية، والتى طال انتظارها عقودا طويلة من الزمن، بين بريطانيا وأيرلندا، وعندما بدأ الأمل يلوح فى الأفق أندلعت فجأة هذه الانفجارات لتقتل من قتلت من أبرياء لاناقة لهم ولاجمل فى هذا الصراع، الذى نسى معظم الناس هناك أسبابه ونسفت فى الوقت ذاته بارقة الأمل التى طال انتظارها والجهود والتضحيات التى بذلت من أجلها.

وهو ما إنتهى فيما بعد حين تم توقيع إتفاق سلام فى ايرلندا.. غير أننى أعود إلى تلك الأيام وفى نفس هذه الفترة التى لا تتعدى عشرة أيام، تكرر نفس السيناريو بمدينة القدس وعسقلان، خلال هجومين انتحاريين قاما بهما أثنان من أعضاء منظمة حماس، وسالت دماء الضحايا هنا وهناك، فى فصل جديد من مهزلة رفض السلام الذى أصبح حقيقة واقعة ودامغة، بعد أن أقرته مصر، والأردن، وفلسطين، ومازالت سوريا حتى الآن فى سعيها وجهودها ليصبح بعد ذلك السلام شاملا لكل الأطراف العربية التى خاضت أعنف، وأمقت، وأطول حرب شهدتها العالم أجمع.

وكم كان الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات عظيما وشجاعا - عندما خرج مباشرة بعد هاتين العمليتين معلنا أنها عمليات إرهابية تفتك بأرواح الأبرياء من المدنيين وأنها موجهة ضد عملية السلام، وبالتالى لاتخدم أى هدف.

أما مصر فقد خرج رئيسها بكل ثبات واتزان، خرج على الفور، وبكل ثقة يتصل هاتفيا بالرئيس الإسرائيلى عيزرا فايتسمان يبلغه تعازيه وتعازى الشعب المصرى لأسر الضحايا، ويطالب بضبط النفس وعدم إثارة المشاعر تدعيما لعملية السلام واستمراريتها وعدم الانحراف عن المسيرة والهدف الأساسى، بسبب شطحات حفنة من المغامرين هنا وهناك.

ولكن الغريب حقا أن تثور جماعات من إسرائيل، ويتساءل البعض هناك عن جذور عملية السلام مادام يتضمن المسرح. وربما كان من الأفضل أن نقول «السيرك» - «الشرق أوسطى» مثل هذه العمليات الدموية، ويصل الشيطط بالبعض هناك إلى حد التساؤل عن التنازلات، والثمن الذي يقدمه الإسرائيليون من أجل السلام، وإلى أي مدى يستمرون فيه على هذا الطريق؟ وفي رأي أنه ليس هناك ما هو أكثر غباء من هذه الفرضية، وهذا الشكل من الحوار، لأن الذين يثورون هناك، ويطرحون مثل هذه الأسئلة الغبية، لمجرد أن منظمة غير حكومية ترفض عملية السلام، وتوجه نشاطها لمحاربة هذا الهدف الذي أرتضاه الشعب العربي بشكل عام، وحكومات ومؤسسات ثلاث من دول ما كان يسمى بـ«دول المواجهة» ماذا كان يمكن أن يقول هؤلاء لو أن شعوب وحكومات الدول العربية كلها هي التي ترفض عملية السلام، وتعمل على عرقلة مسيرته، وتجنّد كل مصادرها من أجل تحقيق هذا الهدف؟

وبعيدا عن العواطف والأنفعالات، فإنه واضح للجميع أن مثل هذه العمليات لا تسفر في معظم الأحيان عن خسائر فادحة، وفي أسوأ الحالات فإنها تؤدي إلى مصرع عدد محدود من الضحايا - في حالة الهجومين الانتحاريين في القدس وعسقلان، بلغ عدد الضحايا خمسة وعشرين إسرائيليا بجانب الانتحاريين اللذين قاما بتنفيذ العمليتين - أما بالنسبة للبديل الآخر، وهو الحرب، فإنه بديل مخيف والتقديرات مخيفة ومفرعة للجميع.. ومع ذلك فقد كان شيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل السابق حاسما وقاطعا عندما أعلن بأسلوب بلاغي: «إن الاغتيال والقتل لن يصرع عملية السلام، والأغرب من هذا كله، هو توقيت عملية القدس وعسقلان، فقد جاءت هاتان العمليتان في وقت كانت فيه انظار كل العالم تتركز على منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي وانتهاكاتها للإتفاق الذي تعهدت به مع بريطانيا، كان العالم كله يلوم «الشين فين» (الجناح السياسي في الجيش الجمهوري الأيرلندي) وبزغت حملة إعلامية دولية تهاجم «الشين فين» وتنتقد سلوك الجيش الجمهوري وتدمغه بالإرهاب.. في هذا الوقت بالذات، وكما لو كان هناك من يرغب عمدا في تحويل الأنظار عما جرى في لندن، اندلعت انفجارات القدس وعسقلان فحولت الأنظار إلى العرب، والإسلام، والشرق الأوسط.

ولم تكن هذه هي أول مرة يحدث فيها هذا التحويل السريع لأنظار وأهتمامات الرأي العام العالمي، والذي يراجع تواريخ العمليات الإرهابية في الشمال، سيجد أنه بعد العمليات الهامة التي أحدثت هزة في الرأي العام العالمي، هناك دائما من يخرج

لنا فجأة بعملية أو أخرى في الشرق الأوسط تغطي تماما على ما حدث هناك وتلتفت
الأنظار إلى «السيرك العالمي المفضل» في هذه المنطقة من العالم.
وهناك رأي يقول أن منظمات العنف في مختلف أنحاء العالم، تواظب على
المراقبة والتعلم من بعضها البعض» ومنذ فترة كان الاتجاه هو التفاوض والتطبيع،
وكانت «الشين فين» تتخذ من إسرائيل وجنوب إفريقيا نموذجا يحتذى به، كما أشار
إلى ذلك مرارا جيري أدامز المسئول في هذا الجناح السياسي، وعلى الجانب الآخر
كانت منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي بدورها نموذجا يحتذى بالنسبة لمنظمات
أخرى في أركان بعيدة من العالم، وفي ذلك رأينا زعيم الجناح السياسي لمنظمة
إيتاهيري يتحدث بدوره عن التفاوض على أسس مطابقة تماما للنموذج الأيرلندي..
قد يكون السبب وراء ذلك هو أنهم يتعلمون من بعضهم البعض، ولكن هذا لا يغفل
احتمال وجود تنسيق من «نوع ما» بين هذه المنظمات، رغم اختلاف هويتها،
وقضاياها، ودوافعها، ولكن الشيء الوحيد المؤكد الذي يربط بينهم جميعا هو اللجوء إلى
العنف كوسيلة للحل.

وفي ذلك نرى النموذج المقابل من الغباء، لأن هذه المنظمات مهما أوتيت من
قوة، ومهما لجأت إلى العنف لن تستطيع أبدا أن تفرض رأيها على الأغلبية الساحقة
هنا وهناك، ولن تستطيع أن تؤثر على تطور الأحداث بالشكل الذي تراه وتتمناه فهذا
ضد طبيعة الأمور وضد طبيعة الأحداث، والذي سيحدث هو أن الغالبية في كل مكان
ستتعاون للتخلص من هذه المناوءات التي تعرقل تحقيق الهدف الذي ارتضاه الجميع،
وفي هذا الإطار رأينا مسئول الأمن في السلطة الفلسطينية يحاور الرأي العام
الإسرائيلي من خلال الكاتب الصحفي ايهو ياري، وكان حوارا جريئا ومتمزنا وبناء،
أعلن خلاله المسئول الفلسطيني أن السلطة الفلسطينية، هي المسئولة عن تحقيق الأمن
وأنها مصممة على هذا الهدف، وفي ذلك فإنها ستعمل على القضاء على كل أشكال
الإرهاب داخل الأراضي الفلسطينية، وأن السلطة الفلسطينية مصممة على تنفيذ جميع
تعهداتها التي التزمت بها في عملية السلام، وأن السلام أصبح قناعة لدى أكثر من

تسعين فى المائة من الشعب الفلسطينى، وأنه مطلب قومى ضرورى لكل من الفلسطينيين والإسرائيليين .

ولم ينس المسئول فى حوارہ ان يرفض أى وصاية من جانب السلطات الإسرائيلية مشيرا إلى أن مثل هذه الوصاية من شأنها أن تثير المشاعر الفلسطينية، كما لم ينس التنديد علانية بعملية اغتيال أبو عياش، وعندما تعرض المحاور إلى قضية القدس والمرحلة القادمة من المفاوضات، التزم المسئول الفلسطينى بإتزانہ، وثباتہ وحوارہ العقلانى مؤكدا أن الفلسطينيين والجانب العربى لن يرضوا أبدا بالسيادة الإسرائيلية على القدس الشرقية، مشيرا أنه لا مانع لديهم من أن تكون القدس مدينة مفتوحة للجميع يسمح فيها بحرية العبادة، وحرية التنقل للجميع .

وأعتقد أن رأى العام الإسرائيلى كله تابع هذا الحوار باهتمام شديد، وأن السلطة الفلسطينية الجديدة كسبت الكثير من أسلوب مسئولها الأمنى فى الرد على تساؤلات رأى العام الإسرائيلى، وقد وصل الحوار إلى ذروة العقلانية والروح الجديدة التى تحكم العلاقات بين الفلسطينيين والإسرائيليين، عندما وجه المحاور سؤالاً إلى المسئول الفلسطينى عن الانتخابات الإسرائيلية الجديدة وعن الجانب الذى يرغب الفلسطينيون فى فوزه فى هذه الانتخابات؟ كان رد مسئول السلطة الفلسطينية حصيفا ومعبرا عن الضوابط المدروسة جيدا فى إطار الروح الجديدة للعلاقات بين البلدين، عندما قال مؤكدا: إننا لا نتدخل أبدا فيما يجرى داخل إسرائيل وفيما يختاره الشعب الإسرائيلى، وعندما عاد المحاور ليضغط على هذه النقطة مرة أخرى قائلا: ولكن حزب العمل هو الذى صنع السلام مع الفلسطينيين؟ رد عليه المسئول الفلسطينى بلباقة: لقد كان رابين رجلا عظيما.. كذلك رئيس الوزراء الحالى شيمون بيريز.. ولكن لا تنس أن حزب الليكود هو الذى صنع السلام مع الشقيقة الكبرى مصر .

بهذه الروح، ويمثل هذه الحوارات يمكن أن نقضى على كل العقبات والمناوءات غير المسئولة التى تعترض عملية السلام، أما أن يثور البعض هنا وهناك كلما وقع

حادث أو آخر، ويصلب الغفل بالبعض إلى حد المطالبة بوقف المسيرة بأكملها، فهذا هو الغباء بعينه، وهذا هو بالضبط ما تريده الأقليات العنيفة الراقضة .. هنا وهناك....
وعلىنا جميعا أن نزداد نضجا وفهما للواقع الذي نحياه □

... وهذا أيضا إرهاب!

كل النواقص التاريخية والاجتماعية والنفسية، تجسدت الآن فى شكل السلام الذى قام فى منطقة الشرق الأوسط، والذى أطلقت عليه صفات ونعات لا حصر لها، فتارة قالوا أنه «سلام بارد»، وتارة أخرى قالوا أنه «سلام الجبناء» ثم بقدرة قادر قال هؤلاء أنفسهم أنه «سلام الشجعان»، وبينما قالت الأغلبية أنه «سلام الأقوياء» الذى جاء بعد أول انتصار عسكري فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى - خرج البعض ليقول أنه «الاستسلام بعينه».. صفات عديدة ذيلت كلمة السلام فى منطقتنا، تماشيا مع التطورات السياسية البندولية فى المنطقة - وهى تطورات غير متوقعة وغير محسوبة وغير منطقية بالمرّة - وأيضا تماشيا مع «المزاج الشخصى» و«المزاج العام» - وكلاهما متقلب لم يثبت يوما على وتيرة عقل أو علم أو حكمة الأيام، وهكذا كان على الرأى العالم أن يستمر فى الحيرة والتخبط، كما لو كان هذا هو «القدر الإقليمى المكتوب».. منذ فجر حضارة إنسانية هائلة تبددت وأندثرت بسبب الخلافات المزمنة التى ابتلينا بها.

وثم جاءت الأحداث بتعبير جديد يفرض نفسه على نوع هذا السلام الشرق أوسطى العجيب، فقد بات واضحا بعد حوادث الأغتيال فى الحرم الإبراهيمى، ولشخص رئيس الوزراء الإسرائيلى، السابق إسحق رابين، والذى وقف قاتله إيجال عامير أثناء محاكمته يهرج قائلا أنه قتله: «من أجل تورا إسرائيل!».. وبعد حوادث انفجارات «القنابل البشرية» فى القدس وتل أبيب وعسقلان، ومن جانب آخر بعد الكشف المفاحئ

عن جانب آخر بعد الكشف المفاجئ عن أسرار الأسلحة النووية الإسرائيلية، ثم بعد التسرب الإشعاعي من مفاعل ديمونة.. كل هذه الأحداث تدخل في نطاق الإرهاب، ومن ثم يمكن أن نصف السلام بين العرب وإسرائيل وصفا جديدا يقول أنه «سلام إرهابي» بالدرجة الأولى وذلك رغم التباين الشديد بين «السلام» و«الإرهاب»، ولكنه - مرة أخرى - المناخ العام في منطقة من العالم تتجمع فيها كل المفارقات، وينبت في أرضها «السم» و«الترياق» جنبا إلى جنب!

لا يمكن أبدا أن تجتمع صفة الإرهاب مع السلام، ولكن هذا حدث عندنا ويحدث حاليا، فمنذ توقيع إتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل، كان ولا بد أن تكون هناك توجهات جديدة للبلدين، توجهات تقوم أساسا على مبادئ السلام، وتختلف تماما عن توجهات الحرب التي كانت هي السائدة طوال ثلاثين عاما شهدت خمس حروب بين مصر وإسرائيل، ولكن بعد اتفاق السلام بين البلدين كانت أن ارتادت مصر توجهات السلام من حيث البناء والتعمير والتصنيع والتنمية، حتى أن عيزرا فايتسمان الرئيس الإسرائيلي الحالي لمس ذلك بنفسه أثناء زيارته المتكررة لمصر عندما كان وزيرا للدفاع، وقال أن مصر تستغل عملية السلام بمهارة، وأنه في كل مرة يأتي إليها للزيارة يجد جديدا وأن وجه الحياة بأكملها يتغير في مصر من أجل التنمية، ومن أجل صالح المواطن المصري الذي عانى طويلا من خمس حروب في غضون نحو ربع قرن فقط

والذي لاحظته فايتسمان وأبدى إعجابه به، لم تكن إسرائيل تقوم بمثله في نفس هذا الوقت، وفي هذه المرحلة أبدت مصر تفهما وسعة أفق مفادهما يقوم على ذريعة إسرائيل بأنها مازالت في حالة حرب مع باقى الدول العربية، وخاصة بعد مؤتمر بغداد الذي رفض الحل السلمى وأبدى تأييده المطلق للحل العسكرى الذى لم يحدث إلى يومنا هذا! ومع ذلك، وبعد انضمام الدول العربية واحدة تلو الأخرى إلى المسيرة السلمية واعترافهم بسلامة ورجاحة الاتجاه المصرى، بعد هذا، فإن استمرار إسرائيل في «توجهات الحرب» يصبح أمرا غير مفهوم بالمرة.

وقد وصل غموض هذا الموقف إلى ذروته عندما تكشف فجأة الأسرار النووية لإسرائيل، ورغم أن هذا الاتجاه يدخل في نطاق استراتيجية الدولة، فإنه مع تحقق السلام بين العرب وإسرائيل، أثقل هذا الاتجاه الاستراتيجي إلى إطار «الإرهاب»، إذ أنه يرمى في النهاية إلى تخويف (أو إرهاب) الجانب العربي من التفكير في شن أى عمليات عسكرية ضد إسرائيل لأنها تستطيع وحدها، وفي لحظة واحدة، أن تهيل المعبد بأكمله على رؤوس الجميع، وهذا لا يتماشى أبداً مع التوجهات السلمية التي كان ولا بد أن يلتزم بها كل الأطراف، ذلك إذا أردنا أن نقول أن نوايا الجميع كانت حسنة.

وإذا كان الجانب الإسرائيلي قد بدأ - وهذا ما حدث بالفعل - تطوير الأسلحة النووية منذ فترة طويلة تعود إلى حقبة الخمسينات عندما كان العرب لا يكفون عن تهديد إسرائيل بالفناء، وإلقائها في البحر، ليس فقط إسرائيل بل وأيضا من يقفون وراء إسرائيل، إذا كان الأمر كذلك فقد كان هذا يتم في سرية تامة ولم يسمع مخلوق واحد عنها طوال جولات الحرب وصولات المعارك الكلامية، وكان يمكن وبسهولة تامة أن يستمر الأشمر على ما كان عليه ولكن أن تأتي إسرائيل في ظل عملية السلام وتعلن فجأة عن امتلاكها للسلاح النووي بأسلوب غير مباشر عندما تسربت هذه الأنباء على لسان مواطنين إسرائيليين، علما بأنه ليس هناك ما يحدث صدفة فوق أرض إسرائيل - عندما يحدث ذلك فإن الهدف لا بد أن يكون هو الرغبة في إرهاب وردع وتخويف الجانب العربي من حصول إسرائيل على السلاح المطلق، وبمعنى آخر فإنهم يؤكدون عدم ثقتهم في الالتزامات العربية بالسلام، ويريدون للاتفاق أن يكون قهريا، وليس أبدا - كما كان في الحقيقة - اتجاها حضاريا وحلا عصريا يتماشى والاتجاه العالمي السائد.

وهنا كان لا بد أن نسمع صوت مصر وهي الدولة الرائدة في عملية السلام، وجاء هذا الصوت ممثلا في مبادرة مبارك التي طالبت بأن تكون منطقة الشرق الأوسط منطقة خالية من كل أسلحة الدمار الشامل، ولا بد هنا أن نلاحظ كلمة «كل» هذه لأن أسلحة الدمار الشامل لا تقتصر على الأسلحة النووية وحدها، ولكنها تشمل أيضا الأسلحة الكيماوية والأسلحة البيولوجية، وكل هذا يمكن أن يؤدي إلى نفس النتيجة، وهي نتيجة معروفة تؤدي إلى دمار الجميع والعودة من جديد إلى «المربع رقم واحد» كما نقول المجتمع الدولي.

كذلك فإنه حتى فى حالة عدم استخدام هذه الأسلحة النووية أو أسلحة الدمار الشامل بأنواعها، فإن وسائل إنتاج هذه الأسلحة ووسائل تخزينها هى بدورها على نفس القدر من الخطورة، ومما يزيد من ثقل مبادرة مبارك فى هذا الصدد، وقع كما رأينا حادث المفاعل النووى السوفيتى «تشيرنوبيل» رغم احتياطات الأمن التى كان يشتهر بها الاتحاد السوفيتى السابق، ورغم كون السوفيت هم القطب الثانى فى العالم، ومع ذلك وقع الحادث المشؤوم وحادث التسرب الذى أودى بكل مظاهر الحياة على امتداد آلاف الكيلومترات. وما زالت أثارة تمتد حتى يومنا هذا، وسوف تمتد سنوات طويلة فى المستقبل، وكفى أن ننظر إلى آلاف الأطفال المشوهين الذين تمتلئ بهم مستشفيات الاتحاد السوفيتى السابق بعد أن لحقت بهم تشوهات خلقية بشعة من جراء تسرب اشعاعى وقع قبل أن يخرجوهم إلى الحياة فى هذا المكان التعس من العالم.

إن المجتمع الأوروبى يطالب حالياً بإغلاق المفاعلات النووية التى تعمل بالتكنولوجيا السوفيتية، بعد أن ثبت أنها تكنولوجيا متخلفة، تعرض حياة البشر لخطر داهم، كذلك لا ينبغى أن ننسى أيضاً حادث تسرب مفاعل «ثرى مايلز ايلاند» الذى أدى إلى الذعر فى الولايات المتحدة، والآن جاء الدور على التكنولوجيا الفرنسية ممثلة فى مفاعل ديمونة.. إنها تكنولوجيا خطيرة شرقاً وغرباً وعلى الإنسانية أن تجد حلاً لهذا الخطر الداهم الذى يقيم بيننا.

من هنا كانت مبادرة مبارك تضع فى اعتبارها هذا الاحتمال المزعج وما يمكن أن أكتوبر ١٩٧٣!!.. نقول ذلك حتى لا يقفز أقطاب الإرهاب الفكرى والإرهاب السياسى عندنا، ويتسللوا لممارسة هوايتهم المفضلة فى مهاجمة عملية السلام، وشخص الزعيم القائد أنور السادات الذى تسلمنا فى عهده أول صفقة من المقاتلات القاذفة الهجومية من طراز «فانتوم ف - ٤».

وحتى لانخرج عن موضوعنا الأساسى، نريد أن نقول إن هذا الخيار الاستراتيجى والنووى الإسرائيلى، يدخل فى مثل هذه الظروف فى إطار السياسات الإرهابية، فالإرهاب لا يقتصر على عمليات الاغتيال والتفجيرات البدائية هنا وهناك، إلا لو أردنا أن نعتبر العجز والإحباط إرهاباً، بينما امتلاك أو التلويح «بالسلاح المطلق» وتفجيرات الدمار، أو فى أضعف الحالات التسرب الشعاعى المهلك للجميع، هو اتجاه إيجابى

يخدم دعائم السلام! وكما نقول إن عمليات الإغتيال وترويع المدنيين لن يوقف عجلة السلام، نقول أيضا أن امتلاك السلاح النووي وما يتبعه من آثار جانبية، مثل حادث التسرب الإشعاعي لمفاعل ديمونة، لن يخدم أبدا قضية ومبادئ واتجاه السلام، ومن هذا المنظور أن تتناول أجان مؤتمر شرم الشيخ لطناح السلام أيضا قضية إخلاء المنطقة من جميع أسلحة الدمار الشامل.. فهذا أيضا نوع من الإرهاب!!

يؤدي إليه هن أخطار على جميع الدول العربية المحيطة بإسرائيل، التي تكاد المسافات بينها تتلاشى تماما سواء مع مصر أو الأردن أو الضفة أو سوريا أو لبنان أو حتى السعودية، وقد كان أن تحقق هذا الاحتمال المزعج بعد إعلان إسرائيل عن حدوث تسرب إشعاعي من مفاعل ديمونة النووي الذي كتب علينا أن نعاني منه جميعا بسبب سياسة وتوجهات عسكرية حمقاء في ظل عملية السلام، وقد يجوز بعد هذا الحادث أن تعيد إسرائيل حساباتها في هذا الصدد، وأن يتحرك المجتمع الدولي ليفعل شيئا من أجل درء الخطر على الجميع بما في ذلك إسرائيل.

وحتى لا يتصور البعض عندنا أن مصر بتوجهاتها نحو العمران والبناء والتنمية، أهملت أو تناست قدراتها العسكرية والقتالية، فإنني أقول إن هذا لم يحدث بالمرّة، ولكن الذي حدث هو أننا لم نسخر كل مواردنا من أجل الحرب ومن أجل المعركة القادمة كما كنا نفعل من قبل، وفي الوقت ذاته فإنه بسبب سياسة الاعتدال التي اتبعتها مصر في عهد مبارك حصلت قواتنا لأول مرة في العصر الحديث على زسلة هجومية من الطراز الأول، وهناك مراقبون وخبراء عديرون يؤكدون أن قوة مصر العسكرية حاليا هي أضعاف ما كانت عليه في أي وقت خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بما في ذلك ما كنا عليه قبل حرب ١٩٧٣ التي انتصرنا فيها على إسرائيل. □

شرم الشيخ . . وما بعدها!

ليس من طبيعة الأمور أن ينجز إنسان واحد - مهما كانت قدراته وإمكاناته - التحولات التاريخية الكبرى في تاريخ الأمم والشعوب، فهي مهام صعبة يتناوب الكثيرون في تحقيق فصولها، فنجد مثلاً أن كارل ماركس هو الذى ابتدع النظرية الشيوعية ولكن لينين كان هو الذى جعلها حقيقة واقعة، وبالنسبة لعملية السلام فى الشرق الأوسط، كان الزعيم الراحل أنور السادات هو صاحب الرؤية ورجل الخطوة الأولى، ثم جاء الرئيس مبارك ليجسد الحلم ويجعله حقيقة واقعة بين مصر وإسرائيل، ثم ساعد بعد ذلك ليجعله حقيقة ملموسة على مستوى المنطقة بأكملها، ثم خلال مؤتمر شرم الشيخ جعله حقيقة قوية دامغة يساندها ويوثقها كل أقطاب العالم وكل أعضاء المجتمع الدولى.

وكما قال جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا خلال المؤتمر: عقارب الساعة لن تعود أبداً إلى الوراء.

بذلك دخلت شرم الشيخ من أوسع أبواب التاريخ لتستمر ذكراها مع القرن القادم والألفية القادمة، فبدون هذا التعاون الدولى للإصرار على السلام ودحر الإرهاب كان يمكن أن تتعثر المسيرة الإنسانية بأكملها، ولانقول المسيرة السلمية وحدها، سواء فى الشرق الأوسط أو فى الشرق الأقصى، حيث تحتشد الآن الصواريخ وحاملات الطائرات حول تايوان أو فى أى مكان آخر فى العالم.

ولانتذكر هنا مؤتمراً أو محفلاً دولياً حظيت مصر فيه بقلب الصدارة، وانعكست خلاله المكانة الحقيقية لمصر والمصريين، كما حدث خلال مؤتمر شرم الشيخ،

فالاختيار كان مصرىا، والموقع مصرىا، والترتيبات والإعداد، والإدارة .. إلخ، كلها كانت مصرىة، بينما الوجود والمشاركة كانت دولية ضمت أقطاب العالم، ومختلف فروع ومحاورة .. مكانة وصلت إليها عن طريق السلام ومناصرة السلام، لكنها أقوى بكثير وأكثر مناعة من أى مكانة حاولنا الوصول إليها عن طريق المعارك والحروب .

إن أهمية مؤتمر شرم الشيخ إنطلقت أساسا من حقيقة أنها حسمت إلى الأبد اختيار السلام، ولم تعد المسألة اتناقيات كامب ديفيد، أو اتفاق أوسلو، أو أى اتفاق بين إسرائيل وأى جانب عربى، فكل هذه تفاصيل استمتع المتسفسطون طويلا بالتسكع عند كل ركن وكل منحى وكل حادث عابر طرأ عليها، ولكن المسألة بعد مؤتمر شرم الشيخ أصبحت اختيار واحدا وطريقا واحدا هو طريق السلام .

ولأن الإرهاب على كلا الجانبين اختار أن يعترض المسيرة السلمية ويعرقل تقدمها - ولاعجب فى هذا فالإرهاب لا مكان له فى ظل الأمن والاستقرار - فقد جاء مؤتمر شرم الشيخ ليؤكد تكاتف جميع دول العالم لقبول التحدى وتسخير إمكانات دول العالم لمحاربة هذا العدو الجديد . من هنا كان - وما زال - لا يمكن الفصل بين استمرار عملية السلام ومكافحة الإرهاب، فقد أصبح من الواضح أنه لا يمكن الحصول على هذا الهدف دون القضاء على تلك الظاهرة، وإذا كان رؤساء الدول والوفود التى اشتركت فى مؤتمر شرم الشيخ، قد اختارت وأكدت مناصرة السلام، فإنه لم يكن اختيارا فوقيا، لكنه انعكاس لإرادة الشعوب التى يمثلها هؤلاء الرؤساء وهذه الوفود، وفى ذلك لا ينبغي أبدا لأى أنسان عاقل أو أية جهة أو تنظيم أن تقلل بأى شكل من الأشكال من هذا المجتمع الدولى التى تتمثل الآن فى محورين متوازيين: مناصرة السلام ومكافحة الإرهاب .

ولقد كان اختيار مدينة شرم الشيخ بالذات من بين جميع المدن المصرىة، اختيارا ذكيا وموفقا، لأن هذا المنتجع العالمى على شاطئ البحر الأحمر هو بكل المقاييس ثمرة من ثمرات السلاح بين مصر وإسرائيل، فقبل عملية السلام لم يكن أحد يسمع عن هذا المكان اللهم إلا بعض وحدات المدفعية الساحلية، ووحدات البحرية، أما الآن فقد أصبح المكان على قمة الخريطة السياحية لشعوب العالم، وهناك من دول أوروبا من ينظم رحلات يومية من صقيع أوروبا إلى رائعة شرم الشيخ مباشرة دون المرور

بالقاهرة أو أى مكان آخر.. وأصبح اسم المكان على لسان الجميع كمنتجع سياحي عالمي، ولو كنت من إدارة الفندق الذى نزل فيه الرؤساء والوفود خلال مؤتمراتهم لأبقيت على فاعة الاجتماعات كما هى لأنها بلا شك ستصبح مزارا سياحيا، وقاعة تاريخية للأجيال القادمة، تماما مثلما تمتلئ فنادق القاهرة القديمة بذكريات الحرب العالمية الثانية وقادتها الذين كانوا يجتمعون عندنا، وبصفة خاصة فى «مينا هاوس» عند سفح الأهرامات وما زالت لهذه الأماكن - وسوف يزداد فى المستقبل - قيمتها ورونقها وعبقها التاريخي.

وإذا كانت قمة شرم الشيخ قد أكدت مواصلة تحقيق السلام ومكافحة الإرهاب، فإن هناك إرهاباً مرارياً لا يلجأ للكلاشينكوف وأحزمة المتفجرات، ومع ذلك فهو أكثر خطورة من كل العمليات التى قام بها الإرهابيون لعرقلة مسيرة السلام، ونقصد بذلك الإرهاب الفكرى والإرهاب السياسى عندنا وعندهم، فهناك على الطرفين العربى والإسرائيلى من لا يزال يعيش فى عنتريات الماضى، متصوراً بسذاجة شديدة أن الصراع الذى دام أكثر من خمسين عاماً، لا يمكن إلا أن يحسم نهائياً فى ميدان المعركة وبطلقات المدافع.. نفس الفكر الغبى الذى أدى إلى مهزلة «أم المعارك» وجعل من «النشامى» أضحوكة أمام الجميع.

ولقد عانى المجتمع الإسرائيلى من هذا النمط فى التفكير الذى جاء فى أعقاب الانتصارات السهلة فى يونيو ١٩٦٧، فتصور البعض هناك أن أى حرب يمكن أن تنتهى إلى نفس النتيجة وتحقق ما حققته من مكاسب وانتصارات، وقد طمأنهم إلى ذلك التفوق النوعى الهائل فى الأسلحة التى يمتلكونها والنتائج المتشابهة التى ترصلت إليها كل المعاهد الاستراتيجية فى العالم، والتى كانت تؤكد انتصار إسرائيل الساحق فى أى حرب تنشب فى الشرق الأوسط.. بسبب هذه القناعات وهذا النمط من التفكير دفع المجتمع الإسرائيلى الثمن باهظاً عندما نشبت الحرب فى أكتوبر ٧٣.

والتاريخ يقدم لنا دروساً عديدة وقاطعة، ولكن يبدو أن أحداً لا يتعلم، ولا يرغب فى أن يتعلم، ويغير من الأفكار الثابتة والجامدة التى ملأت رأسه، فطوال خمسمائة عام فيما قبل القرن الحالى كانت فرنسا وإنجلترا تعتقدان أن العداوة بينهما هى شئ طبيعى مثلها فى ذلك مثل قانون الجاذبية، أو قانون الطفو، وبعد خمسمائة عام من

هذه العداوات الدفينة اتحدت فرنسا وإنجلترا في بداية القرن الحالى لتتقفا أمام عدو مشترك، حاول اقتحام نفوذهما العالمى، وكان هذا العدو كما نعرف هو ألمانيا، وعندما لم تستطيعا وحدهما الوقوف أمام المانيا خلال الحرب الثانية، كان أن بحثنا على الحلفاء من كل مكان بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى (العدو الأكبر)، ولكن - مرة أخرى - لأن أحداً لا يتعلم شيئاً من دروس التاريخ وعبره، فمنذ عام ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب الثانية ظهرت مرة أخرى هذه العداوة بشكل أعمق وأكثر بغضاً بين الحليفين الأساسيين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ثم دارت العجلة مرة أخرى لتتبدد هذه العداوة وتقيم كل دول الاتحاد السوفيتى علاقات قوية مع واشنطن التى وجهت مساعداتها بشكل خاص إلى موسكو وباقى دول الكتلة الشرقية. فى ذلك يقول لنا التاريخ: إن العداوات لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، وإن الحروب لم تكن أبداً حلاً نهائياً وحاسماً لجميع الصراعات التى يشهدها العالم.. ومع ذلك لا يريد البعض عندنا وعندهم أن يصدق أو يتعلم.

إن الإرهاب الفكرى يتمثل على الجانب العربى فى أولئك الذين يهاجمون بضراوة وانتظام كل من يساند عملية السلام، ومن بين هؤلاء نجد جنرالات سابقين أخفقوا فى الحرب بطريقة أو أخرى ويتطلعون إلى فرصة أخرى يعالجون بها إخفاقاتهم السابقة غير مباليين بجر المجتمع والدولة بأكملها إلى حرب لا يعرف غير الله وحده مداها، ونجد أيضاً مسئولين سابقين فى عصر ما قبل النكسة لا يعترفون أبداً بأن سياساتهم الخاطئة أدت بشكل أو آخر إلى أفدح هزيمة منى بها العالم العربى على مر تاريخه الطويل، ونجد على الجانب الآخر دراويش حقبة الستينات والشعارات الجوفاء التى كانت تفرط عداوة وبغضاً وتطالب بالإبادة وإلقاء إسرائيل فى البحر، ونجد كذلك أولئك الذين يشعرون بعداء بغيض لشخصية الزعيم الراحل أنور السادات ولا يقبلون أى إنجاز جاء من ناحيته بما فى ذلك الانفتاح الاقتصادى وحتى حرب أكتوبر نفسها التى حاولوا تصويرها على أنها مسرحية مدبرة، وأن السادات لم يستغل نجاح قواتنا فى العبور ولم يصدر تعليماته باستغلال النجاح والتقدم إلى ما وراء المضائق وما وراء الحدود!! كل هؤلاء تحولوا فى عصر الحريات إلى كتاب ومنتجين ومؤلفين يبيئون سمومهم يومياً لمحاربة السلام لا لشيء إلا لأنهم يكرهون السادات ويشعرون بحنين غريب إلى ما قبل حقبة!

أما الإرهاب السياسى فقد جاء مع ظهور الديمقراطية وتعدد الأحزاب وبدأ البعض يهاجمون السلام كنوع من المعارضة ويختلقون قصصاً سوداء لتخريب العلاقات وعرقلة العملية السلمية بأى شكل من الأشكال دون أى إدراك لأبعاد البديل الآخر وهو الحرب، ودون أى إدراك لطبيعة الحرب وما يمكن أن تجلبه من وبال على أى مجتمع خاصة المجتمعات النامية.

ولأن الديمقراطية كانت موجودة دائماً فى إسرائيل فإن الإرهاب السياسى هناك يتخذ طابعاً أكثر تعقيداً وخطورة، وكانت عملية السلام دائماً هى الورقة المفضلة فى تنافس الأحزاب للوصول إلى السلطة، ومن هنا نرى تلك المزايدات على قضايا الأمن والاستقرار والاستيطان الذى أصبح الآن يشكل تهديداً حقيقياً لاستمرار العملية السلمية بعد أن صدق المستوطنون اليهود الوعود الكاذبة وغير المنطقية التى يروجها الإرهابيون السياسيون هناك.

لقد اقترحت، فى هذا السياق وقتها وفى أحد مقالاتى أنه سيكون من المفيد أن تقوم لجنة متابعة مقررات قمة صانعى السلام ببحث هذا النوع من الإرهاب الفكرى والإرهاب السياسى، وإذا كان لها أن تختار نموذجاً مثالياً فى هذا الإطار فعليها أن تفحص وتبحث فى تصريحات «إياهو بن اليسار» الذى لم يترك فرصة واحدة، إلا واغتنمها لضرب العملية السلمية، والتحريض على العداوة بين الشعوب العربية وإسرائيل وعودة العقارب إلى الورا، مع أن الحزب الذى ينتمى إليه (الليكود) كان هو صانع السلام الأكبر بين مصر وإسرائيل، ولكنها الانتخابات الوشيكة والديمقراطية والرغبة الملحة فى الوصول إلى مقاعد السلطة بأى شكل وبأى ثمن، كما لو كان مقعد السلطة أهم من المصالح القومية العليا للدولة!

والذين يتساءلون عن أسباب تعثر عمليات التطبيع، فإن السبب الوحيد وراء ذلك هو المناخ المفتعل الذى يخلقه هذا النوع من الإرهاب الفكرى والسياسى، فى ظل هذا المناخ لا يمكن لرجل الشارع أن يتجرأ بأن يقول أو يفعل ما يريد، ويكتفى بأنه قال كلمته عندما خرجت الأغلبية فى مصر وإسرائيل وفى الأردن وفى الضفة الغربية وغزة، فى كل هذه البلاد تعلن تأييدها ورغبتها فى تحقيق السلام لأجيال مختلفة لم تر فى حياتها غير الحرب والخراب والدمار، إن المحطة التى وصل إليها السلام حالياً

بما في ذلك من ارتباطات محلية وإقليمية ودولية تجعله في أعلى قائمة قضايا الأمن القومي لجميع دول المنطقة .. ومن هذا المنطلق فلا بد من الكف عن العبث .. سواء كان عبثاً إرهابياً مسلحاً، أو عبثاً فكرياً أو سياسياً.

إنهم يلحقون بمن
سبقوا الزمن!

الرجل الذى انتصر

حيا وميتا!

من حق اى انسان سوى وطبيعى فى مصر وفى العالم العربى أن يشعر فى مناسبات عديدة - بحضور الزعيم أنور السادات بل وبوجود هذا الراحل العظيم حياً بيننا عندما كنا نتحدث عن «السلام»، و«المؤتمر الدولى»، و«قيام الدولة الفلسطينية»، و«حق الجميع فى حدود أمتة»، «ولا صلح منفرداً أو سلاماً جزئياً»،.... فكلها عبارات كان الرجل أول من استخدمها وظل يناضل من أجلها حتى لقي ربه... بعيداً عن الدنيا والناس والأحقاد....

ولأن أفكاره كانت جد جديدة، ولأن مناورته التاريخية من الحرب إلى السلام كانت جد حادة: من لهيب ودمار الصراع المسلح إلى ربوع السلام وقدسفة الإنسان... «الإنسان الذى خلقه الله، كما يقول غاندى قديس السلام، لكى يسعى على قدمفه ببنى الحياة ويعبد الله تعالى»،... نعم... كانت الأفكار جديدة تماماً والمناورة حادة ومع ذلك كانت أستجابة الشعب المصرى تلقائية وحضارية وتحول الرئيس فى قلوب الناس إلى زعيم وطنى استشعر أعماق وجدان شعب من أعرق الشعوب.

ولكن كان هناك فى الوقت ذاته معارضة حادة لهذا الأتجاه نبعت أساساً من خارج مصر على المستويين الأقليمى والعالمى. وكان لأولئك وهؤلاء أتباع فى الداخل بدأوا يحاولون التشكيك والتغريير، وكم كان موقف هؤلاء مخزياً عندما تطورت الأمور فى

النهاية وبعد موت السادات بحوالى سبعة أعوام لتثبت حكمته وبعد نظرة ليس فقط فى استراتيجية الحل السلمى للصراع العربى الإسرائيلى ولكن أيضاً فى سياسة الانفتاح التى طبقت فى الاتحاد السوفيتى بعد أن فكك وإنهار فى الصين الشعبية التى بدأت تعرف كل أنماط الحياة فى الغرب «وطائرات البوينج الأمريكية وترقص على أنغام الروك أند رول..» ناهيك عن استراتيجية تنويع مصادر السلاح - طالما كان الحديث هنا عن السلام - والتى أبدعها أيضاً الزعيم أنور السادات وتبنتها دول كثيرة إقليمياً وعالمياً.

نقول كم كان مخزياً سلوك هؤلاء عندما تحولوا فجأة بعد التطورات الأخيرة إلى حمائم سلام من أودع أسراب هذا الحمام وأنصعه بياضاً. وأصبحوا يشيدون فجأة بانجازات وأفاق السلام ويحذرون من «أعدائهم» الذين يثربصون لنا فى الظلام... وكان منظرهم مخزياً فعلاً وكان أكثرهم خزياً هذا الذى قال يوماً - بعد رحلة القدس ومبادرة السلام - أن السادات «ديته طلقة ثمنها قروش زهيدة»...!! نقول كم هو مخز ورخيص هذا التحول الذى لا يعرف مبادئ حتى لو كانت خاطئة لأنه لم يأت من أجل المصالح القومية للوطن الذى نعيش فيه، ولكنه جاء بعد تحول استراتيجية قوى خارجية - على المستويين الإقليمى والعالمى - قوى يرتبطون بها بكل أشكال الارتباط النفعى، فتحولوا فجأة يدافعون عن ذات الأنجاه الذى هاجموا بالأمس القريب.

وكان أكثرهم حماقة أولئك الذين يعملون بتخطيط يعتقدون وهما أنه تخطيط عبقرى ويعيد عن أعين الجميع - فحاولوا بدأب سلب السادات من مجد أكتوبر زاعمين سخفاً أن خطة الهجوم تم أعدادها فى عهد عبدالناصر وأن السادات جاء وفتح الخزانة وأخرج خطة العبور ونفذها... هكذا وبسهولة أقرب إلى «العبط»!! ثم بعد ذلك بدأوا - مثلهم مثل الشخصية الكاريكاتورية الرائعة «عبد حريقة» التى أبدعها الفنان والزميل القدير مصطفى حسين تجسيداً للمستعدين لكل المواقف - بدأوا ينشرون زعماً حديداً مؤداه أن رجال يونيو ١٩٦٧ هم أنفسهم رجال أكتوبر ٧٣ وعلى الفور - وبدون توجيهات من هنا أو هناك تصدت لهم الأعلام الوطنية الشريفة وأظهرت لهم مفاصد القيادات القديمة وجهلها مقابل استقامة وأنضباط وحرفية قيادات أكتوبر وعلمها الذى وصل إلى أدق التفاصيل عسكرياً ومدنياً... هذه الظاهرة الجديدة فى حياتنا التى

بدأت بأول نصر عسكري على إسرائيل واستمرت بتولى مبارك - أحد الأعمدة الأساسية لهذا النصر - زمام السلطة بإجماع شعبى ساحق وحقيقى بعد استشهاد السادات رحمه الله .

وبعد الأحداث المتنوعة والقرار العاقل المتحضر لمنظمة التحرير الفلسطينية بنيد الإرهاب وقبول السلام «والمؤتمر الدولى» وقيام الدولة الفلسطينية و«حق الجميع فى حدود أمنة» . ثم وصول الأمر إلى مرحلة عوده القيادات الفلسطينية من الخارج إلى أرض تديرها السلطة الفلسطينية فى غزة وأريحا.. بل ووصل الأمر إلى حد إعلان الرغبة فى إعلان الدولة حسب ما تم الاتفاق عليه فى إتفاق أو سلو.. وهى الخطوة التى أجلتها السلطة الفلسطينية فى مايو ١٩٩٩ حتى يحين الظرف السياسى الملائم .

لم يكن هناك من حاول تجريح السادات أو التاليب فى جراح الماضى، بل أننى أكاد أجزم أن عرفات نفسه وكل من معه وكل عربى تابع على التلفزيون كلمة عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة التى انعقدت فى جنيف.. كل هؤلاء شعروا حتماً بوطأة الموقف عندما وقف السادات وحده فى عام ١٩٧٧ يلقي خطابه التاريخى فى عرين إسرائيل: فى قلب الكنيست أمام كل الصقور والحمام والاساطير التى ضخمها خيال أصيب بالخلل فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، وظل مشوشاً ومريضاً حتى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .

ومع ذلك خرج من عندنا من يحاول تصوير أن السلام العالى غير السلام الذى بدأه السادات!!.. ولأن الرئيس مبارك هو الرجل القوى حالياً فإنهم يقولون أن مبارك يختلف عن السادات وأسبغوا عليه مديحاً وإطراء هو فى غير حاجة إليه بالمرّة لأنه كما يعرف الجميع يؤمن بالعمل وحده ويمقت اللغو الأجوف خاصة من هؤلاء الذين وصلت بهم «الحالة» إلى حد تصور أن هناك «سلاماً» فى صراع واحد غير «سلام» فى نفس الصراع!! أقلام هؤلاء الذين يهينون ذكاءنا بالقول أن مبارك ليس السادات . فالكل يعرف أن كل إنسان «نسيج وحده» وأنه ليس هناك إنسان على مر التاريخ مثل إنسان آخر.. وهذه هى إحدى حكم الخالق وصورة من صور إعجاز الله سبحانه وتعالى ... بل إننا سمعنا جميعاً الرئيس مبارك فى بداية حكمه عندما أعلن بوضوح: «لست عبدالناصر، ولست السادات .. إن إسمى حسنى مبارك..» فما الجديد الذى

حملته إلينا تلك الأقلام بما خطته من مساحات أهدرت بسبب أحقاد وكراهية مريضة يحتار المرء في تفسيرها بعد أن مات بطل العمل ومضى عليه نحت الثرى أكثر من ثمانية عشر عاماً كاملة لم تهدأ خلالها غيرة وأحقاد تلك الحفنة الغريبة من البشر.

ويقال إن الذى يحارل أن «بهين» ذكاء الآخرين، هو إنسان محدود الذكاء جداً، وقد ثبتت صحة هذه النظرية فى تلك الظاهرة التى نتحدث عنها هنا لأن الجميع يعرفون أنه لو كان السادات رائداً لعملية السلام التاريخية فى المنطقة فإن الذى «صلب» عوده، هذا السلام واعطاه القوة والصلابة والاستمرارية التى دفعته وأبقت عليه حتى يومنا هذا - هو ذاته الرئيس حسنى مبارك الذى كان أبرز قادة حرب أكتوبر ٧٣.. فكيف غابت عنهم تلك الحقيقة البسيطة.

وأعرب من هذا كله أن الأخوة العرب يتفهمون الآن جيداً مواقفنا وكل جوانب الاستراتيجية التى أتبعناها بل أننى أذكر أن الصحفي الكويتى اللامع أحمد الجار الله رئيس تحرير صحيفة السياسة الكويتية كتب منذ سنوات أن مشكلة السادات أنه سبق عصره سنوات طويلة. وأن الجميع قد يفهمون هذا الرجل جيداً بعد عقد أو عقدين.... وحمد الله تعالى أن الأمر لم يستغرق كل هذه السنوات وأن التطورات التى تشهده المنطقة العربية حالياً تؤكد حدوث نضج فكرى عام من المحيط إلى الخليج، وأصبح الجميع يشعرون بضرورة التكاتف والتكامل، والجميع يشيدون بدور مصر العربى الذى لا يستطيع أن يتكره عاقل فلماذا يخرج من عندنا فى نفس هذا الوقت من يتحدث بلغة مختلفة تعمل بالدرجة الأولى على أشاعة الفتنة والتشردم السياسى وبالتالي غياب الهدف الذى نسعى إليه جميعاً.... لماذا؟ ما الذى يخاف منه هؤلاء؟ وماذا يحاولون منع تحقيقه؟

أن قصة مصر السادات مع السلام يمكن أن يستقرئها المرء من ثلاثة خطابات هامة ألقاها الزعيم الراحل أنور السادات خلال فترة حكمه وهى خطابات دخلت الآن فى جوف التاريخ وأستقرت بعيداً عن أهواء المناضلين من أجل سلطة ضاعت أو من أجل سلطة منتظرة. كان الخطاب الأول فى ٤ فبراير عام ١٩٧١ وأعلن فيه السادات استعداداه لتوقيع اتفاق سلام مع إسرائيل فيما أعتبر أول إعلان يصدر من مسئول عربى منذ بداية الصراع العربى الإسرائيلى... وقتها ضحك العالم كله وفى مقدمته

إسرائيل من هذا الرجل الريفى البسيط الذى يعرض سلاماً على «إسرائيل العظيمة» وهو فى موقع ضعيف وبلاده محتلة بقوات جيش الدفاع الإسرائيلى الذى خرج فى يونيو ١٩٦٧ خروج المارد من القمم وأذهل العالم كله بانتصاراته الساحقة على مصر وسوريا والأردن فى وقت واحد.. منحك العالم كله من السادات عام ١٩٧١.

وأبتلع الرجل هذه السخرية وهذا التجاهل من جانب العدو والصديق والمحايد عامين كاملين وثمانية أشهر ويومين شن بعدها حرب التحرير فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وفى قمة هذا الانتصار ووسط ذلك الفيض من الكبرياء والحماسة الوطنية والقومية التى يمكن أن تذهب بعقل أى إنسان وقف الزعيم الراحل أنور السادات يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ - وقبل بدء مغامرة الثغرة المعروفة - يمد يده بالسلام... سلام وسط ذروة الإحساس بالزهو والمجد والقوة العسكرية وفى وقت كانت ترتفع فيه إلى عنان السماء أول البيارق لأول نصر عسكري على إسرائيل منذ نشأة الصراع العربى الإسرائيلى .

فى هذا اليوم وقف الزعيم الراحل أنور السادات بملابسه العسكرية فى مجلس الشعب ليعلن وبالحرف الواحد:

وربما أضيف لكى يسمعوا فى إسرائيل إننا لسنا دعاة إبادة كما يزعمون... إننا لسنا دعاة إبادة كما يزعمون ، بتلك العبارة كان السادات يهدم صرحاً عاتياً قام عليه الأعلام الإسرائيلى سنوات طويلة استطاع خلالها أن يكسب عطف العالم كله مع «إسرائيل الصغيرة» التى يحاول جيرانها من «البرابرة العرب» أن يلقوها فى البحر بلا رجعة!!

ومن هنا فقد عاد السادات بذكاء شديد فى هذا الخطاب التاريخى ليؤكد: «إننا لم نحارب لكى نعتدى على أرض غيرنا وإنما حاربنا ونحارب وسوف نواصل الحرب لهدفين اثنين:

● الأول: إعادة أراضينا المحتلة بعد عام ١٩٦٧ .

● الثانى: إيجاد السبيل لاستعادة واحترام الحقوق المشروعة لشعب فلسطين .

ولأن السادات فهم جيداً وأيفن أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الوحيدة القادرة على الضغط على إسرائيل في أنجاه حل هذا الصراع سلمياً فقد وجه رسالة إلى الرئيس الأمريكي نيكسون من خلال مشروعة للسلام الذي تضمن خمس نقاط رئيسية.. وفي ذلك قال وبالحرف الواحد:

● أولاً: إننا قاتلنا وسوف نقاتل لتحرير أراضينا التي أمسك بها الاحتلال الإسرائيلي سنة ٦٧ ولإيجاد السبيل لإستعادة وإحترام الحقوق المشروعة لشعب فلسطين....

● ثانياً: أننا على إستعداد لقبول وقف إطلاق النار على أساس انسحاب القوات الإسرائيلية من كل الأراضي المحتلة فوراً وتحت إشراف دولي إلى خطوط ما قبل ٥ يونيو ٦٧ .

● ثالثاً: إننا على أستعداد فور إتمام الانسحاب من كل هذه الأراضي أن نحضر مؤتمر سلام دولياً في الأمم المتحدة وسوف أحاول جهدي أن أقنع به رفاقي من القادة العرب المسؤولين مباشرة عن إدارة صراعنا مع العدو، كما أنني سوف أحاول جهدي أن أقنع به مثلي الشعب الفلسطيني، وذلك لكي نشارك معا ومع مجتمع الدول في وضع قواعد وضوابط لسلام في المنطقة يقوم على احترام الحقوق المشروعة لكل شعوب المنطقة.

● رابعاً: إننا على استعداد هذه الساعة بل هذه الدقيقة أن نبدأ في تطهير قناة السويس وقناتها أمام الملاحة العالمية لكي تعود إلى أداء دورها في رخاء العالم وإزدهاره ولقد أصدرت الأمر بالفعل إلى رئيس هيئة قناة السويس بالبدء في هذه العملية غداة إتمام تحرير الضفة الشرفية للقناة وقد بدأت بالفعل مقدمات الاستعداد لهذه المهمة.

● خامساً: إننا لسنا على استعداد في هذا كله لقبول وعود مبهمه أو عبارات مطاطة تقبل كل تفسير وكل تأويل ونستنزف الوقت فيما لا جدوى فيه وتعيد قضيتنا إلى جمود لم نعد نقبل به مهما كانت الأسباب ادى غيرنا.

لقد قال السادات هذا فى وقت مبكر، ثم بدأ بعد ذلك إستثمار نصره العسكرى فى تحقيق السلام الذى هاجموه وهو حى.. وظلوا يهاجمونه بعد موته حتى جاء السلام إلى من كانوا يهاجمونه فراحوا يقولون أن السادات كان على حق.. وكان ذلك هو الانتصار الأعظم الذى حققه بعد ان فارق الحياة.

«غليون» السلام!

«غليون السلام» له قصة وشهرة كبيرة فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، فعندما جاء المهاجرون البيض من كل أركان الدنيا لاستيطان الأرض التى اكتشفوها حديثاً، وفوجئوا بوجود السكان الأصليين من الهنود الحمر، كان الصراع الدامى الذى استمر سنوات طويلة بين السكان الجدد والسكان القدامى.

ومثل أى صراع فإنه لم يكن يسنمر إلى الأبد، فكان السلام بين حين والحين، وكانت الهدنة بين البيض وهذه القبيلة أو تلك، وخلال إتفاقيات السلام كان الطرفان يجلسان ويصبر الهنود على أن يدخن الجمع من غليون بدائى يمر بالتناوب على الجميع.. وخلال عملية التدخين يبدأ الجميع فى الشعور بالاسترخاء ويبدأ الضحك وتبادل النكات، وتصبح «قعة السلاج» تاريخاً قديماً... وغير منطقى بالمرّة.

وكما نعلم فإنه بعد حرب أكتوبر ٧٣، بدأ العرب والإسرائيليون يدخنون بدورهم «غليون السلام» بعد أن فقدت الحروب والعدوات معناها وجدواها، لأنها أساساً فقدت قدرتها على تقديم أى حل لمشكلة مزمنة طال عليها الأمد بشكل تجاوز كل الحدود، وكانت مصر أول من طرق هذا الاتجاه، ونعلم جميعا المهاترات التى صاحبت ذلك، ونعلم أيضاً أن الجميع سلك بعد ذلك نفس الطريق. وقد جلس السوريون مع الإسرائيليين فى كامب داي بولاية ميرلاند الأمريكية، يدخنون. إن جاز لنا التعبير. «غليون السلام» مع الإسرائيليين تماماً كما فعلنا فى «كامب ديفيد» فى نهاية السبعينات!

وفي ذلك فإن السوريين لديهم حالياً مبرزة كبرى افتقدتها مصر في مباحثات السلام مع إسرائيل، فقد كان الأمر بالنسبة لنا تحولاً مريباً وحاداً ومفاجئاً فيما هو أشبه بالصدمة منه إلى المناورة، أما السوريون فقد أمضوا سنوات طويلة قبل هذا التحول المفاجئ، مهدت لهم طريق، وعملت على تهيئة «الرأي العام» والمزاج الشعبي، لتقبل الاتجاه الذي أكدت كل الأحداث العالمية أنه الاتجاه المستقبلي الوحيد، وكشاهد بارز على ذلك هو اتفاق «كامب ديتون» الذي أقر اتجاه الحل لمشكلة البلقان حيث كانت العدوات أعمق وأكثر شراسة وتعقيد وفي هذا الإطار فإن هذا القول أن الشعوب تحتاج من خمسة عشر إلى عشرين عاماً لتنفيذ مداواتها القديمة وتبدأ صفحة جديدة، وفي التحول ذلك فإن الرأي العام السوري توافقت له هذه الترفاهية، قبل أن يبدأ التحول الاستراتيجي الكبير.

لقد أعلن ريليام بيرى وزير الدفاع الأمريكي الأسبق خلال زيارة لإسرائيل، أهم ما قيل عن مباحثات السلام بين سوريا واستهل ذلك عندما قال: إنه إذا سارت المباحثات بين دمشق وتل أبيب كما كانت، وكما نأمل أن تكون فإنه إذا رأى البلدان ضرورة وجود قوات أمريكية تنتشر في مرتفعات الجولان لحفظ السلام، فإن بلاده على استعداد لنشر هذه القوات، كذلك فإنه رغم التحفظات الشديدة من جميع الجوانب على حقيقة ما يجري في مباحثات جزيرة «واي» فقد قالت الولايات المتحدة أن الهدف النهائي لواشنطن في عام ١٩٩٦ هو مساعدة سوريا وإسرائيل على التوصل إلى اتفاق سلام شامل، ينهي جميع الخلافات القائمة بين البلدين والتي استمرت خمسين عاماً ووصفت مصادر أمريكية هذه المباحثات بأنها مثمرة بينما أعلن رئيس الوفد الإسرائيلي في المباحثات إنها تتناول. ولأول مرة.. عملية السلام، وأن الجانبين يقومان بتوضيح معالم الطريق الذي يسير عليه «قطار السلام».

كذلك لم ينس وزير الدفاع الأمريكي في تصريحه وقتها أن يؤكد الفجوة في نوعية الأسلحة التي تملكها إسرائيل عندما أعلن أن بلاده ستقدم مساعدات مائية لإسرائيل لتطوير الصاروخ الإسرائيلي المضاد للصواريخ من طراز أروستشمل حالياً ٢٠٠ مليون دولار، و ٥٠٠ مليون دولار أخرى على مدى السنوات الخمس التالية لتغطية من تكاليف برنامج التطوير المشترك لهذا الصاروخ والذي لا تساعدنا معلوماتنا

لمعرفة الصواريخ المعادية التي سنطلق من المنطقة حتى يعترضها هذا النظام الدفاعي المتقدم، والذي لا مثيل له إلا في الولايات المتحدة نفسها وفي الإتحاد السوفيتي السابق!

العربي المنشكك في عملية السلام، عندما أثبت بالدلائل القاطع أن هناك في قلب إسرائيل من يخشون السلام أيضاً ويرون فيه إضراراً مباشراً بمصالح إسرائيل، وبمعنى آخر فإنه يمكن أن يكون لصالح العرب.

أسا بالنسبة لتصريحات وزير الدفاع الأمريكي الأسبق ولييام بيرى، فقد يجوز لنا الحكم بأنها جاءت تعبر عن أحد الأخطاء الأساسية والكلاسيكية في السياسة الأمريكية والغربية بشكل عام والتي تقوم على فكرة أن دعم القوة العسكرية لإسرائيل سيدفع العرب إلى قبول السلام.. أى سلام، وفي ذلك خطأ استراتيجي كبير في العلاقات بين الغرب والعرب، ردليل أخر على الفجوة الهائلة بين أسلوب التفكير هنا وأسلوب التفكير هناك، فالفرق العسكرية لم تكن أبدا وسيلة لحل مشكلة الصراع العربي - الاسرائيلي، ودليل ذلك ان إسرائيل كانت على الدوام متفرقة عسكريا على العرب، ومع ذلك تكررت الحروب والهزات في ظل هذا التفوق الواضح لنوعية الأسلحة التي تملكها إسرائيل، وكانت آخر هذه الحروب هي أكتوبر ٧٣ التي دخلناها ونحن على يقين من أن إسرائيل، لذلك أحدثت أسلحة في العالم برية وبحريا وجويا، وان الفارق بين الأسلحة والقوات على الجانبين كانت في صالح إسرائيل، ومع ذلك دخلنا الحرب وصممنا على القتال رغم هذا التفوق النوعي الاسرائيلي.. في ذلك لم تستطع العقلية الغربية ان نهضم هذا النجاح من التفكير، لأنهم هناك يعتبرونه تفكيرا غير عقلاني ويتنافى مع المصطق تماما، وحتى عندما لجانا الى أسلوب السلام فانهم لم يتوقعوا ذلك أيضا، ولم يفهموا أبدا كيف يلجأ الجانب العربي الى اتجاه السلام بعد أول نصر عسكري في تاريخ الصراع؟ ان المنطق عندهم يقول ان فرص السلام أقوى عندما يكون أحد جانبي الصراع متفوقا بشكل واضح، وفي هذه الحالة فانه على الجانب الضعيف أن يقبل أي فرص للسلام، وكذلك فان المنطق عندهم يقول ان الانتصار العسكري يكون بمثابة دعوة لحروب أخرى وعدوان مستمر.. ولكن لا هذا ولا ذاك حدث خلال تجربة الصراع العربي - الاسرائيلي، بل ان العكس تماما هو الذي حدث.. هي الفجوة

الفكرية بين العالم الغربي والعالم العربي.. فحزرة.. ملئت على الدوام على أحداث سوء فهم وسوء تقدير لما يجرى من أحداث في منطقة الشرق الأوسط.

● وقد يجوز لنا في هذا المقام أن نشير إلى خطأ كلاسيكي آخر في السياسة الأمريكية والغربية بشكل عام تجاه أحداث الشرق الأوسط، ويقوم هذا الخطأ على فكرة أن إسرائيل هي التي ستسعد على حماية مصالح الغرب في المنطقة، وقد استمر هذا الاعتقاد سنوات طويلة، وما زال مستمرا حتى يومنا هذا، مع أن أحداث حرب الخليج الثانية بددت هذا المفهوم تماما عندما تعرضت المصالح العربية للأخطار بسبب الغزو العراقي للكويت، وفي ذلك كانت الدول العربية وفي مقدمتها مصر هي التي ساعدت على إعادة الاستقرار في المنطقة وعودة الأوضاع إلى ما كانت عليه، وكانت السخرية أن تطلب الولايات المتحدة من إسرائيل عدم التدخل بالمرة في هذا الصراع، بل إنها دفعت لها في صورة مساعدات عددا من بطاريات الصواريخ بأنثروبوت حتى تضمن سكوتها وعدم تدخلها في الصراع الدائر في المنطقة، رغم أنها تعرضت لهجوم متكرر بالصواريخ سكود العراقية، ولو كانت إسرائيل تدخلت في هذا الصراع وردت بأي أسلوب على الاستفزاز الواضح والمتعمد من جانب صدام حسين، لكانت الأوضاع والأمور كلها انقلبت رأسا على عقب، وربما وصلت إلى انسحاب - أو على الأقل حياد - القوات العربية الضالعة في تشكيل التحالف الدولي.. ربما كان هذا هو أحد الدروس الأساسية من تجربة حرب الخليج الثانية، ورغم وضوح الدرس فإن الخطأ الكلاسيكي القديم مازال سائدا في عقول كثيرين!!

وعلى أية حال فقد كانت هذه ملاحظة جانبية لاعلاقة لها بالموضوع الذي نتناوله اليوم، ولكنها تؤكد حقيقة عدم فهم الغرب لحقيقة الأوضاع في الشرق الأوسط وطبيعة الأمور في هذه المنطقة من العالم، مع ذلك فإنه لو كانت نصريحات وزير الدفاع الأمريكي قد جانبتها الحصافة، وجاءت في غير محلها ولا يمكن أبدا أن نخدم السلام الذي ينشده الجميع، فإنه على الجانب الآخر كانت تصريحات وزير الخارجية الأمريكية وارن كريستوفر، السابق أكثر حصافة وموضوعية عندما أعلن بوضوح «أن السلام لا يمكن أن يسدمر إلا إذا نتجت عنه فوائد ملموسة في معناه شعوب المنطقة التي عانت عشرات السنين من الصراع رفعها إلى القمة». هذا تكون هذه هي اللغة ونوع

الخطاب الذى يمكن أن يكون مقبولا من جميع الأطراف، خاصة انه لا يتضمن أى إشارة من قريب أو بعيد الى القوة العسكرية وانظمة التسليح الحديثة، التى لا يمكن أن تؤدى إلا للاستفزاز والتوتر، الذى لا يؤدى بدوره إلا لمزيد من سخونة الموقف، وخلق مناخ لا يخدم بالمرّة عملية السلام.

ان أهم التطورات بالمنطقة فيما يختص بعملية السلام هى ان الجميع سواء وقعوا أو لم يوقعوا - أصبحوا على قناعة تامة بان السلام هو السبيل الوحيد المتاح وانه لا بديل عنه، كذلك أدرك الجميع الحاجة الماسة للاستقرار وانه لا سبيل لذلك بدون السلام، وفضلا عن هذا وذلك فان الفجوة الاقتصادية الهائلة التى يتميز بها عالم اليوم جعلت الجميع يدرك ضرورة المعركة الأساسية التى تدور أساسا حول البناء والتنمية، وفى ذلك كان النموذج اليابانى فى أقصى الشرق، والنموذج الألمانى فى قلب أوروبا، هما أبلى دليل خاصة ان كلا البلدين كانا نموذجا للمجتمعات المتشعبة بالزراعة العسكرية، ورائدان فى الحل العسكرى الى الحد الذى جعل العالم كله فى حالة حرب شاملة خرجت منها اليابان وألمانيا دمارا كاملا، وكان عليهما البدء من جديد من درجات شظيرة تحت الصفر.. ومع ذلك، ورغم ذلك كله، دخلنا نحن هنا نفس التجربة حتى آخر لحظة، والآن وبعد حوالى نصف قرن كامل من التجارب التى هزت تفكير العالم كله وغيرت من المفاهيم التى سادت طوال التاريخ.. بدأ الجميع عندنا يدرك حقيقة الأمور، وهذا هو أهم ما فى الموضوع.. ونافذة الأمل بالنسبة لكل شعوب المنطقة....
حقائق أدركها كل المحاربين - بمن فيهم الهنود الحمر - منذ مئات السنين ■

الجنرال الفبى!

ربما كان السلام بين العرب واسرائيل هو أغرب سلام فى تاريخ النزاع الإنسانى، ولاغربة فى ذلك فهو سلام «شرق أوسطى» وبالتالى يختلف قطعا عن كل أنواع السلام فى أركان الدنيا، ماصيها وخصمها، شأنه فى ذلك شأن كل ما يحدث - او ما يأتى - فى هذه المنطقة الساخنة أبدا.. فهو بالقطع ليس سلاما مثل هذا الذى شاهدناه بين المانيا والحلفاء فى أعقاب أضخم حرب شهدتها العالم بأجمعه، او سلاما كالذى شاهدناه بين الحلفاء واليابان، وهى الدولة التى كانت تقدر النزعة العسكرية، ولا بين أمريكا وفيتنام التى كانت الحرب بالنسبة لها هى الاختبار الوحيد المتاح، ولكن السلام بين العرب واسرائيل هو «سلام شرق أوسطى» من نوع فريد، تخيم على محادثاته أجواء المعارك أكثر من ظلال أجنحة «الحمام» وأغصان الزينون!

وربما كان من أغرب جوانب هذا السلام عندنا أن الحروب بيننا وبين اسرائيل لم تستغرق سوى أيام معدودة، بينما عملية السلام بيننا تدخل الآن عامها الثامن عشر ومازال السلام ناقصا لم يتحقق بالكامل وبالشكل الذى ينبغى أن يكون عليه. وعلى عكس ذلك تماما، فإن الحروب فى كل أركان الدنيا استغرقت سنوات مديدة وطويلة بينما لم يستغرق تحقيق السلام بينهم سوى أيام او أشهر قليلة فى أسوأ الظروف، فى ذلك فإن المسألة ليست مسألة جذور تاريخية بقدر ما هى عقلية مختلفة تماما.. «عقلية شرق أوسطية تحمل فى ثناياها كل متناقضات الدنيا، وكل تراكمات التاريخ دون أن تعى كثيرا من دروسه.

لقد شاهدنا معا توقيع اتفاق طابا، الذى يشمل المرحلة الثانية من اعلان المبادئ لتوسيع سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة الغربية، وهو بلا شك خطوة مهمة وحيوية على طريق السلام الشامل بين العرب واسرائيل، ولكن روحا غريبة كانت تخيم على هذا الاتفاق فجعلت منه أقرب الى اتفاق طلاق بين زوجين أثر زيجة فاشلة قرر بعدها الطرفان الانفصال، وان ينص العقد على كل مايناله كل طرف من ممتلكات وأثاث وأمتعة، وامتدت بنود العقد لتشمل حوالى أربعمئة وخمسين صفحة بسبب التفاصيل الكثيرة، وسبب المخاوف وعدم الثقة، وسبب ان روح السلام الحقيقى لم تخيم بعد على المنطقة، ورغم كل الاتفاقات التى أبرمت.

وفى الوقت الذى كان يتفاوض فيه الطرفان على مائدة السلام فى فندق طابا - ولا ننسى أن طابا هى الأخرى كانت ملحمة طويلة ومضنية فى عملية السلام بين مصر واسرائيل - فى نفس هذا الوقت الذى كان يتفاوض فيه أصحاب المشكلة الحقيقية، كان التطرف السياسى فى المنطقة قد وصل الى ذروته على الجانبين يطالب بنبذ العملية السلمية دون ان يقدم بديلا واحدا يتسم بالعقلانية، او الواقعية، او حتى أدنى رغبة فى ايجاد مستقبل أفضل للجميع، بل أن هذا التطرف وصل الى حد نبذ السلام دون أن يقدم أى بديل من أى نوع!!

وحتى تزداد المسألة تعقيدا فانه فى الوقت الذى لاح فيه بصيص أمل للشعب الفلسطينى، الذى عانى مالم يعاينيه أى شعب آخر، فى هذا الوقت بالذات خرجت علينا ليبيا من أقصى اتجاه الغرب تقرر فجأة طرد الفلسطينيين، الذين عاشوا سنوات فوق أراضي ليبيا يعملون وينتجون ويحاولون ايجاد حياة شريفة فوق أرض شقية.. فجأة قررت السلطات الليبية ذلك، اربا كالمسرح سياسى تتقوص أركانه أساساً بسبب فوضوية القرار، والتغير الحاد فى المزاج الشخصى!

ولأن التطرف هو درجة من درجات الجنون، فان الواقع دائما ما يأتى مخالفا لتصورات وارادة هؤلاء، ومن هنا جاء تطور الأحداث وفى مقدمتها اتفاق طابا، مغايرا تماما لماهيات له عناصر التشدد هنا وهناك، وظلت طوال أشهر تقرر بشكل هيسيرى طبول العنف والعداء، كما لو كان السلام، هو الآخر نزوة مزاج، عابر، وليس استراتيجية فرضها الواقع وتجارب طويلة خرجت عن النطاق المحلى، ولعبت فيها كل الاطراف الدولية دورا رئيسيا ومباشرا.

ولاشك أن الكراهية موجهة بين الطرفين، وأنها عميقة الجذور وبشكل متداخل، ولاشك أيضا أن هناك من بغذى هذه الكراهية عمدا على الطرفين، وهناك أيضا من يستغلها لأسباب سياسية وشخصية، وقد كان آخر من غذى هذه الكراهية عمدا وبصفاقة بالغه هذا المدعو إيريه بيرو الذى اعترف بصلف غير مسبوق بأنه قتل عمدا مئات من الأسرى المصريين فى سيناء خلال حرب ١٩٥٦ .. عمل حقير يصعب على أى انسان متزن ان يعترف به جهاراً، وجاء فى توقيت بالغ الحساسية، ومن ثم لايمكن ان نكون من السذاجة والغفلة بحيث نأخذه على انه مصادفة، اوصحوة مفاجئة لضمير أنبتت أفعال الماضى انه معدوم، وان صاحبه خرج الى الحياة بعيب خلقى بتمثل فى نقص عضو معنوى اسمه الضمير!!

وقد يجوز جدا لنا الآن أن نأخذ هذا الاعتراف الغبى من هذا الجنرال الغبى، على انه كان محاولة . او قل، مؤامرة - لاجهاض اتفاق طابا بالذات، لأن هذا الاتفاق يعنى بالدرجة الأولى تبديد الحلم الصهيونى بشأن انشاء اسرائيل الكبرى، وكل ما استشهد به البعض من التوراة لاثبات أن هذه الأرض باكملها هى أرض الأجداد، وان كل بقعة منها جاء ذكرها فى الكتاب المقدس لليهود... نعم ان هذا الاتفاق بالذات يعنى تخلى اليهود عن حلم اسرائيل الكبرى، ومن ثم قامت المظاهرات الضخمة فى اسرائيل عقب توقيع الاتفاق، وهاجم الاسرائيليون رئيس الوزراء اسحق رابين الذى كانوا يحملون صوراً له «بالعقال الفلسطينى» متهمينه بعدم الولاء لدولة اسرائيل أن ولاءه أكبر بالنسبة للعرب والفلسطينيين .

وقد يتساءل البعض لماذا اختار المتآمرون على السلام والذين كان الجنرال السفاح بالنسبة لهم أداة غبية يحركونها كالدمية لتقول هذا او ذاك قد يتساءل البعض لماذا اختار هؤلاء قصة الأسرى المصريين فى عام ١٩٥٦ والإجابة المنطقية عن ذلك هى . أن إثارة المصريين فى هذا الوقت ستجعل من مصر غير قادرة على تقديم العون الذى يحتاجه الفلسطينيون فى مباحثاتهم الصعبة والحرجة من أجل توسيع سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة، وان الرئيس مبارك بدلا من أن يلعب دوره الأساسى والمتميز فى تقريب وجهات النظر بين الطرفين وفى استغلال علاقاته واتصالاته الدولية للضغط على من يحاول الجور على عملية السلام وتحويلها إلى

مكاسب لجانب واحد فقط . بدلا من ذلك وبدلا من أداء هذا الدور الفعال، فإن الرئيس مبارك سيكون مشغولا بالتعامل مع الأزمة التي أثارت كل المصريين وفتحت جروحا عميقة بعد أن كادت تلتئم، بل وربما أن الرئيس مبارك الذي بساند عملية السلام بكل قوته ويعمل كل ما يمكنه ليجعل منها عملية سلام شامل تشترك فيها كل الأطراف العربية.. بدلا من ذلك فإن الرئيس مبارك قد يضطر هو الآخر لنسف ما تبقى من هذه العملية وعدم تشجيع المضي قدما لتحقيق السلام الشامل في المنطقة وبالتالي يظل « حلم إسرائيل الكبرى حيا ينبض بقوة في وجدان وعقول كل المجانين!!

اعتقد أن هذا كان هو الهدف المراد، خاصة وأن حلم إسرائيل الكبرى لا يراود إلا إذهان ووجدان المتطرفين والمتشدددين والمخبرلين هناك أما بالنسبة للعفلاء الذين يتعاملون مع واقع الحياة وروح العصر الذي نعيش فيه فإنهم هنا وهناك يقومون بما يتفق وينسجم مع هذا الواقع ولذلك فهم بالنسبة لهؤلاء المجانين «خونة» و«عملاء» للعرب والفلسطينيين! وعلينا أيضاً في هذا الإطار نضع في اعتبارنا أن الانتخابات الإسرائيلية ستجرى بعد بضعة أشهر، وأن هناك أجنحة أخرى على المسرح السياسي في إسرائيل ترغب في هزيمة رئيس الوزراء الحالي وأن الدريعة التي يمكن أن يستخدموها بكفاءة وقاعية هي أن رابين وبيرنز أضعافاً مضاعفة «الحلم الجميل» بل إنهما حولاً مع كل الأحلام والأمانى إلى واقع مرير وكوابيس لا شيء إلا من أجل استمرار عملية السلام وتقديم التنازلات للفلسطينيين!

● وبالفعل عندما سمع المصريون اعترافات قتل الأسرى في حرب ١٩٥٦، ثار الرأي العام المصري وتناول جميع الكتاب ورجال الصحافة والأعلام هذا الحادث بهجوم ضار لم تشهده العلاقات المصرية الإسرائيلية منذ توقيع اتفاقية السلام بين البلدين، ولقد كان ولا بد أن يثور الرأي العام عندنا، وكان ولا بد أن يثور كل الشرفاء من رجال الصحافة والأعلام متناسين جميعاً اتجاهاتهم وانتماءاتهم السياسية المختلفة، كان ولا بد أن يحدث ذلك فالمجتمع المصري مجتمع نابض دوماً وممثلة بالحياة، ولكن الشيء الوحيد الذي اغفله من فجروا هذه القنبلة في هذا الوقت الحساس هو رد فعل الرئيس مبارك في مثل هذه الأحوال، لقد كان الرئيس أول من سمع بهذه القصة ولم ينتظر قراءتها في الصحف كما فعل معظمنا، وارتاب الرئيس من غرابة الاعتراف

المفاجئ ومن التوقيت المحسوب بعناية، وفي مثل هذه الأحوال فإن أفضل الحلول هو المضي قدماً فيما تقوم به مصر حتى لا يضيع الهدف، والانتظار حتى يتبدد الضباب وتنكشف الحقيقة.. وكان هذا هو ما حدث وتحقق الاتفاق بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ومن ثم اندلعت مظاهرات المتشددین في إسرائيل في الوقت الذي كان يقف فيه الرئيس مبارك شامخاً في البيت الأبيض الأمريكي مع الرئيس كلينتون والرئيس عرفات ورابين وبيريز والملك حسين وعدد من قادة العالم يحتفلون بانجاز الاتفاق التاريخي، الذي يبشر بسلام حقيقي في الشرق الأوسط على حد وصف وسائل الأعلام العالمية.

بذلك سقط بيرو ومن حركوه ودفعوه إلى هذا الاعتراف، لأن الأمور وصلت إلى الحد الذي لا يمكن معه السكوت على هذه الجريمة الحقيرة، ولما كان السلام قد وصل إلى منطقة اللاعودة خاصة بعد اتفاق طابا، فإن تكلمة المشوار الصعب تحتاج أول ما تحتاج إلى معالجة حاسمة للجهات، والدوائر والأشخاص الذين يعرقلون ويهددون هذا الاتجاه وفي مقدمة هؤلاء يأتي هذا الجنرال السفاح وكل من وقفوا خلفه في ساحة المعركة خلال حرب ٥٦، وفي الحلبة السياسية الإسرائيلية حالياً استعداداً للانتخابات الجديدة في العام القادم، ويجب أن نعي جيداً أن الذين خططوا لهذه العملية ويحلمون بالفوز في الانتخابات القادمة، أرادوا بالدرجة الأولى أن يتخلصوا من قيود التزامات مسبقة تفرضها الآن حكومة رابين في إطار الاتفاقات السلمية مع الجانب العربي، وبالتالي تصبح اتفاقات ملزمة لأي حكومة تأتي بعد ذلك، هذا والا تفقد إسرائيل صورتها كدولة ديمقراطية، وتفقد أيضاً مساعدات ومساندات كل الدول التي لعبت دوراً في تحقيق هذه الاتفاقيات، وفي مقدمة هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية.

ولأن السلام قد وصل إلى نقطة اللا عودة كما قلنا فإن المرحلة القادمة تشمل المسارين السوري واللبناني، حتى يصبح السلام شاملاً ويسود ربوع المنطقة بأكملها وإذا أردنا أن نستفد من خبرات ثمانية عشر عاماً في أروقة ودهاليز العملية السلمية فعلياً جميعاً أن ندرك أن التطرف موجود وكامن في كل أرجاء الشرق الأوسط وأن هذا التطرف يقتنص الفرص ليفرض نفسه على الساحة أملاً في فرض البدائل التي تنسجم مع اتجاهاته، ومن هنا فإن البطء في عملية السلام يعتبر غذاء ووقود للبقاء

على التطرف، لأنه يعمل على الدوام على إحياء الأمل بالنسبة لهؤلاء في أن يتمكنوا يوماً من تحقيق غايتهم المنشودة، مادامت العملية السلمية الشاملة لم بحسم بالكامل، ومادامت هناك أطراف أخرى مازالت تنقدم بحذر خطوة واحدة إلى الأمام ثم سرعان ما ترتد إلى الخلف خطوتين.. ومادام هذا الموقف مستمرا فإنه يعتبر تشجيعاً - وليس تغليبا - لجميع اتجاهات التطرف في المنطقة وهي اتجاهات اعتقد أن كل الحكومات والدول - وحتى حكومات ودول الشرق الأوسط - تنفق على ضرورة القضاء عليها، من أجل الحياة والبقاء، ولا أقول «من أجل مستقبل أفضل للجميع» لأنها عبارة رنانة أصبحت مستهلكة، ولأن مستقبل أي دولة يعتمد بالدرجة الأولى على سواعد وانجازات أبنائها.

القدس - وذرية قابيل!

يبدو أن الإسرائيليين لا يعرفون كيف يجلبون الراحة لأنفسهم أو لغيرهم، مثلهم في ذلك مثل الأغريق القدامى، وإذا كان الأغريق قد حرموا أنفسهم من راحة البال بسبب القضايا الفلسفية التي تطرقوا إليها، والتي لم تجد إلى يومنا هذا حلا أو إجابة شافية، فإن الإسرائيليين يؤدون نفس الغرض ولكن بقضايا سياسية ومشاكل وعقبات لن تجد حلا، ولن تؤدي إلا لمزيد من التعقيد، ومزيد منه التسخين لمنطقة تهوى الوصول والخروج من درجة الغليان.

ولقد كانت إحدى هذه المشاكل التي جلبوها هي مشكلة القدس التي اختاروها من بين سائر المدن لتكون عاصمة لدولتهم، ورغم أن الاختيار لم يلقى ترحيبا عالميا كما اعتادت دائما إسرائيل، ولقى بالطبع صدمة في العالمين العربي والإسلامي، ورغم ذلك فإن إسرائيل ابتدعت احتفالا غريبا اسمه الاحتفال «بعيد الميلاد الـ ٣٠٠ لمدينة القدس، كما لو كانت هذه المدينة الحزينة لم تعرف في تاريخها غير اليهود، وكما لو كان العالم لا يوجد في تاريخه كتب مقدسة غير التوراة، بل كما لو كانت التوراة لا تضم شيئا غير قصة الملك داود. وبدأت الاحتفالات بالألعاب النارية وحفلات الغناء والموسيقى، ولكن كانت الصدمة الأولى بالنسبة للمسؤولين الإسرائيليين إنه من بين سبعين سفيرا وممثل دولة في العالم، ثم توجيه الدعوة إليهم، كان أن جاء للاحتفال سبعة عشر سفيرا فقط بينما اعتذر ثلاثة وخمسون سفيرا من بينهم السفير الأمريكي الذي كان حضوره يعنى الكثير.

فى هذه الأثناء اكتفى العرب من سكان أندلسة بإطلاق بالونات فى الهواء تحمل الأعلام الفلسطينية وذلك فى احتفال حزين صامت وعاجز. صمت وعجز الدول العربية والإسلامية التى نشغل نفسها باحتلال دول عربية أخرى، أو بطرد العمال والمواطنين العرب والترحيب بعمال آسيا، أو بالأسنخفاف بعقولنا بزعم قصص ومؤامرات لو صدقناها لزادت عقولنا خفة وضحالة.. أو.. أو، أو.. أى أشياء من هذا القبيل التى تنخر فى كياننا مثل سرطان العظام والنخاع عندما يجتمعان معاً، ويتكاثرا ضد مريض تتابعته عليه كل أمراض الدنيا!!

كان إجراء إيجابيا أن يمتنع هذا العدد الكبير من السفراء وممثلى الدول عن حضور هذا الاحتفال المشاغب، وفى الوقت الذى خرج فيه عدنان حسيني رئيس الأوقاف الإسلامية بمدينة القدس، يعلن أن القدس كانت مدينة عربية لأكثر من خمسة آلاف عام، وكانت مدينة إسلامية لمدة ١٤ قرناً من الزمان.. خرج اليهود وأمرت عمدة القدس يعلن بصفقة المجانين أنه: ليس هناك إنسان فى العالم يتعاطف مع أى إنسان عاش فى مدينة القدس خلال الـ ٢٠٠ عام التى سبقت وجود الملك داود..

● وإذا كان اتفاق السلام بين العرب وإسرائيل عمداً إلى أرجاء بحث قصية القدس عملاً بمبدأ أرجاء نقاط الخلاف إلى نهاية المباحثات، إذا كان الأمر كذلك فإنه يجوز لنا القول أن السلام العربى-الإسرائيلى يتضمن لأول مرة فى تاريخ العالم، نوعاً من الهدنة، يمتنع خلالها الطرفان عن الاشتباك، ولا يجوز استغلالها لتحقيق أى مكاسب.. إذا كان الأمر كذلك فإن محاولة اضفاء الطابع الإسرائيلى على القدس، بما فى ذلك هذه الاحتفالات الاستفزازية، لابد وأن تعتبر نوعاً من خرق اتفاق الهدنة إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير العسكرى،.. وقد يستغرب البعض من استخدام تعبيراً عسكرياً فى عملية السلام، ولكن لا ينبغي أن يستغرب أحد لأن كل شئ جائز فى منطقة الشرق الأوسط.

أن التاريخ يقول لنا أن ممارسات التعصب الدينى فى هذه المدينة التى تضم مقدسات كل الأديان السماوية، لم تؤد لغير المذابح الجماعية البشعة، وحروب وأحقاد استمرت مئات السنين ومازلنا نعانى من آثارها حتى يومنا هذا، وما زالت تكمن فى أعماقنا اعترافنا بذلك أم نعترف... ونظرة واعية للجانب الدموى من تاريخ هذه المدينة قد فسر لنا كثيراً من أوضاع الحاضر، وجانباً من احتمالات المستقبل.

نقد كان الامبراطور البيزنطي «الكسيوس» هو الذي طلب في عام ١٠٩٥ من البابا أوربان الثاني أن يساعده ضد المسلمين الذي أصبحوا يهددون القسطنطينية، بل واحتلوا القدس والأراضي المقدسة، وشرح الكسيوس «أنه من شأن انتصار المسيحية على المسلمين أن يعود بيت المقدس إلى الحكم المسيحي، وقد يعيد أيضاً توحيد الكنيستين الشرقية والغربية اللتين انشقتا منذ عام ١٠٥٤ م.

ويقول المؤرخون أن الامبراطور الكسيوس قد يكون طلب فعلاً المساعدة من البابا ضد المسلمين، ولكن حتى لو كان ذلك صحيحاً، فإنه ولا بد أن يكون قد وضع نصب عينيه المكاسب التي سيتحصل عليها من إنشاء جيش أرستقراطي من الفرسان يتمتع بدرجة عالية من التنظيم واقترب بذلك بطبع هؤلاء جميعاً إلى الجهاد وفكرة الحرب المقدسة، بتطلعهم إلى التكسب وجنى الثروات من المسلمين والبيزنطيين «الزنادقة».

ولما كان السلم الاجتماعي في أوروبا في ذلك الوقت يصم في نهايته افواجا هائلة من الفقراء والمعدمين، فإنه حينما قام الوعاظ المتجولون من أمثال «بطرس الناسك» بنشر دعوة البابا، فإن افواج الفقراء تلك سارعت بالانضمام إلى الحرب المقدسة بغرض أساسي يقوم أولاً واخيراً على اصفاء معنى لحياتهم التعسة التي لا تحمل أي قيمة، وهكذا انضم الفقراء المعدمين مادياً ومعنوياً إلى الفرسان الأرستقراطيين في زحفهم المقدس من أوروبا إلى القسطنطينية وأدى هذا الاندماج إلى تحويل تلك الجيوش إلى جيوش صليبية شعبية غير مدربة وغير منظمة، ويسمى المؤرخون الغربيون الآن بالجيوش الآفاقة التي خرجت لاستئصال شأفة «ابناء... من ذرية قابيل» (كما كانوا يسمون المسلمين في ذلك الوقت).

وباسم المسيح استولت الجيوش الآفاقة على المدن الأوروبية، والغريب أن تلك الحملات الصليبية بدأت بأول مذبحة ضخمة لليهود. فقد أعلن الصليبيون: لقد خرجنا في زحف طويل لقتال أعدائنا في الشرق (المسلمين)، ولكن أمام أعيننا الآن أسوأ أعداء الله وهم اليهود. فعلينا بآبادة هؤلاء أولاً، وكانت جاليات اليهود قد جمعت طوال قرون من الزمن عبر نهر الراين في رعاية الأساقفة المسيحيين، وهنا طلب غوغاء الصليبيين من أولئك اليهود أن يتحولوا إلى الدين المسيحي أو يستعدوا للهلاك... ولم يدم الوقت طويلاً حتى قام الغوغاء بسفك دماء هؤلاء اليهود في مذبحة ضخمة قاموا

بها كبروفة تمرينا على المهمة الأساسية التي تنتظرهم فيما بعد فى القدس خلال المجابهة مع «ذرية قابيل» .

وحتى امبراطور بيزنطة . الذى كان قد طلب المساعدة فى البداية من البابا . اعتراه الرعب من منظر هذه الجيوش الصليبية وتأكد أن القسطنطينية تتساوى مع القدس أمام هؤلاء الغوغاء والأفاقيين، ونجحت الطبقة الحاكمة فى بيزنطة فى توجيه جيوش الأفاقيين « تلك إلى القدس حيث كان المسامون ينتظرون هناك بسذاجة وسماحة ولا يتوقعون ابدا هجوما بهذا القدر من العنف والشراسة والتصميم على الإبادة وفى عام ١٠٩٩ تمكن الصليبيون من القدس ولنقرأ معا هذه الفقرة من كتاب «متابعة الألفية» للمؤلف الأمريكى نورمان شون:

بعد أن سقطت القدس وقعت المذبحة إذا تم ذبح جميع المسلمين رجالا ونساء وأطفالا، جميعهم فيما عدا الحاكم وحراسة الذين اشتروا حياتهم بالمال . فاصطحبهم إلى خارج أسوار المدينة وفى معبد سليمان وحوله خاضت الجياد فى الدماء التى وصلت حتى سروج الجياد.. لقد كان حكم الله عادلا ورائعا.. أن نفس هذا المكان الذى ارتفعت فى أرجائه هرطقات هؤلاء الذين جدفوا فى حق الله، هو نفس المكان الذى يتلقى فيه الخالق الآن دماء هؤلاء .

وعندما لجأ يهود القدس إلى معبدهم الرئيسى فى المدينة هربا من المذبحة، فقد أضرم الغزاة النيران فى هذا المعبد ومات كل اليهود فيه حرقا، ثم سار الصليبيون بعد ذلك فى مواكب النصر الى كنيسة القبر المقدس وهم يكون فرحا وابتهاالا وينشدون اغانى الشكر لله صائحين: أيها اليوم الجديد، أيها اليوم الجديد أيتها البهجة أيها الفرح الجديد الدائم.. ذلك اليوم خالدة ذكراه إلى الأبد . ذلك اليوم حول كل عذابنا والامنا إلى فرج وسرور، ذلك اليوم تأكيد قاطع للمسيحية ومحق للوثنية، وتجديد لإيماننا .

أى إيمان هذا الذى كان يتحدث عنه هؤلاء الأفاقيين؟! أن تعاليم السيد المسيح كانت صريحة من ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر».. لكن هؤلاء الأفاقيين لم يضربوا أحد على الخد الأيمن ولا حتى أصبع الإبهام الأيسر، ولكنهم جاءوا أساسا تخليصا من الفقر وسعيا للسلب وللعنائم . وجاءوا أيضا . كما يقول المؤرخون الغربيون

المعاصرون - لاضفاء معنى لحياتهم التعسة فى أسفل السلم الاجتماعى بأوروبا التى كان يسودها الظلم والاضطهاد، وجاءوا مرة أخرى لأن البعض هناك تصور أنه سياسى محنك وداهية - تماما كما تتصور العقول المحركة لظاهرة الإرهاب فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

ومزجوا الدين بالسياسة واحيوا فى نفوس الغوغاء نكرة لا تنطفئ تقوم على فكرة انهم وحدهم هم الأقرب إلى الله، وإن ما دونهم كافر وزنديق!

● ولأن لكل فعل رد فعل، فقد توحد المسلمون وفاقوا من سباتهم، واستطاعوا فى عام ١١٨٧ ان يستعيدوا مدينة القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي، فكان رد أوروبا بحملة صليبية ثانية كما نعرف والتى كان بين قادتها ريتشارد قلب الأسد الذى وصل وحده إلى الأراضى المقدسة لمواجهة صلاح الدين وعندما عجز عن الاستيلاء على القدس، واستمرت المفاوضات بينه وبين صلاح الدين أطول مما يتحمله مزاجه العصبى الحاد، قام قلب الأسد هذا بمذبحة أخرى ضد المسلمين قتل خلالها ما يقرب من ثلاثة آلاف أسير، وعندما ازدادت حدة مزاجه زعم أن الأسرى القتلئ ابتلعوا ذهباً فى بطونهم فامر ببقرها بحثاً عن الذهب!.. ثم ازدادت حدة مزاجه مرة أخرى فأمر بحرق القتلئ الأسرى وتحليل رماد الجثث بحثاً وثقانياً عن ذهب مزعوم لم يعثر عليه أحد من الآفاقين الغوغاء الباحثين عن الثروة والغنائم!

لم تكن هناك عقائد أو أديان وراء ذلك، فالأديان كلها تنهى عن هذه الوحشية، ولكن المسألة منذ البداية نفاق وممارسة للأبادة وأكبر دليل على ذلك أن هذه الحروب التى ارتكبت باسم المسيح انتهت بتدمير أكبر مدينة مسيحية فى العالم، وكان تدمير هذه المدينة، «القسطنطينية» هو الخاتمة الغربية للحملة الصليبية فى سبيل تحرير الأراضى المقدسة ولأن الذهب والسلب هو الهدف الحقيقى فقد قام الجيش الصليبي الشعبى بنهب المذابح والكنائس فى هذه المدينة وصهروا التحف الفنية التى لا تقدر بثمن من أجل الحصول على ما فيها من معادن ثمينة، وحطموا المحاريب والفسيفساء من أجل ما فيها من جواهر، وضاعت إلى الأبد مخطوطات تاريخية نادرة للكنيسة والعالم القديم.

ولأن التاريخ والأحداث الجسيمة تترسب في أعماق وجدان البشر والمجتمعات الإنسانية، فإن تاريخ القدس لم ينسه أحد لا عندنا ولا عندهم، وفي بداية القرن العشرين خلال الحرب العالمية الأولى رأى الحلفاء أن يحرزوا نصرا سهلا بالاستيلاء على القدس لتغطية هزائمهم في أوروبا، وعندما ذهب الجنود البريطانيون والفرنسيون إلى القدس كانوا يتشدون، لقد عدنا يا صلاح الدين وذلك رغم إن صلاح الدين مات منذ مئات السنين، وأمر بتوزيع ثروته بعد مماته على فقراء المسلمين واليهود والمسيحيين!!

ورغم أن اليهود تعرضوا للمذابح داخل القدس وخارجها مثلهم في ذلك مثل المسلمين، بل وبعض المسيحيين الشرقيين فإنهم يبدو أنهم لم يعوا الدرس جيدا ولم يدركوا خطورة استغلال الأديان في مسائل وقضايا سياسية، وعادوا في حرب ٦٧ المشثومة ليحتلوا مدينة الأحزان الدفينة، ثم جاءوا في نهاية القرن العشرين، بعد أن تخطى العالم المسيحي الغربي عن عدوانيته وأصبح التحضر حائلا بينهم وبين المقدسات الدينية للآخرين... عاد اليهود ليختاروا هذه المدينة بعينها لتكون «عاصمة أبدية وموحدة، للدولة اليهودية.. والتاريخ يقول غير ذلك تماما، ويقول أن المسلمين دفعوا في هذه المدينة ثمنا باهظاً من الثروات والأبناء والدماء، ويقول أيضاً أنها مدينة مقدسة لكل الأديان، وأن التعصب الديني داخل أسوارها يجعلها في لحظة قابلة لاشتعال لا يخمد إلا بعد مئات السنين.

الشرق الأوسط الذى صنعته

مصر!

السلام يتطلب شجعانا!

يقولون إن العظماء يصنعون التاريخ، وإنهم قلة من البشر يندر أن يجود بهم الزمن، وخاصة زمننا الراهن الذى اعتراه الجفاف الإنسانى والوجدانى.. ومع ذلك ورغم أن التاريخ فى معظم الأحوال هو من صناعة وصياغة قلة من العظماء فإن ما يقوم به السواد الأعظم من الناس هو الأكثر تأثيراً وقدرة على تغيير شكل الحياة... السواد الأعظم، أو الناس العاديون الذين لا دخل لهم بالسلطة، وبالأضواء وبالتاريخ وأمجاده، هؤلاء الناس تظل ارادتهم فى النهاية هى عامل الحسم فى تغيير شكل الحياة، فى ذلك فإن القادة والسياسيين يعملون على فتح آفاق جديدة، ولكن غزو هذه الآفاق وارتياحها يظل من واجبنا نحن وحدنا، وإلا ظلت هذه الآفاق مجرد نوافذ لفرص ضائعة تعمل على تعميق الإحساس بالحسرة والضياع!

فى هذا الإطار بالضبط يمكن أن ننظر إلى عملية السلام فى الشرق الأوسط، فقد خرج من أراضينا رجل عظيم آمن بأن الخوف هو العدو الأول للإنسان ولل البشرية، فكان السادات أول من قال «لو كان الخوف رجلاً لقتلته»، وفى تصورى أن تحرره من الخوف هو الذى جعله يتخذ قرار الحرب فى أكتوبر ٧٣ لأنه لو كان خاف ولو للحظة واحدة لما أستطاع أن يتخذ هذا القرار الخطير حتى يومنا هذا، ولكننا جميعاً تحولنا إلى «دراويش إنشاده» تتغنى بالحرب والعبور وهى قابضة فى مخابئها غربى القناة تفلسف الأوضاع والأقدار والظروف الدولية السائدة!! كذلك فإن تحرر هذا الرجل العظيم من مشاعر الخوف وإحساسه بالمكاسب الهائلة التى حصل عليها من جراء هذا التحرر،

رائتي تغلبت بي أول نصر عسكري على القوات الإسرائيلية ، هذا الإحساس هو الذي شجعت على اتخاذ القرار الأكثر خطورة وشجاعة بتحقيق السلام مع إسرائيل» وعندما هبط من على سلم طائرته في مطار بن جوريون قالت أفلام وميكروفونات العالم المتحضر إن خطوة السادات فوق أرض إسرائيل كانت أشجع بمراحل من خطوة رائد الفضاء الأمريكي نيل أرمسترونج فوق سطح القمر!!

كل هذا الكم من الشجاعة، وهذه الريادة، لم تكن لنسفر عن شيء لو لم يكن هناك قادة آخرون اتوا بنقلهم في هذا الاتجاه، ومن الإنصاف القول بأن الرئيس مبارك حقق في هذا الصدد ما لم يحققه زعيم غيره على مستوى المنطقة بأكملها ، هذا تفوق الأحداث، وهذا سجل التاريخ، ولأن السلام منذ بدايته هو عملية مصرية في المقام الأول ريادة وفكر وانجاز، فإن عملية السلام بين مصر وإسرائيل استطاعت أن تنقلب على جميع الصعاب ابتداء من مستوطنات سيناء، التي كانت نماذج لمدن مستقبلية، وانتهاء بقطي الحدود رقم ٩٠ و ٩١ ومشكلة طابا التي نبعت من هذا الخلاف الحدودي.. كل الصعاب أمكن التغلب عليها لسبب واحد هو أن الشعب المصري بكل طوائفه خرج من بكرة أبيه يوم عودة السادات من القدس، واستقبل زعيمه استقبال الأبطال - على عكس كل التوقعات والتقارير الأمنية - ومن مطار القاهرة وحتى مقر السادات بالجيزة، وقف المصريون البسطاء في الشوارع وفي نوافذ بيوتهم منازلهم يهنفون للبطل العائد ويؤيدون خطواته التاريخية، وهكذا فإن عملية السلام بين مصر وإسرائيل اشترك ونضافر في صنعها عظماء القادة، والسواد الأعظم من الناس، ولهذا السبب وحده، أصبح الحلم البعيد حقيقة واقعة تفرض نفسها على مسرح الأحداث افليميا وعالميا وتاريخيا.

وحسب بالنسبة لأولئك الذين عارضوا العملية السلمية بين مصر وإسرائيل في بدايتها، فإن أعدادهم بدأت تنقلص تدريجيا مع تطور الأحداث ومع ازدياد تفهمهم للأبعاد الحقيقية لهذا التطور الحتمي، ولما كانت مصر دائما هي التي نتبنى القضية العربية عسكريا ودبلوماسيا ودوليا وإعلاميا ووجدانيا، فقد كان في مصر دائما روافد لكل اتجاه وكل رأي عربي، حتى لو كان هذا الاتجاه أو هذا الرأي يتناقض مع الأهداف القومية المصرية، وكان اصرخ النماذج في هذا الصدد أن أراء ومواقف

وسياسات صدام حسين بشأن السلام العربى - الإسرائيلى، كان لها صدى مسموع وملاموس فى مصر لم يتبدد ويتلاشى تماما إلا بعد النتائج المفجعة لهذه السياسات والتي تبلورت بشكل مأساوى بعد غزو الكويت وحروب «أم المعارك».. المهم أن مصر منذ نهاية الأربعينات وحتى يومنا هذا أثبتت على الدوام أنها «الراعى الأول» للقضية الفلسطينية وأى قصة تمس العرب - بغض النظر عن تذبذب المشاعر العربية تجاه مصر وبغض النظر عن غموض والتواء مشاعر البعض تجاهنا - وفى جولة المباحثات والضغوط بشأن مدينة الخليل، ورغم أن معظمنا لم ير مدينة الخليل ولن يراها، فإن موقف المصريين بشأن الخليل كان هو نفس موقفهم بشأن طابا المصرية الواقعة عند أقصى حدودنا الشمالية الشرقية!

إن شعبا يمثل هذه المشاعر لا ينبغي أبدا المزايدة على اتجاهاته وإحساسه بالمسئولية القومية، وفى ذلك أعنى بالدرجة الأولى هذا الكم الهائل من الإصدارات العربية التى تخرج عندنا، وهذا الكم الهائل من المحطات الفضائية - ويبدو أن مساهمتنا الوحيدة فى مجال الفضاء هى شراء وحجز قنوات الإرسال التليفزيونى - وليراجع المسئولون المرتبات والأتعاب المجزية التى تمنح للبعض من خلال هذه القنوات وهذه الإصدارات ليس بسبب عمق المدرسة الفكرية التى ينتمون إليها، ولكن أساساً بسبب انصياع هؤلاء لاتجاهات وسياسات معينة تتماشى مع استراتيجيات هذه الدولة أو ذاك القطر، وربما فى تماشيها هذا تكون متعارضة ومتصادمة مع أهدافنا القومية.. إلى هذا الحد وصل الخلط والخبط وإلى أرقام فلكية وصلت الأجور وثروات، المتعهدين، من أبناء هذا البلد، والذين بسبب ثرواتهم بدأوا يفرضون أنفسهم على سماء المجتمع.. وسط ذهول المخلصين والفاهمين لحقيقة ما يجرى أمامنا من عجب!

إن هذه الأوضاع لا يمكن أن تخدم بالمرة أهدافا قومية أو تساعد على تفاعل أحداث إيجابية تخدم أى تطور أو أى هدف، بل وبالعكس تماما فإن مثل هذه الأوضاع لا يمكن إلا أن تؤدى إلى التخبیط والتمزق، والحيرة التى تسبق الضياع، إن هذه الأوضاع النموذجية التى يضيع معها «خط الأفق»، ويفشل الملاح خلالها مهما كان ماهرا، فى تحديد موقعه فى هذا الكون الفسيح وسط هذا المناخ فإن طريق السلام لن يكون وحده هو الذى سيختفى وتضيع معالمه، ولكن كل، وأى طريق لن يكون له

وجود أو معنى بعد ذلك هكذا تتخبط الشعوب، وتتعثّر الأمم وتنتلشى أحلام الوحدة على أى مستوى!

ومن أخطر الاتجاهات التى ظهرت إبان أزمة إعادة الانتشار وانسحاب القوات الإسرائيلية من مدينة الخليل مثلاً ومن أخطر هذه الاتجاهات أننا جميعاً - كمؤيدين ومعارضين لعملية السلام - وجدنا أنفسنا فى مأزق حقيقى لا يسمح بغير خيار واحد: إما الانسحاب من الخليل أو التخلّى عن العملية السلمية برمتها ... أتجاه انفعالى وعفوى يعكس محدودية الاستعدادات التى تزودنا بها، والتصورات والاحتمالات التى قمنا بإعمال عقولنا فيها منذ أن وضعت الحرب أوزارها، وبدأنا فى طريق السلام ... وقد يكون هذا هو الخطأ الأكبر من جانبنا، ولهذا السبب فإن تعثر اتفاق أو سلو جعلنا نسمع من جديد طبول الحرب تدوى فى جميع أركان العالم العربى ... ليس لأن الاختيار العسكرى هو اختيار وارد، ولكن أساساً لأننا لم نجد أى اختيار بديل ويقىنى أن المجتمعات المتمرسّة فى فنون السياسة تتجنب أول ما تتجنب، أن تزج بنفسها فى مثل هذه الأوضاع الحرجة التى تحاصر الصديق والخصم معاً.

وطوال هذه الحقبة الساخنة التى حملت تهديداً مباشراً لعملية السلام ومفهوم السلام ذاته، كنت اتابع باهتمام تصريحات المسؤولين والقادة العرب هنا وهناك، وأستطيع القول أنها فى مجملها كانت تصريحات يائسة تنذر بنهاية مأساوية للأمل الوحيد من أجل حياة أفضل للجميع فى منطقة الشرق الأوسط كلها كانت تصريحات من هذا النوع فيما عدا تصريح واحد أعلنه الرئيس مبارك وكان تجسيدا للشجاعة والإحساس، فى الشرق الأوسط وفى يوم ٧ يناير الحالى أعلن الرئيس المصرى فى حديث لشبكة «بى. بى. إى» الأمريكية، أن إنهيار عملية السلام ليس معناه العودة إلى الحرب - هكذا ببساطة ووضوح - ولكنه سيفتح الأبواب لعمليات الإرهاب - هكذا بعقل وواقعية - وبعد هذا التصريح الخطير خفتت «طبول الحرب» المصطنعة، وهذأت العقول الساخنة والدماء الحارة التى تجرى فى عروق البعض منا والتى لم تجلب لنا غير مواقف حرجة مازلنا نعمل على معالجتها حتى يومنا هذا.

أن رجلاً واحداً فى المنطقة العربية بأكملها، الرئيس حسنى مبارك، هو الذى عمل على وقف هذا التدهور السياسى والإعلامى على الجانب العربى، ولكن فى منطق

العالم الحديث الذى يتجه إلى مشارف القرن الحادى والعشرين، وفى ظل النظام الديمقراطى الذى نتطلع إليه ونتشدد به، فإن هذا لا ينبغى أبدا أن يحدث ... لا ينبغى أبدا أن نترك مستقبل منطقة بأكملها يرتهن بإرادة رئيس أو حاكم أو ملك واحد، ولكن الصحيح كما قلنا فى بداية المقال أن يتم صناعة التاريخ وصياغته بواسطة هذه القلة النادرة من العظماء .. وأيضا بواسطة السواد الأعظم من الناس فى أى مجتمع .

وفى هذا الإطار فإننا لو نظرنا إلى الجانب الآخر - الجانب الإسرائيلى - فإننا سنرى الصورة معكوسة تماما، فقد كان رئيس الوزراء السابق بنيامين نتنياهو ضد أو سلو وضد الإنسحاب من الخليل، وربما كان وما زال ضد فكرة السلام بأكملها، ولكن بعد أن نشط الإعلام الغربى المحترم فى نقل حقيقة ما يجرى فى الأرض المحتلة - والتركيز على «سخافة» فكرة الاستيطان والعدد المحدود لهؤلاء المستوطنين الذين يتسببون فى المشكلات الحالية - وقطعا أنواع أخرى من المشكلات فى المستقبل سنها إن أجلا أو عاجلا - بهذه التغطية الإيجابية التى لا ندعى، كصحفيين وإعلاميين عرب، شرف المشاركة الإيجابية فيها «فنحن نكتفى بالمقاطعة البلهاء، رغم معرفتنا جميعا بأن المقاطعة فى مجال تغطية الأحداث وكشف الحقائق هى نوع من العجز والتنصل من مسئولية أساسية المهم أنهم فى إسرائيل تحركوا .. تحركت الأغلبية الصامتة وتحركت جماعة السلام الآن، وضغطوا جميعا على نينانياهو وحكومته تماما كما ضغطت واشنطن والعالم الغربى بعد أن اتضحت حقائق الأمور .. بالمسئولية وكان حاسما لهذا الهراء السياسى الذى اعتلى مسرح الأحداث بسبب كل هذه الضغوط كان أن تم أخيرا الموافقة على اتفاق الخليل بأغلبية ساحقة فى الكنيست الإسرائيلى بلغت ٨٧ صوتا لصالح تنفيذ الاتفاق مقابل ١٧ قالوا: لا أى بنسبة ٥ إلى ١ وفى ذلك علقت صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية قائلة إن الإسرائيليين لا يوافقون على أى شئ فى العالم بنسبة ٥ : ١ حتى لو كانت القضية المطروحة للتصويت هى أن الشمس تشرق من الشرق !!

وهكذا نقول فى النهاية أنه من أجل الجولان، ومن أجل الدولة الفلسطينية، ومن أجل القدس، ومن أجل كل المراحل الصعبة القادمة، فإن الأغلبية الصامتة عندنا، والتى طال صمتها وبأسها لابد وأن تتحرك وتشارك فى صنع الأحداث وصياغة

التاريخ .. عليها أن تتحرك لأنها هي التي ستبنى وتبنى إذا ما تحقق السلام، وهي التي ستخوض المعارك إن أردنا الحزب .. وهي التي ستراث الأرض وما عليها، سواء كانت نباتا أو يابا .. هي رحدة التي تقرر ذلك...

مساندة عملية السلام، وفي صباح اليوم التالي صحت مبكرا رغم أنني كنت أعمل في الجريدة حتى الساعة الرابعة صباحا، وتوجهت إلى مكتب البريد وأرسلت برقية إلى الرئيس السادات من خمس كلمات فقط وتقول: «أنت أقوى رجل في العالم» وفي ذلك كنت معجبا ببرقية تحمل نفس المعنى كان قد أرسلها الفيلسوف البريطاني العظيم يتراند راسل إلى الزعيم السوفيتي نيكيتا خروشوف عندما قرر السوفيت أن يوقفوا تصعيد الموقف خلال أزمة خليج الخنازير الشهيرة، يومها كان العالم كله على وشك الانفجار في حرب تدمر الجميع وعندما تمالك السوفيت أعصابهم أمام صلف القوة العسكرية الأمريكية كان أن بعث راسل بهذه البرقية المعبرة إلى خروشوف .. فالقوة الحقيقية ليست في الصلف، وليست في البلطجة، وليست في الاستهتار القتالي والعسكري ولكنها تكمن أساسا في القدرة على السيطرة على النفس، وعلى المشاعر والقدرة على مواجهة المحرمات الكلاسيكية والتاريخية الجامدة، والعمل على تغيير الواقع لصالح الجميع .. تغييره بالقوة العسكرية عندما تقتضى الأمور ذلك، وبقوة الدبلوماسية والفكر وشجاعة الحوار عندما يكون ذلك متاحا

في هذا الإطار كنت، ومازلت، أنظر إلى الزعيم الراحل أنور السادات الذي لم أشرف بمقابلته في يوم من الأيام والذي لم تربطني به أى علاقة من قريب أو بعيد اللهم إلا العلاقة بين مواطن ورئيس دولته .. مواطن يقوم عمله على مراقبة وتسجيل الأحداث، ورئيس تولى المسؤولية في أحلك فترة في تاريخ مصر واستطاع أن يخرج بها سالما من غياهب الهزيمة، ومن سراديب الأزدياء ومن مستعمرات «الجزام» الحضارى والاجتماعى التي عزلتنا عن أهل وحتى الأشقاء .. خرج بها الرجل من كل هذه الجحور، وكل هذه السرايب، ليفرضها فرضا على العالم كله تارة بقذيفة المدفع، وتارة بمشعل الفكر والحضارة فكان أن عادت مصر تحتل مكانتها الطبيعية تحت أشعة شمس كان ينعم في ضيائها الجميع، بينما حجبت نفسها علينا وحدنا لسنوات طويلة اقتربنا خلالها من برودة الموت!

وهكذا فإنه منذ اللحظة الأولى لهذا الخطاب التاريخي الذي ألقاه السادات وأعلن خلاله بشجاعة أنه مستعد للذهاب إلى القدس، أدركت أن هذه الخطوة ستشكل خلافا عميقا بين الجميع ، خلافا على سطح الحياة السياسية في مصر وفي العالم العربي، ولكنه يكاد يكون معدوما على مستوى الجماهير التي تسعى للحياة والعمل بعيدا عن الأضواء وبعيدا عن ادعاءات الزعامة والمواقف التي ترمى بالدرجة الأولى إلى غزو مسرح الأحداث، بصرف النظر عن مدى جدوى هذه المواقف وملاءمتها للمصالح العام، وقد يكون أكبر دليل على ذلك أن «الحفنة المقدسة» من قادة حرب أكتوبر- حربنا المنتصرة الوحيدة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي . لم يخرج أحد منهم ابتداء من الرئيس حسنى مبارك وحتى أصغر جندي في أصغر تشكيل قتالي، يعلن رفضة أو استيائه لهذا الاتجاه في تناول مشكلة صراع استغرق سنوات طويلة من عمرنا، وقد يقول أحدهم أن الانضباط العسكى الذى هو قوام العسكريين المحترفين يمنع عدم الطاعة وابداء رأى فى مشاكل الحكم والسياسة العليا للبلاد، فإن الرد على ذلك هو أن الرئيس مبارك الذى تولى زمام الأمور بعد استشهاد السادات هو الآن من أكثر الناس مساندة لاتجاه السلام وهو القائد والرئيس الذى جعل السلام حقيقة ملموسة فى جميع ربوع المنطقة بالرغم من سخافات ومماطلات ليكود نيتانياهو، وكان هذا الاتجاه هو واحد من أهم العوامل التى زادت من هامة الرئيس مبارك على مستوى العالم كله وزادت من مكانة مصر بين دول العالم المتقدم.

والى جانب الرئيس مبارك وقادة ورجال حرب أكتوبر، فإن شعب مصر خرج عن بكرة أبيه ربما للمرة الأولى منذ سنوات طويلة ليرحب بالسادات بعد عودته من زيارة القدس، خرجوا فى الشوارع وشرفات المنازل بعد غياب طويل - دون تخطيط أو تعبئة أو تسهيلات رسمية - ليقولوا للرجل أننا معك ونوافقك على هذا الاتجاه، ولأننى كما قلت فى بداية المقال كنت من مؤيدى عملية السلام منذ لحظاتها الأولى فقد كنت حريصا على أن اتحقق والمس بنفسى رد فعل الشارع المصرى حتى يمكن أن أحدد مدى صحة موقفى، ولذلك كنت بين الناس من مطار القاهرة الدولى وحتى مكتبى فى مبنى الأهرام فى شارع الجلاء، كنت هناك لأتلمس على الطبيعة نبض الشارع المصرى وحقيقة مشاعر الأغلبية الصامتة، والتى طال صمتها لسنوات طويلة، وأدركت وتأكدت أن الغالبية مع هذا الرجل ومع اتجاه السلام.

الديمقراطية والسلام

عندما قررت «مصر السادات» أن تتجه إلى السلام، وتجعل من حرب أكتوبر آخر الحروب بين مصر وإسرائيل، وأن تحاول في الوقت ذاته دخول التجربة الديمقراطية بعد سنوات طويلة من الشمولية.. وعندما نجحت «مصر مبارك» في تحويل حلم السلام إلى حقيقة ملموسة، وتدعيم الديمقراطية لتصبح منهجا ثابتا للعمل السياسى وأسلوب حياة لا رجعة فيه، عندئذ فقط بدأت تتجسد ملامح «شرق أوسط جديد» نتقدم موكبه إلى رحاب القرن الحادى والعشرين.

لقد كانت إسرائيل دائماً دولة ديمقراطية وتنادى بالسلام، ومع ذلك ظل الشرق الأوسط على ما هو عليه من حروب ونزاعات استنزفت طاقات هائلة من موارد الجميع، وجعلت من المنطقة بقعة صراع دائم وملتهب أوشك في لحظات معينة على نشوب مواجهة نووية بين القوى العظمى فى العالم «القديم» ولكن عندما قررت مصر «السلام» والديموقراطية» أصبح الأمر مختلفا فهي حقيقة معروفة على مر التاريخ أن قرارات وإرادة الكيانات الأكبر هي التي تحرك عجلة الأحداث أكثر من غيرها، ولعل ذلك يلقي الضوء على جانب من أهمية مصر اقليميا، وعالميا بالتالى، ومع ذلك فإن كثيرين - اقليميا وعالميا أيضا - يتناسون هذه الأهمية بمجرد الإنتهاء من أزمة ما.

وعلى أية حال فإن ذلك الاتجاه الجديد الذى ارتادته مصر خلال السبعينات، جاء فى ذروة الحرب الباردة، وذروة الصراع بين الغرب والشرق، ولو جاء هذا الاتجاه بعد تفكك وإنهيار الاتحاد السوفيتى لأصبح القرار الشجاع مجرد خنوع وإذعان لظروف

عالمية ومتغيرات مذهلة، أطاحت بالحليف الأول لمصر والمعسكر العربى، وكان يمكن بذلك أن ننضم إلى طابور المهزومين.

ولكن لأننا سلكنا هذا الاتجاه مبكرا وإرادتنا فقد أصبح من حقنا أن ننسب لأنفسنا نتائج السياسات التى أرتدناها، ليس بالنسبة للسلام والديمقراطية فقط ولكن أيضاً وبنفس القدر لسياسات الانفتاح الاقتصادى - التى تعرضت لنقد جاهل قاس من بعض أجنحة المعارضة - وسياسات السوق الحرة والخصخصة.. وهى كلها سياسات تحاول الآن دول الكتلة الشرقية، بما فيها روسيا نفسها، أن تلحق بنا على هذا الطريق الذى خطوناه وحدنا منذ سنوات طويلة، قبل إنهيار حليفنا الأكبر والأوحد.. كل ذلك قد يزيد حتما من أهمية مصر فى تغيير الأوضاع وتغيير مجرى الأحداث.. ولكن مرة أخرى البعض ينسى بمجرد انتهاء المواقف الصعبة والحرجة.

وقد لا يعرف كثيرون: أن هناك ارتباطا وثيقا بين الديمقراطية والسلام وتحقيق الرخاء للشعوب، فقد أكدت التجربة ما أجمع عليه المفكرون بأن الديمقراطية تعمل أولا على تحقيق الرخاء للشعب وتحقيق السلام مع الدول المجاورة، من هنا فإنه طوال قرن كامل من الزمان (المائة سنة الماضية) مزقت الحروب بقاع العالم كله، وخاضت البشرية حربين عالميتين: الأولى منها ابادت جيلا بأكمله وأضاعت فرص السلام الذى تحقق بمقتضى معاهدة فرساي، التى كانت معاهدة مجحفة أدت إلى حرب عالمية ثانية، ولكن بعد هذه الحرب الثانية كان المنتصرون قد تعلموا شيئا من الحرب الأولى فبدلا من إذلال المهزوم وإجهاض تقدمه فى شتى المجالات، عمل الحلفاء المنتصرون على إعادة بناء اليابان وألمانيا ابتداء من «خطة مارشال» وانتهاء باتفاقية «الجات» وكان هؤلاء القادة بذلك يهدفون فى المقام الأول إلى بناء قاعدة لمجتمع من الديمقراطيات الغربية، وقاعدة لاقتصاد عالمى قوى متشابك ومزدهر.

وهكذا فإنه بسبب الديمقراطية والرخاء الذى تحقق بعد ذلك تلاشت النزعات العسكرية والعدوانية التقليدية التى كانت تنطلق دائما من اليابان فى أقصى الشرق، ومن ألمانيا فى قلب أوروبا، ومع ذلك فإن السلام العالمى لم يتحقق لأنه كان مازال هناك كتلة عالمية منافسة، هى الكتلة الشرقية، لم تقترب من الديمقراطية ولم تعرف غير النظام الشمولى، وبالتالي استمر النزاع العالمى فى صورة الحرب الباردة التى

أطلق عليها المفكر العسكري الشهير كلاوزفيتز ادق تعبير - وسوف نلاحظ هنا أن هذا التعبير تم تحريفه عندنا ولا أدري إن كان ذلك تم عمدا لتبرير سياساتنا السابقة أم أنه حدث سهوا - فقد وصف كلاوزفيتز هذه المرحلة بقوله: إنه بإنهاء الحرب العالمية الثانية أصبحت السياسات الدولية لما يقرب من نصف قرن من الزمان هي أداء وممارسة للحرب ولكن بوسائل أخرى مختلفة ولم يقل ابدا أن السياسة استمرار للحرب كما سمعنا في فترة معينة، مازال البعض يردد هذا حتى يومنا هذا.

وهكذا ولأن رخاء الشعوب مرتبط بالديموقراطية فقد أنهار الاتحاد السوفيتي لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى، وباتت دول الاتحاد السابق تلهث حاليا وراء الديمقراطية وتحقيق الرخاء لشعوبها، وبات السلام العالمي لأول مرة حقيقة قوية وملموسة، وبدأت المتغيرات العالمية تتلاحق كعملية «تسلسل التفاعل» التي تتميز بإطراد مستمر في السرعة، مما جعلنا بعد عامين تقريبا من إنهيار الكتلة الشرقية نرى أمام أعيننا ما كان من المستحيل تصور حدوثه يوما ما، فقد جاء اليوم الذي رأينا فيه دول حلف الأطنطى ودول حلف وارسو يقومان بتدريبات عسكرية مشتركة فوق أراضي بولندا، ثم رأيناهم مرة ثانية في نهاية الشهر الماضي يقومان بنفس التدريبات في أراضي هولندا، هكذا تغير العالم بسرعة مذهلة وأصبح يختلف جذريا عن العالم التقليدي الذي عرفناه طوال العقود الطويلة الماضية وقد جاء ذلك حصادا لأفكار واتجاهات بدأت مع نهاية الحرب الثانية في إطار الفكر الاستراتيجي لدول العالم المتقدم الذي تحدث عن جانبه منه الكاتب «مايلز كوبلاند» في كتابه الشهير «لعبة الأمم»، وقد أدى هذا الفكر إلى تغيير أوضاع كثيرة في بقاع مختلفة من العالم بدون حروب أو طلقة نيران واحدة... أي أنهم اعادوا صنع العالم بالسلام والديموقراطية، وهما كما نرى نفس الاتجاهين اللذين أستشرفهما السادات واستطاع مبارك أن يحولهما إلى حقيقة قوية وملموسة.

وكما خطط المفكرون الاستراتيجيون لتغيير شكل العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، فإنهم لابد أن يكونوا قد شرعوا في وقت ما في تغيير الشرق الأوسط على أساس أنه منطقة استراتيجية على أعلى درجة من الأهمية، وعلى أساس أن الشرق الأوسط كما نعرف، يحتفظ في جوفه بأهم سلعة استراتيجية هي الشريان الرئيسي

للحضارة الغربية. وإذا سلمنا بهذا الافتراض المنطقي فإن الأحداث التي شهدتها المنطقة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تؤكد أن الهدف العام للتغيير الذي ارادوه لنا هو تحويل المنطقة إلى ساحة نزاع مستمر وأرض نيران مشتعلة على الدوام.

فلا يمكن أن يتصور إنسان عاقل، بعد استقرار أحداث المنطقة بعناية، أن الهدف كان يرمى إلى استقرار المنطقة ومساعدة شعوبها على التنمية والرخاء، وتشجيع قيام الديمقراطية في أرجائها المختلفة كما حدث مع ألمانيا واليابان لأن هذا الاتجاه لم يكن ليتوافق أبدا مع مصالح الشرق أو الغرب معا، ولم يكن النفوذ الأمريكي ولا النفوذ السوفيتي أن يتحقق بالشكل الذي رأيناه طوال هذه الحقبة، بدون أن يكون هناك اضطراب عارم ومزمن يغلف جميع أركان المنطقة، وفي هذا الإطار لا يمكن أن ننظر إلى «وعد بلفور» على أساس أنه مصادفة تاريخية تحققت بمجرد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وهو التاريخ الذي فيه بدأت محاولات تغيير العالم كله.

ومن هنا فإنه كما كان قرار حرب أكتوبر قرارا مصريا خالصا، فإن قرار السلام وقرار الديمقراطية كانا أيضا قرارين مصريين مائة في المائة، وفي الوقت ذاته قرار عبقرى يعمل على انتزاع المنطقة من ذلك المدار الشيطاني الذي ظلت تحوم فيه سنوات طويلة وكثيية، استنزفت خلالها كما هائلا من مواردها، بلا أى نتيجة استراتيجية اللهم إلا ازدياد كلا النفوذين: النفوذ الغربى والنفوذ السوفيتي، فقد وجد الاتحاد السوفيتي نفسه بين يوم وليلة يحقق حلم حياته بالوصول إلى «المياه الدافئة» من خلال صفقة الأسلحة التشيكية التي عقدها مع مصر فى الخمسينات.. والتي جاءت أصلا بسبب النزاع مع إسرائيل.. التي جاء بها وعد بلفور.. الذي جاء به الأنجليز!!

وقد يندهش كثيرون منا لفكرة الربط بين الديمقراطية والسلام، فالبعض عندنا هنا يقتصر نشاطهم الديمقراطى على قول «لا، بتشنج لكل ما نقوم به الدولة وكل ما يقوم به المسئولون، وقد تزداد الدهشة عندما يعلمون مدى تغفل الديمقراطية إلى كافة أوجه النشاط الإنسانى حتى أن المفكر الاقتصادي «أمارتيا سين» الأستاذ السابق بجامعة اكسفورد.. لاحظ شيئا غريبا من خلال دراسته للتجربة الديمقراطية، مؤداه أن الدول التى تعمل بالديموقراطية وتتوافر لديها صحافة حرة نسبيا لا تتعرض أبدا

إلى أخطر المجاعات، وأن الهند التي كانت تعاني بانتظام من حدوث مجاعات كان آخرها في عام ١٩٤٣ وأودت بحياة ٣ ملايين مواطن، لم تعان بعد ذلك من أى مجاعة منذ استقلالها في عام ١٩٤٧ وتبنيها للديموقراطية ونظام تعدد الأحزاب، وذلك رغم أنها تعرضت مرات عديدة خلال هذه الفترة لنقص حاد في المحاصيل الزراعية وندرة المواد الغذائية، أما في السودان واثيوبيا فيحدث العكس تماما بسبب غياب الديموقراطية وبرغم أراضيها الخصبة الشاسعة!

ويؤكد علماء الاجتماع أن قيام الديموقراطية ساهم بشكل فعال في خفض عدوان الدول بعضها على البعض، كذلك يقول علماء السياسة أن الدول الديموقراطية لا تشن حروبا ضد بعضها. وهكذا فإنه لو كان قادة الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية استخدموا الديموقراطية لتحقيق السلام وتحقيق الرخاء في مناطق معينة ونجحوا أخيرا في صناعة عالم جديد بالشكل الذي يتوافق مع أهدافهم وميولهم السياسية، فإنه من الغريب أن تأتي مصر في اعقاب خامس حرب مع إسرائيل لتنادى بالسلام وبالديموقراطية وبالرخاء في آن واحد.

لم يتوافر لمصر آنذاك «رفاهية الوقت» بحيث تلجأ إلى الديموقراطية أولا وتنتظر سنوات لتتفاعل هذه الديموقراطية وتؤدي بعد ذلك إلى السلام والرخاء، ولكن مصر السادات قفزت مرة واحدة إلى السلام الذي كان يعد في ذلك الوقت ضربا من ضروب المستحيل ذاته وربما كان هذا من حالة ما يسمونه «باعياء المقاتلين بعد المعركة» والذي يجعل هؤلاء المقاتلين يعملون لبناء اتجاهات وترتيبات ومكونات جديدة في كافة مجالات الحياة.. خاصة لو كان هؤلاء المقاتلون قد خاضوا خمس حروب في غضون خمسة وعشرين عاما!!

ومهما كان فإنها من المؤكد كانت لحظة رؤية واستشراف للمستقبل طافت بمخيلة رجل عظيم اسمه أنور السادات فاندفع بشجاعة يحاول تحقيق رؤيته ولكن القدر كان قاسيا ولم يمهل، وعندما جاء مبارك إلى الحكم أعاد «التوازن المفقود» بأن سار على اتجاهين متوازيين: الديموقراطية والسلام معا كوسيلة لتحقيق الرخاء بعد ذلك، ولما كان الرئيس مبارك يتمتع بكم هائل من الصبر، والهدوء، والتواضع، قلما نجده في إنسان واحد، كانت هذه الصفات بالذات هي مفاتيح «الصناديق المغلقة في ارجاء

المنطقة، وبذلك فقط أصبح السلام بين مصر وإسرائيل حقيقة راسخة بل خرج السلام من «الحيز الثنائي» بين البلدين إلى «النطاق الإقليمي» في ذات الوقت الذي نمت فيه الديمقراطية واستقرت في أكبر دولة في المنطقة.. وهنا فقط لاح في الأفق شرق أوسط جديد، وسنشاهد قريباً تغييرات حتمية هائلة، قد تكون أغرب بكثير من أى خيال.

السلام الذى صنعناه ... ونرضاه؟

سيظل السلام بين مصر وإسرائيل ينفرد بأنه يضم بين جوانحه أهم مقومات النجاح والاستمرار، سيظل السلام بين مصر وإسرائيل قائما طالما التزم بتلك الأسس المتينة من الاحترام .. احترام انتزعناه من إسرائيل ومن العالم كله بأداء الرجال .. وبأرواح من أثروا الموت استجلابا للشرف والكبرياء ودماء غزيرة تشهد بأن ما نحيها كانوا على استعداد للانتقال إلى العالم الآخر إذا لم يستطيعوا أن يحققوا ما يريدونه لوطنهم فى هذا العالم الغريب الذى نعيش فيه... بسبب هؤلاء جميعا وليس لأى سبب آخر- قام السلام بين مصر وإسرائيل، وكان سلاما من الطراز الأول لأنه سلام بين أنداد وليس منحة او لفته انسانية باسم المتحضر من دولة الى أخرى تستطيع أن تسحبها أو تمنعها فى أى وقت من الأوقات، ولأنه بين أنداد اكتوبر ٧٣، فقد كانت خلفيته الدائمة هى اكتوبر والقدرة الكامنة لهذا الشعب الطيب المتحضر فى ان ينقلب فى لحظة الى مقاتل من الطراز الأول يحمى ارضه وعرضه .. وقبلهما احساسه بالزهر والاحترام والحق فى الحياة.

هذه الخلفية العسكرية هى التى اقامت السلام، وجعلت الزعيم الراحل أنور السادات قادرا على أن يستقل طائراته ويتوجه إلى عرين العدر، يحدثهم عن انجازات ابنائه فى الحرب المنتصرة وعن آماله فى سلام يستطيع معه الجميع أن يحقق ما يرجوه لشعوب نصبت مواردها فى تغذية آلة الحرب التى التهمت كل شئ وعندما تحركت الأمور فى الاتجاه الصحيح حاول أطراف السلام أن يضغطوا على مصر فى اتفاقية كامب ديفيد

فلم يكن من السادات إلا أن جهز طائراته استعدادا لمغادرة واشنطن دون اتفاق أو سلام، وكان فى ذلك مرة أخرى يعتمد على خلفية الأداء العسكرى المتميز وقدرة أبنائه على البذل والعطاء، من أجل حياة شريفة واحترام يبدو واضحا اننا لا نستطيع أن نعيش بدونهم.

وتقديرا لهذه الروح الجديدة التى اعترت مصر كلها بعد أكتوبر ٧٣ التى انقذت كل شئ، كان اختيار السادات للرئيس مبارك ليكون نائبا له، وفى ذلك تجاهل السادات كل الأصدقاء والزملاء وأراد ان يكافئ مقاتلى مصر الحقيقيين الذين اعطونا كل شئ بأن يعين واحدا من أبرز قادتهم فى اعلى منصب سياسى وقيادى فى الدولة، لم يكن الاختيار والتقدير هذه المرة لكهنة السلطة وعبدتها، ولكن كان لعامل الأداء، والاستعداد للفداء والعطاء غير المحدود.

وإذا كان السادات هو الذى ارتاد السلام فى الشرق الاوسط، فقد كان مبارك هو الذى «صلب عود» هذا السلام وجعله حقيقة واقعية نلمسها فى كل أرجاء المنطقة، وإذا كانت خلفية الاداء العسكرى قد ساندت ودعمت على الدوام تصرفات السادات ومفاوضاته فى القدس، وفى واشنطن وفى القاهرة والاسماعيلية واسوان ومعظم عواصم أوربا، فإن مبارك كان ومازال تجسيدا لهذه الخلفية وتشخيصا حيا للروح الجديدة التى اعترت مصر بعد أكتوبر ١٩٧٣. لذلك لم يكن مبارك ليفرط فيما يمكن ان يحدث خلا فى الحد المناسب من ميزان القوى بالمنطقة، لانه يعلم جيدا ان الخلا فى هذا المجال الحيوى معناه الوحيد دعوة لسياسة الهيمنة وبالتالى اختفاء الاحترام بين الاطراف وبعضها، ثم اخيرا تبدد «الندية» التى دفعنا فيها أغلى ما نملك، ومن هنا كان موقف مصر القاطع من تجديد توقيع معاهدة منع انتشار الاسلحة النووية.. مالم توقع عليها اسرائيل.

ان قبول السلام مع اسرائيل كان مرده الاول هو اختفاء الشعور «بالدونية» والقضاء على عقدة النقص التى تولدت بعد الحرب ١٩٦٧، وأى عبث فى العلاقات بيننا وبين اسرائيل يمكن ان يعيد من قريب او بعيد هذا الاحساس المقيت «بالدونية»، وهذا لن يؤدى إلا الى تعميق الاحساس بالكراهية وتغذية مشاعر الاستياء والتطرف الذى قد يطيح بكل ما قمنا ببنائه بصعوبة بالغة طوال السنوات الماضية وعلى الذين يغامرون

بمثل هذه المخططات الركيكة ان بعوا جيدا ان المصريين ليسوا بالغفلة او السذاجة النى تساعد على نحاح مثل هذه المخططات دون ان يشعروا بها او بلفتوا اليها والى عواقبها، ولكن يبدو ان هناك من يخلط بين «البساطة» و«السطحية» او «البلاهة» وهم فى ذلك يخطئون خطأ جسيما.

ومن هنا كانت محاولة الاخلال بهذه المعادلة الدقيقة لصالح اسرائيل، هى سبب الصحو الشاملة لكل كوادرو وفئات المصريين ووقوفهم صفا واحدا وراء القيادة السياسية للدولة متناسين كل الخلافات السطحية التى يسئ فهمها أى مراقب اجنبى.. صحو مردها فى رأى اننا نحن الذين صنعنا السلام وجعلنا منه حقيقة بحرب شجاعة وبدبلوماسية لا تقل شجاعة واقداما، وصنعناه باسلوبنا وبشروطنا التى لم نقبل فيها اححافا بحقوقنا، وايضا بحقوق باقى الأطراف العربية، ولذلك فإن ذريعة - بل ومخطط - حفظ السلام فى المنطقة بأسلحة نووية تتوافر لدى اسرائيل وحدها، هى ذريعة باطلة ومخطط فاشل، يهدد فكرة السلام ذاتها ويتناقض تماما مع مفهومه، ومع واقع وطبيعة المنطقة والامور كلها.

والذين يفهمون طبيعة الامور جيدا فى المنطقة - مثل وزير الدفاع الاسرائيلى الراحل موشيه دابار الذى كان يقول ان احساس العرب بالكرامة لا يفوقه احساس آخر - وهنرى كيسنجر الذى ايقن ان هزيمتنا لن تؤدى الا لمزيد من الحروب - وعيزرا وايزمان رئيس اسرائيل الحالى والذى قال: ان السلام بين مصر واسرائيل تحقق من خلال «الناشكاه» (أى جهاز تصويب نيران الأسلحة) - هؤلاء وقليلون غيرهم يعرفون تماما ان الهزيمة لم تأت بالسلام كما قد يفكر اى مجتمع براجماتى، وان السلام الذى كان مستحيلا لم يتحقق إلا بعد الانتصار العسكرى، هذا مع أن التاريخ يقول لنا ان الهزائم العسكرية وحدها هى التى حققت السلام فى ربوع أوربا وفى بقاع آسيا وان قوة الردع النووى هى وحدها التى حققت السلام بين الفوتين العظميين، ونحن لا نملك إلا الاعتراف بما هو واقع وبما جرى أمام أعيننا خلال السنوات الأخيرة، ولكننا فى نفس الوقت نصيف القول بان منطقة الشرق الاوسط ليست أوربا ولا آسيا، وان النزاع العربى الاسرائيلى له طبيعة خاصة وجذور عميقة، لا تنفع معها ابدأ تجارب الصراعات الاخرى، وتتطلب معالجات خاصة جدا اما من اصحاب الشأن أنفسهم، او

بمساعدة اطراف اخرى لابد ان تتوافر لديها خبرات معينة وان تتجنب دائما الانحياز. وإذا كنا نختلف مهم وعنهم بما في فكرة ان الهزائم والقهر يؤديان الى السلام وقبول الامر الواقع فإننا لا نختلف معهم اطلاقا في مفهوم ان الفوه العسكرية تحمي وتضمن وتصون السلام، هناك هم يفهمون ذلك جيدا وجربوه في صراعات عديدة لم تنشأ ابدا بسبب نكافؤ القوى والاطراف، ونحن هنا منذ بداية عملية السلام نعرف جيدا ان السلام يحتاج الى قوة نحميه وان الضعف يغري على العدوان وهو ما لا يريده أحد في هذه المنطقة الساخنة من العالم، ومن هنا كان حرصنا دائما على «المدفع» في وقت لم يكن يتوافر فيه «الخبز» كما ينبغي وكما هو متوافر بالنسبة للجميع من حولنا وبعيدا عنا.

وإذا كانت هناك دوائر عالمية تتذرع بان «المحيط» الهادر للدول العربية الذي يحيط «بجزيرة» صغيرة تسمى اسرائيل، يمكن ان يقرر في لحظة ان يبتلع هذه الجزيرة الضئيلة، اذا كان هذا ما تنذرع به هذه الدوائر فإننا نقول ان هذه الجزيرة بأسلحتها النووية يمكن ايضا ان تقرر في لحظة ان نبدد هدير هذا المحيط، ولذلك فان السلام القائم على الندية والقدرات المتبادلة هو وحده الذي يستطيع ان يحافظ على الميزان، وبالتالي يحافظ على الاستقرار في هذه المنطقة الحبوية التي شهدت ما يكفي من حروب واضطرابات لم يجد معها في يوم من الايام التفوق النوعي للأسلحة التي كانت تحصل عليها اسرائيل حتى يومنا هذا، وإذا كنا قد سكتنا على ذلك من قبل فلأنها كانت أسلحة «تقليدية» أمكننا التغلب عليها عندما أردنا وعندما دعت الحاجة الى ذلك، أما بالنسبة للأسلحة النووية فالأمر يختلف وتختلف معه كل الموازين والتقديرية ويصبح الخيار الوحيد هو قبول القهر او الانتحار.

وإساءة الفهم من قبل العقلية الغربية لما يجري في هذا الركن من العالم أصبحت ظاهرة عامة لم تقتصر على مساندة تمرير هذه المعاهدة رغم امتلاك وتفرد اسرائيل بالأسلحة النووية، ورغم انهم في الغرب يدركون جيدا ان امتلاك الاسلحة النووية بواسطة اي دولة في اي منطقة، يعمل على تشجيع باقي دول المنطقة على امتلاك نفس هذا النوع من السلاح المدمر، وينشأ على أثر ذلك سباق للتسلح النووي بزيد من الاخطار والتهديدات العالمية، وكان هذا هو المنطق الغربي السائد تحاه العراق التي

ما زالت فرق التفتيش عن الأسلحة والنشاط النووي تعمل بها وتعبث باراضيها حتى الآن، ورأينا وسمعنا نفس المنطق ونفس المخاوف من احتمالات حصول ايران على اسلحة نووية ووسائل حمل هذه الأسلحة «صواريخ أرض - أرض» قالوا انها من كوريا الشمالية، وفي ذلك كنا نتفهم المنطق الغربى والعالمى ودوافع هذه المخاوف، لأن المسألة تتعلق بأمن الجميع، ومن الخطر فعلا توصل الدول الصغرى أو أى دول أخرى، الى هذا السلاح الذى لا يتحمل مغامرات الطيش السياسى العسكرى التى تنطلق يوميا من بعض دول العالم الثالث تعلن عن حماقة غير مسبوقة لمن يتولون شئون هذه الدول، ولا يتحمل السلاح النووى ايضا اى اهمال او اى عبث كما رأينا معا فى مفاعل شيرنوبيل رغم ان الاتحاد السوفيتى كان القوة العظمى الثانية فى العالم. ولكن عندما وصل الامر الى اسرائيل تغير المنطق وتبددت المخاوف كما لو كانوا يرون ان اسرائيل دولة كبرى ويعاملونها كواحدة من الكبار وان الأمن والاستقرار هناك لا مثيل له فى باقى دول العالم.

وفى ذلك مغالطة كبيرة، وقدر واضح وفاضح من التحيز والنفاق العالمى الذى عانى منه الجانب العربى حتى من قبل قيام دولة اسرائيل.

وليت الأمر يقتصر على ذلك ولكن لأن اساءة الفهم لما يجرى فى هذا الركن من العالم اصبحت ظاهرة عامة فإنه فى الوقت الذى لم نسمع فيه لوما أو كلمة نقد واحدة لإصرار اسرائيل على الخيار النووى فى ذات اللحظة التى يكاد يتحقق فيها السلام الشامل فى المنطقة فإن النقد واللوم كله كان من نصيب مصر بشكل خاص، وبأسلوب متحيز ومتحامل ومنفر. فقد خرجت علينا كبرى الصحف العالمية فى أمريكا وإنجلترا - وبصفة خاصة صحيفة الجارديان البريطانية - تعزف مرة أخرى تلك الاسطوانة المشروخة التى تصدح منذ سنوات وخلال فترات معينة. والتى تتحدث عن تدهور امنى وشيك، وانهييار اقتصادى لم يملوا الحديث عنه منذ سنوات، وفساد يضم كبار المسؤولين وأبنائهم ايضا، وكانت المصادر التى اعتمد عليها الكاتب العبقرى لهذا المقال هم ثلاث فئات:

سائقو التاكسى بالقاهرة، وعضو من جماعة حقوق الانسان، ودبلوماسيون غربيون بالقاهرة.. هكذا وصفهم الكاتب والصحفى الكبير دون ان يذكر اسما واحدا من هؤلاء، ولو كانت مهنة الصحافة بهذه السهولة بحيث يستقل المراسل طائرة ويهبط فى

عاصمة كبيرة يتحدث خلالها مع سائق التاكسي الذي يقله الى الفندق، ثم يتناول طعاما او شرابا مع احد الدبلوماسيين الاجانب ليخرج بعد ذلك يكتب مقالا ضخما يتحدث فيه عن دولة مساحتها حوالي مليون ونصف مليون كيلو متر مربع وتعداد سكانها يزيد عن ٦٣ مليون نسمة.. لو كان الامر كذلك لكانت مهنة الصحافة هي أسهل مهنة فى العالم وأكثرها راحة ورفاهية وتربحا. ولكن للأسف فأنهم يعلمون هناك جيدا ان مهنة الصحافة أشرف وانبل، واصعب من ذلك بكثير.

والغريب ان هذا الصحفى البريطانى نفسه تناول فى مقاله موقف مصر من معاهدة الأسلحة النووية، وخرج بفكرة رشيقة قوامها ان مصر غارقة فى المشاكل الداخلية وانها ممزقة بين المشاكل «الأصولية والفساد»، وان الحل الأمثل بالنسبة لها كان إثارة قضية خارجية «وهى مشكلة الاسلحة النووية» حتى تحشد الرأى العام والتأييد الشعبى فى موقف واحد، وتبعد الانظار عن المشاكل الداخلية التى تهدد بالأنفجار وان المشاعر المعادية لأمريكا واسرائيل من قبل المصريين لم تصل يوما الى الدرجة التى وصلت اليها حاليا، وان مصر بذلك تأمل فى اعادة بناء دورها كقوة سائدة ومهيمنة فى العالم العربى خاصة بعد ان توصل الاردنيون والفلسطينيون الى سلام مع اسرائيل بعيدا عن مصر!!

هكذا صور بعض عباقره الصحافة الغربية الاوضاع فى مصر، هكذا فسروا موقف مصر المتحضر والمنطقى من فتح ابواب السباق النووى فى المنطقة وفى ذلك حولوا نجاح الاستثمار فى مصر والازياد الطبيعى لثروات بعض المستثمرين الناجحين، الى مظاهر فساد وتضخم غير طبيعى فى الثروات كما لو كان كاتب هذا المقال يعمل بصحيفة برافدا فى أوج ازدهار النظرية الشيوعية، اما الارهاب الذى جلبوه لنا ونتعامل معه الآن بنجاح، فقد حولوه الى «أصولية» تنذر بانفجار شعبى وشيك وتغيير لا يعلم مداه إلا الله تعالى، وحتى تكتمل الكوميديا المأساوية لهذه الاسماء الضخمة فى عالم الصحافة الغربية فإنهم يتحدثون عن تقلص دور مصر فى عملية السلام ويتجاهلون ان السلام هو صناعة واردة مصرية خالصة، منذ مبادرة السادات وحتى يومنا هذا، ولكن المشكلة اننا نريده سلاما حقيقيا وعادلا، والبعض يريده سلاما قهريا وامرا واقعا على مدى المستقبل كله، وفى ذلك فإنهم يستخدمون أساليب رخيصة ويقتربون بجهل وغشم من دائرة الخطر.

الفهرس

الصفحة

٧	اهداء
٩	تمهيد
١١	مقدمة
١٥	هكذا تعلم العالم من المصريين
١٧	الأسلحة الحديثة أو الأفعوان الأسطوري
٣٧	صورة إسرائيلية عن شكل الحرب
٥٠	النكت والعقليات الإسرائيلية
٦٦	إنى ذاهب للبحر
٧٧	قتل الخوف من السلام
٧٩	سلام بلا حمائم
٨٧	الشجعان والصقور
٨٩	قافلة الشجعان
٩٥	حتى آخر ملليمتر!
١٠٢	رفح وسور برلين!
١١٠	الصقور القدامى!
١١٦	الصقور الجدد!
١٢٣	السلام الى أرادته إسرائيل على مقاسها!
١٢٥	السلام السخيف
١٣١	كامب (ديتون) .. وكامب (ديفيد)
١٣٧	وداعا للحرب .. وليس للسلاح!
١٤٣	الارهاب يحاول حصار السلام!

الصفحة

١٤٥	(شالوم) .. و(دماء)!
١٥١	وهذا أيضاً إرهاب!
١٥٦	شرم الشيخ .. وما بعدها!
١٦٣	إنهم يلحقون بمن سبقوا الزمن!
١٦٥	الرجل الذى انتصر حيا وميتا
١٧٢	«غليون» السلام
١٧٧	الجنرال الغبى
١٨٣	القدس - وذرية قابيل!
١٨٩	الشرق الأوسط الذى صنعه مصر!
١٩١	السلام يتطلب شجعانا!
١٩٨	الديمقراطية والسلام
٢٠٤	السلام الذى صنعناه .. ونرضاه؟

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٥٨٢ / ٩٩

I S B . N 977 - 01 - 6402 - X



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل -
للشباب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن
مصر كانت وما زالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع
والحضارة المتجددة.

سموان مبارك

